غادة كربلاء

Bibliotheca Alexandrina
0148107

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت - لبنان

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رفع أ. علاء الدين شوقى أسكنه الله الفردوس

غادة كربلاء

روايات
تاريخ الإسلام

غادة كربلاء

تتضمن مقتل الامام الحسين بن علي واهل بيته في سهل كربلاء ، ووقعة الحرة وولاية يزيد بن معاوية وما جرى من الاحداث والفتن الى وفاته سنة ٦٤ للهجرة

تأليف
جرجي زيدان

دار الجيل
بيروت ـ لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الجيل

الطبعة الثانية

ابطال الرواية

* **الامام الحسين**	: ابن علي بن ابي طالب
* **يزيد بن معاوية**	: ثاني ملوك الامويين
* **حجر بن عدي الكندي**	: من شيعة علي
* **غادة كربلاء**	: سلمى بنت حجر بن عدي
* **عبد الرحمن الكندي**	: ابن عم سلمى
* **عامر الكندي**	: كفيل سلمى
* **شمر بن ذي الجوشن**	: قاتل الحسين
* **عبيد الله بن زياد**	: ابن عم يزيد
* **مسلم بن عقيل**	: ابن عم الحسين
* **عبد الله بن الزبير**	: ابن الزبير بن العوام
* **زينب بنت علي**	: اخت الحسين

مراجع رواية غادة كربلاء .

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

★ مراصد الاطلاع
★ قاموس الاسلام
★ الانسكلوبيديا البريطانية
★ حياة الحيوان
★ الآداب السلطانية للفخري
★ كتاب الارشاد
★ نهج البلاغة
★ الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني
★ المستطرف في كل فن مستظرف
★ العقد الفريد
★ طبقات الاطباء
★ مروج الذهب للمسعودي
★ حكاية عاشوراء
★ كتب تاريخ : ابن الاثير ــ ابي الفداء ــ الدميري

- ١ -

فذلكة تاريخية

قريش قبيلة من عرب الحجاز تتفرع عنها عدة بطون أشهرها بطن «عبد مناف» . وهو فخذان : «بنو أمية» و«بنو هاشم» . وكانت الرياسة في قريش لهذين الفخذين لا ينازعهما فيها منازع ، الا ان بني أمية كانوا اكثر عددا ، وكانت لهم الزعامة في الحرب . حتى اذا ما جاء الاسلام والنبي من بني هاشم ــ اعتز به الهاشميون وذهل الناس بأمر النبوة عن العصبية ، لاسيما ان الاسلام نهاهم عنها ، وقال نبيه : « ان الله أذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها لاننا وأنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ! »

وبقي العز لبني هاشم في مكة حتى مات «ابو طالب» عم النبي وهاجر بنوه مع من هاجروا من الصحابة إلى المدينة ، وفيهم أخواه «حمزة» و«العباس» وكثيرون غيرهما من بني عبد المطلب ، وجميع بني هاشم . فخلا الجو في مكة لبني أمية ، وصارت الرياسة اليهم اثناء محاربتهم المسلمين في «بدر» وغيرها ، ورئيسهم يومئذ «ابو سفيان»

والد «معاوية» مؤسس الدولة الاموية •

فلما انتصر المسلمون في غزواتهم ، وهموا بفتح مكة في السنة السابعة من الهجرة ، كان ابو سفيان كبير قريش فيها ، وقد تحقق يومئذ ان المسلمين فاتحوها لا محالة ، فجاءهم وأسلم ، ثم أسلم اولاده كذلك•

ولما تولى «ابو بكر» الخلافة لم يكن بنو أمية ، وأهل قريش كلهم ينالون من المناصب الا بعض ما يناله المهاجرون الاولون ، فشكوا ذلك اليه فقال لهم : «ادركوا اخوانكم في الجهاد» • وانقذهم في حروب «الردة» فأحسنوا الجهاد وقوموا الأعراب • ثم تولى عمر فبعث بهم الى حرب الروم في الشام فافتتحوها ، وظل معظمهم فيها ، فولى عليها منهم «يزيد بن ابي سفيان» حتى مات في طاعون «عمواس» ، فخلفه اخوه «معاوية» • ولما تولى الخلافة «عثمان» أقره عليها فاتصلت رياسة بني أميه على قريش في الاسلام كما كانت قبله واشتغل بنو هاشم بأمر النبوه ونبذوا الدنيا •

فلما قتل عثمان واختلف الناسَ في امر من يبايعونه بعده ، كان دعاة علي اكثر عددا . ولكنهم كانوا خليطا من قبائل عربية شتى ، وبعكس ذلك كانت احزاب معاوية كلها من قريش ، اهل البأس والشدة ، وهم جند الشام الى ذلك الحين • فكانت عصبية معاوية أشد وأمضى ، ثم ظهر «الخوارج» من رجال علي فانكسرت شوكته ، حتى اذا قتل سنه ٤٠ هـ اضطر ابنه الحسن ان يخلع نفسه ، فاتفق الجماعة على بيعة معاويه في منتصف سنة ٤١ هـ • وكان الناس قد رجعوا الى امر العصبية فدانوا للأقوى مالا وجاها وبذلك غلب معاوية واستقل بالخلافة ، وساعده على ذلك دهاؤه وحسن سياسته ، فانه كان يصانع رؤوس العرب من بني هاشم بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه ، وكانت غايته في الحلم لا تدرك ، ولكنه كان من ناحية اخرى يبالغ في الحط من قدر

بني هاشم وبخاصة اهل البيت منهم ، وأبناء الامام علي . حتى كـــان يفرض على من يعترف بطاعته ان يلعن عليا جهارا ، فاذا لم يفعل عاقبه . وله في ذلك حوادث كثيرة اشهرها مقتل «حجر بن عدي الكندي» احد أشراف بني «كندة» في السنة الحادية والخمسين للهجرة . فقد قتلوه لانه ابى ان يلعن عليا !

* * *

وأقام معاوية خليفة في الشام عشرين سنة (من سنة ٤١ حتى سنة٦٠هـ) والمسلمون في الحجاز والكوفه ينتظرون موته ليبايعوا «الحسين بن علي» لقربه من الرسول على اساس ان الخلافة شورى يولونهـــا من ارادوا بالانتخاب كما كان شأنها الى ذلك الحين ، لكن معاوية سبقهم قبل موته الى بدعة أحدثها اذ اوصى بولاية العهد لابنه «يزيد» . فجعلها بالارث . فلما توفي تولى يزيد الخلافة وسنه بضع وثلاثون سنة ، فبايعه الناس بين راض ومكره..

- ٢ -

غوطة دمشق

«غوطة دمشق» في بلاد الشام مشهورة بخصبها، وهي مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها خمسة أميال ، وتحيط بها جبال عالية ، وتجري فيهـــا أنهار تسقي بساتينها ثم تصب فضلاتها في بحيرة هناك . وفي هـــذه «الغوطة» عمرت دمشق منذ بضعة آلاف منا السنين . وفيها عدا دمشق

قرى صغيرة متفرقة ، بينها المغارس والحدائق من اشجار الفاكهة ، تجري بينها الجداول والانهار •

وكان على مسافة ميل من الباب الشرقي من دمشق ، وعلى مقربة من «برج العذراء» دير قديم يقال له «دير خالد» نسبة الى «خالد بن الوليد» الذي جاء لفتح الشام في أوائل الاسلام فنزل فيه ، وكان اسمه قبل ذلك «دير صليبا» وهو على مقربة من «برج العذراء» في بستان تكاثفت فيه الاشجار من كل فاكهة زوجان •

واذا نظرت الى ذلك الدير من خارجه تخيلته قلعة منيعة ، وكان بناؤه مربعا تكاد زواياه تستدير ، ويكسو جدرانه من الخارج بلاط صقيل ، وقد مالت هذه الجدران في صعودها نحو الداخل بحيث اصبحت قاعدة البناء اوسع من سطحه قليلا • وله مدخل ضيق قصير لا يكاد يدخله الرجل الا منحنيا • وله باب من الخشب المصفح بالحديد قد كساه من الصدأ غشاء كثيف . وليس للدير مدخل سواه ، ينفذ منه الى طرقة طولها بضع أذرع كأنها ممر ، تنتهي بباب آخر يؤدي الى ساحة الدير وحولها الغرف طبقة واحدة ، الا «علية» منفردة يقيم فيها رئيس الدير في الصيف والخريف •• وللدير نوافذ في اعلى الجدران لا يدركها كف الواقف ولو تطاول اليها ذراعه وهي كوى صغيرة فيها شبك من الحديد• ولا يكاد المتأمل يقف هنيهة حتى يدرك الغرض من بناء تلك الاديرة على هذه الصورة لانهم كثيرا ما كانوا يتخذونها معاقل وحصونا عند الحاجة على انهم لم يكونوا يستغنون عن اصطبل او حظيرة يحبسون فيها مواشيهم ودوابهم •

وكانت للدير حظيرة هي بقعة مربعة من الارض طول ضلعها خمسون ذراعا يحيط بها سور من أعواد غليظة مغروسة في الارض متحاذية ، ثبتت في أطرافها العليا عوارض من الخشب شدت اليها بأمراس من قشور

الاغصان ، ولها باب مصنوع من هذه الاعواد كذلك ، يدور على مصراع في طرف احد جدران السور مما يلي جدران الدير التي تلاصقها ، ويغلق بعارضة ضخمة تدخل في هذا الجدار •

ويغطي نصف الحظيرة سقيفة قائمة على اعمدة غليظة ؛ تأوي اليها الماشية والدواب في ايام الشتاء ، ويحيط بالدير والحظيرة والبستان جميعا سور كبير من العليق المتكاثف ، علوه قامة وبعض القامة ، وبابه من الخشب ايضا لكنه اضخم كثيرا ، وقد علقوا عنده ناقوسا اذا جاء طارق دقه فيسمعه اهل الدير فيفتحون له •

تلك حالة دير خالد في السنة الستين للهجرة ، وهي السنة التي وفي فيها معاوية بن ابي سفيان وخلفه ابنه يزيد على الخلافة الاسلامية في دمشق • وكان رئيس الدير يومئذ شيخا طاعنا في السن رومي الاصل ، قضى فيه ما ينيف على نصف قرن تدرج خلاله في مراتب الرهبنة حتى صار رئيسا • ولما نزل خالد هناك كان هذا الرئيس راهبا صغيرا فشهد فتح دمشق ، ولم يكن يعرف العربية ولكنه آتقنها بعد ذلك • وكان لقدم عهده ودماثة اخلاقه قد حاز منزلة رفيعة لدى الرهبان • وكان معاوية يحترمه ، وكثيرا ما كان يجالسه اذا خرج للرياضة في الغوطة ، وربما مازحه •• ولما تولى يزيد الخلافة ظل على احترامه واكرامه •

* * *

في يوم من ايام الخريف من تلك السنة ؛ اصبح اهل الدير وقد جاءهم الفلاحون بأحمال الفاكهة من بساتين الدير ، وفيها سلال العنب والسفرجل والتفاح والرمان والكمثرى والخوخ وغيرها • وكان الرهبان يتوقعون قدومهم كل صباح من ايام الخريف • فنزل بعضهم لمساعدتهم

في ادخالها الى باحة الدير : وهي بقعة مكشوفة تحيط بها الغرف وتظلل معظمها صفصافة كبيرة في وسطها ، وبقرب الصفصافة بئر يستقي منها اهل الدير عند الحاجة .

فأدخلوا السلال أزواجا وأفرادا ، والرئيس لا يزال في «عليته» وقد عاد اليها بعد صلاة الفجر واشتغل بالصلاة الانفرادية ؛ فلما انتبه للضوضاء خرج من العلية حتى وقف على قمة سلم من الحجر ينتهي الى الباحة . وقد تزمل بعباءته فوق المسوح ، فرأى الرهبان يحملون الاحمال ، فقال لهم : «مالي اراكم تدخلون السلال وأنتم تعلمون انه لا بد من حمل بعضها الى دار الخليفة لتفرق في أمرائه ورئيس شرطته كالعادة ؟» . قال ذلك واتجه الى جانب من السطح أشرف منه على معظم الغوطة ، وكانت الشمس قد أطلت من وراء الجبال عن بعد فأرسلت أشعتها على تلك المغارس الواسعة ففزعت أطيارها ، وتناثرت عن الاغصان أسرابا تتسابق الى الخلاء البعيد . وقد اتجه معظمها نحو الشرق كأنها تلتمس الشمس وهي تحييها وترحب بها بالزقزقة والتغريد .

ونظر رئيس الرهبان الى ما بين يديه من البساتين فاذا هي تشرح الصدر وتذهب الغم بروائحها العطرية المنبعثة عن أنجم الريحان المتكاثف في أشكال مختلفة ، وأكثره قائم أسوارا تفصل بين البساتين او بينها وبين الدروب ومجاري الماء . ناهيك بالرياحين الاخرى تظللها الاشجار على اختلاف أشكالها وأقدارها ، وقد اعتاض اكثرها عن اوراقه الخضراء بالثمار المختلفة الالوان ، وفيها الرمان الاحمر ، والسفرجل الاصفر ، ...س الابيض ، والخوخ البنفسجي ، والتفاح الوردي . وفي بعض الغوطة كروم العنب المختلفة تتدلى منها العناقيد ، وفيها الابيض والاحمر الوردي ، والاسود الفحمي . يتخلل ذلك أعشاب ...ض قميصا جميلا ، وقد اختلفت آلوانها باختلاف أعمارها ،

ففيها الاخضر الحاني ، والاصفر الفاقع ، والابيض اليقق ، والاحمر الزاهي ، يزينها ما ينحدر بينها من مجاري الماء فوق الحصباء فيختلط خريره بتغريد العصافير وحفيف الاوراق • كأن الغوطة جنة تجري من تحتها الانهار • والشمس من وراء ذلك ترسل أشعتها فتتكسر على تلك المجاري متلألئة ، ويستوقف النظر انكسارها على سطوح البحيرات في بعض المستنقعات •

وكان الرئيس منذ اقامته هناك لا يكاد يفوته صباح لا يقف فيه مثل ذلك الموقف ، يسرح بصره في تلك المناظر البهجة ، فيشغل بها عما قام من ضوضاء الرهبان والفلاحين وهم يشتغلون بترتيب الفاكهة وحمل الاحمال ، وما يخالط ذلك من رغاء الشياه وخوار الثيران ونهيق الحمير في الحظيرة • فوقف يتأمل في صنع الخالق العظيم ثم أرسل بصره الى أطراف الغوطة من جهة مطلع الشمس فرأى آثار الدروب عن بعد ، فاذا هي أشبه شيء بآثار الجداول اذا جف ماؤها •

وفيما هو ينظر اليها بصر بقافلة رجح انها قادمة من العراق او الحجاز، وفيها النياق والحمير يقطر بعضها بعضا ، فطاب له استشراف تلك القافلة لعله يعرفها او يتبين جهتها ، فحال البعد بينه وبين ما يريد ، وكان قبل شيخوخته حاد النظر لا تعجزه معرفة الصور من مثل هذا البعد ، فلما أعجزه ذلك الان وقد كل بصره ، تذكر شيخوخته ، وأسف لانقضاء معظم العمر، وتحول نحو ساحة الدير وعاد الى مخاطبة الرهبان والاشراف عليهم ، حتى اذا فرغ من ذلك نزل الى الكنيسة فأقام صلاة الصبح ثم عاد الى غرفته العليا •

* * *

صعد رئيس الرهبان على السلم الحجري داخل الدير ، وفي يده درج

يقرأ فيه حتى دخل «عليته» فاتكأ واستغرق في القراءة ، الى ان انتبه لجعجعة جمال تدنو من الدير فنادى «قيّم الدير» ـــ وكيله ـــ وكان كهلا قوي البنية ممتلىء الجسم جاء الدير من عهد قريب • فلما وقف بين يديه قال له : «اني أسمع جعجعة ، فأشرف على الطريق واستطلع خبر القادمين» • فأطل القيّم من بعض جوانب السطح ثم عاد وهو يقول : «رأيت جمالا محملة ، وأناسا يظهر من لباسهم انهم من العراق» •

فقال : «أظنهم من القافلة التي تبصرتها عن بعد في هذا الصباح • وقد جاءوا الينا فلا بد لنا من القيام بضيافتهم» •

قال القيّم : «وما الذي يدعونا الى ذلك وهم غرباء لا نعرفهم ؟ أما كفانا ما نقدمه من غلاتنا وثمارنا لرجال الحكومه ؟! اذا نزلوا عندنا آنزلناهم ساعة ريثما يستريحون ثم ينصرفون» •

قال : «اذا ارادوا الانصراف انصرفوا ولا حرج عليهم • وأما اذا آثروا البقاء فلا مندوحة عن القيام بضيافتهم ، عملا بالعهد الذي بيننا وبين خلفائهم » •

ولم يكن القيّم قد سمع بذلك العهد ، فقال : «وما هو هذا العهد ؟»

قال : «هو عهد آخذ على النصارى منذ الفتح يقضي عليهم بأمور كثيرة منها ان يقوموا بضيافة المسلمين ثلاثة ايام . يخدمونهم ويقدمون لهم كل ما يحتاجون اليه • وهب انه لم يكن هنالك عهد ، أيليق بنا اذا نزل عندنا ضيف الا ان نكرمه حتى يرحل ، ولو اقام سنة ؟!»

فخجل القيّم وأراد ان يعتذر ، فسمع صوت الناقوس فقال الرئيس: «لقد صدق ظني فاستقبل الضيوف ورحب بهم ، وعد الي بعد ان تؤويهم في اماكنهم» •

فبعث القيّم احد الرهبان الصغار ليفتح له باب البستان ، ووقف هو بباب الدير ينظر اليهم وهم مقبلون ، فاذا هم ثلاثة قد تزمل كل منهم

بعباءة ، وعلى رأسه الكوفية مشدودة بالعقال تغطي وجهه ، ومعهم بضعة جمال تحمل اجربة مملوءة تمرا جافا ، ويدل ظاهرهم على انهم من تجار العراق ، ولعلهم جاءوا بهذه الاحمال ليبيعوها في دمشق ، ولما دنوا من باب الدير تبين الوكيل مما بدا من وجوههم ان بينهم فتاة في مقتبل العمر فاشتبه في امرهم ، وقال في نفسه : «لو كانوا قادمين للاتجار لما كان ثمة داع لمجيء تلك الفتاة معهم» • فلما بلغوا الباب خف لاستقبالهم، وخاطب بعض الخدم باليونانية ان يأخذوا الجمال الى الحظيرة للعلف ، واستقبل الضيوف مرحبا بهم بلغة عربية مستعجمة لحداثة عهده بالشام ، فدخلوا جميعا وهو يتقدمهم ، وكان احدهم طويلا فلم يستطع الدخول من باب الدير الا مطأطئا رأسه فمروا في الطرفة الضيقة حتى انتهوا الى الباب الآخر ومنه الى ساحة الدير حيث الصفصافة والبئر •

- ٣ -

غادة كربلاء

وانبيء الرئيس بدخولهم ، فنزل لملاقاتهم ورحب بهم ودعاهم للجلوس فأنسوا بفصاحة لسانه العربي وان تكن العجمة ما زالت بادية فيه ، وجلس على مقعد تحت الصفصافة وكل منهم في شاغل من نفسه، فتفرس الرئيس فيهم فرأى احدهم كهلا في نحو الخمسين من عمره طويل القامة عريض الاكتاف ، خفيف العضل واسع العينين أسودهما ، خفيف العارضين واللحية ، رقيق الوجه ، فتذكر انه رآه غير مرة • وكان الثاني شابا لا يتجاوز بضعا وعشرين سنة ، ولكن من يراه يحسبه ابن

ثلاثين ، لخصب جسمه ونمو عارضيه ولحيته . وكان مشرق الوجه تكاد الصحة تتدفق من وجنتيه .

وأما الفتاة ، فلم يتمالك الرئيس عند النظر اليها من الاعجاب بجمالها اذ لم يسبق له ان رأى فتاة مثلها في عمره الطويل الذي قضاه في دمشق وضواحيها . على كثرة ما شاهد من بنات الروم والعرب والنبط والسريان واليهود ، ولم تقع عينه من قبل على فتاة في وجهها من الجمال والهيبة ما في وجه هذه الفتاة ، وقد ادهشه منها بنوع خاص جمال عينيها وان لم تكونا كبيرتين كعيني رفيقها الشاب ، ولكنهما كانتا حادتين ينبعث النور من آهدابهما ، جذابتين لا يستطيع من يراهما غير الاستسلام لهما والرضوخ لسلطانهما . وقد زادهما تأثيرا في القلوب انهما كانتا في وجه ناضر ، ومد توردت وجنتاه حتى كاد الدم يقطر منهما !

والتفت الرئيس الى بساطة ثوبها فخيل اليه انها من الفقراء ، وقال في نفسه : «اذا كان ابوها فقيرا بالمال فانه غني بهذه الفتاة» . انها لو حسرت أكمامها وأزاحت لثامها لعلم انها ليست من الفقر في شيء ، لما بأذنيها من أقراط اللؤلؤ وما في معصميها من الاساور والدمالج من الذهب والفضة والعاج ، ناهيك بما يراه حينئذ من جمال فمها وما فيه من المعاني السالبة للقلوب مما يقصر دونه القلم ويكل عن وصفه اللسان. والجمال الذي يعبر عنه باللسان او القلم ليس جمالا ، وانما هو صورة يصنعها الكاتب او المتكلم ألفاظا . وأما الجمال فما أعجزك عن وصفه ، وخانتك القريحة في التعبير عنه . ذلك هو جمال سلمى عروس روايتنا. فقد كان في محياها شيء لا يعبر عنه الا بالسحر ، فلا يراها احد الا شعر يميل اليها ، ولا يكلمها حتى يقع تحت سلطانها فلا يقوى على جدالها ، فضلا عما يبدو عليها من مخايل الذكاء وحدة الذهن وأصالة الرأي ، مع ما يتجلى في وجهها من عزة النفس والأنفة .

وكان الرئيس لما رأى اولئك الضيوف قد ظنهم لاول وهلة أبا وولديه، ولكنه ما لبث ان تبين من تباين الملامح انه ليس أباهما ، وان تكـــــن المشابهة قريبة بين الشاب والشابة •

فافتتح الرئيس الحديث قائلا : «يظهر انكم قادمون من مكان بعيد، لعلكم من العراق ؟»

فأجاب الكهل قائلا : «نعم يا سيدي اننا قادمون من الكوفة بأحمال التمر الى أسواق دمشق» •

ولم يكد يتم كلامه حتى كان الرئيس قد تذكره وعرف اسمه فابتدره قائلا : «ألست عامرا الكندي ؟» • فابتسم عامر وقال : «نعم انا هو يا سيدي ، وقد كتمت امري لارى هل تذكر ضيفك القديم ؟»

فتنهد الرئيس وقال : «كيف لا أذكره وقد شاهدت من ايام ضيافته يوما هائلا •• اني لا ازال أذكر تلك الساعة الرهيبة تحت الجوزة» •

فأشار عامر بملامح وجهه اشارة تنم عن انه لا يحب تلك الذكرى المؤلمة • وأراد استئناف الحديث فسبقه الرئيس الى السؤال قائلا : «لعل هذا الشاب ابنك وهذه الفتاة ابنتك • ما اسماهما ؟»

فتوقف عامر لحظة وهو يحك طرف ذقنه بسبابته ثم قال : «نعم انهما ولداي : عبد الرحمن وسلمى» •

فاكتفى الرئيس بذلك وقد لحظ ان في نفس عامر شيئا يريد كتمانه، فتشاغل بحصى كانت في جيبه جعل يعدها بين اصابعه في داخل الجيب• وكانت هذه الحصى تقوم مقام السبحة عند الرهبان في تلك الايام ، لانهم كانوا يفرضون على انفسهم صلوات معدودة في اليوم فيضعون فـــي جيوبهم من الحصى بقدر ذلك العدد ، وكلما فرغوا من صلاة رمـــوا حصاة حتى يفرغ الجيب ، فيكون هذا دليل اتمام الفرض ، ولم تتخذ السبحات في النصرانية الا في القرن الثالث عشر للميلاد • فتشاغـــل

الرئيس بتلك الحصى وحول الحديث الى موضوع آخر فسأل : «في كم يوم قطعتم الطريق من الكوفة الى هنا ؟»

قال عامر : «قطعناها في عشرين يوما مع القافلة» .

فقال الرئيس : «وهل تكبدتم هذا السفر الطويل للاتجار بهـــــذه الثمار ؟» انها لا تباع بما يساوي تعبكم في حملها» .

فاشتم عامر من سؤال الرئيس رائحة الارتياب ولم ير بدا من ازالة كل شك في نفسه فقال : «صدقت يا مولاي ، ولو كان الامر لبيع هذه البضاعة فقط ما تكبدنا المشقة من اجلها ، ولكننا نبيعها ونبيع الجمـــال ايضا ، وهي تباع بثمن غال وأرباحها أضعاف أرباح التمر ، وفي عودتنا تتجر في تجارة اخرى نحملها من دمشق الى العراق» . ثم تذكر ان مجيء سلمى معه غير عادي ، فراح يبرره بقوله : «أما سلمى فأرادت ان تأتي معنا للتفرج على دمشق ومعالمها ، فرأينا ذلك أولى لها من البقاء فـــي الكوفة وحدها في اثناء غيابنا» .

* * *

وكان عامر والرئيس يتحدثان وسلمى تنظر الى شيخ متكىء فـــي زاوية الباحة وبجانبه كلب كبير الهامة أسود اللون قوي البنية أقعى على مؤخره ، وقد نصب يديه واعتمد عليهما كأنه اسد رابض ، واتجه الـــى سلمى كأنه يتأمل وجهها وعيناه تتلألآن كالمصباح .

وأما الشيخ المتكىء فانه استلفت انتباه سلمى بنوع خاص لغرابة هيئته وخشونة لباسه . ولم تكن قد رأت مثل ذلك الرجل قـــط ولا سمعت بمثله ، اذ كان من الشيخوخة بحيث لم يبق في رأسه ووجهه شعـــرة سوداء حتى يخيل الى الناظر الى رأسه عن بعد انه عمامة بيضاء قد برز منها أنف وعينان سوداوان غائرتان أحدق بحدقتيهما قوس الشيخوخة ،

يعلوهما جبين متجعد . ومما يزيد منظره رهبة انه لم يمشط شعره ولا غسل وجهه منذ أعوام ، فأصبح الشعر ملبدا لا يسلك فيه مشط . وكان ساعة رأته سلمى يحك لحيته ورأسه ، يحاول تمشيطهما بأظافر مستطيلة كالمناجل ! وأغرب من ذلك انها لم تر عليه من اللباس الا ثوبا من نسيج الشعر كالمسوح التي يلبسها النساك ، او هي عباءة اصبحت لقدم عهدها لا يعرف لها لون !

وكان الشيخ متكئا بجانب الكلب وقد غلبه النعاس ، فكان يغمض جفنيه فينام وهو لا يريد ان ينام ، وكلبه بالقرب منه وكلاهما مستأنس برفيقه .

وكان عبد الرحمن ايضا مأخوذا بذلك الشيخ الهرم وبكلبه ، ينظر اليهما مفكرا . فلما ذكر عامر اسم سلمى انتبهت والتفتت اليه والدهشة ظاهرة في وجهها ، واشارت الى ذلك الشيخ وهي تقول : «أدهشني امر هذا الشيخ ، وأرى عبد الرحمن قد استغربه مثلي» .

فسمع عبد الرحمن اسمه فالتفت لفتة تدل على تعجبه مثلها ، فأشار الرئيس اليهم باصبعه وعض شفته ، ودنا منهم فتطاولوا اليه بأعناقهم فقال لهم همسا : «ان هذا الشيخ أشبه الناس بالنساك والمتعبدين ، ولكنه يخالفهم في أمور كثيرة وكأن به خبلا ! جاءنا منذ أعوام فأقام عندنا ، وهذا الكلب الاسود قلما يفارقه ليلا ولا نهارا ، ولم نره مرة غسل وجهه او قلم أظافره او غيَّر ثوبه . ومن غريب امره انه لا يأوي الى غرفة ينام فيها . فهو يتوسد يوما هذه الزاوية ، ويوما تلك ، وآونة يبيت في الغوطة على بعض الاشجار او تحت بعضها . ومن اغرب ما فيه انه لا يذوق اللحم ولا الخبز ، ولا يأكل شيئا غير الفاكهة ، فيطوف البساتين يقطف الثمار بيده ويتسلق الاشجار لهذه الغاية لا يعترضه معترض منا رحمة به وشفقة على حاله ، والفاكهة هنا كثيرة» .

فقال عامر : «لا بد ان يكون ذا كرامة ، لان أمثال هذا الرجل يعدون عندنا من اصحاب الكرامات» •

وبينما هم يتهامسون اذ سمعوا قرع الناقوس ، فخف احد الرهبان ليستقبل القادم فطال وقوفه خارجا ولم يعد فنهض الرئيس في اثره •

* * *

وكانت سلمى قد مدت يدها نحو الكلب وأشارت اليه تدعوه فهرول اليها مسرعا فناولته ثمرة كانت في جيبها ، فاستأنس بالفتاة وجعل يحك رأسه بثوبها ، وهي تمس جبينه بأناملها فيبالغ في الدنو منها وهو يحرك ذنبه • فلما سمع قرع الناقوس انتصب بغتة ورفع ذنبه والتفت الى باب الدير ، وحدق بعينيه ونشر أذنيه كأنه يتوقع ان يرى احدا وقد تأهب للوثوق عليه !

فلما طال وقوف الرئيس خارجا نبح الكلب نبحة قوية ذعر لها الجالسون وبخاصة الشيخ الناسك ، وكان نائما فأفاق والتفت الى ما حوله فرأى كلبه بعيدا عنه فناداه : «شبيوب !» • فدنا الكلب منه وجعل يلحس أنامله وذراعه والشيخ يقول : «اهلا برفيقي الصديق ، ما ظنك بهذا القادم ، يظهر لي من عوائك انك اسأت الظن به !»

فلما سمع عامر صوت الشيخ يتكلم العربية الفصحى وقد سمى كلبه باسم عربي جاهلي قال في نفسه : «يظهر ان الرجل عربي ايضا ، فمن هو يا ترى وما هو شأنه» •

أما الرئيس فكان قد لحق براهبه فرأى بالباب رجلا في لباس يشبه لباس عامر ورفيقيه ، ولكنه أجفل لما رآه في وجهه من البرص الشديد الى درجة البياض الناصع • على انه ظنه لاول وهلة رفيقا لعامر وقد تخلف في الطريق فرحب به وقال له : «ادخل ان رفاقك هنا منذ

ساعتين » •

فأومأ اليه الرجل ان يسكت واجتذبه بيده الى منعطف وراء الباب حيث لا يراهما احد وقال له : «احذر ان تذكـــــر امر مجيئي لاحد ، وبخاصة اولئك الثلاثة الذين ظننتهم رفاقي ، فان في الامر سرا عظيمـا ساطلعك عليه فيما بعد • وأما الآن فأرجو منك ان تدخلني غرفة لا يراني فيها احد ولا يعلم احد بوجودي هنا • وأقول لك مرة اخرى : احــذر جيدا ، فالامر يتعلق بمولانا امير المؤمنين» •

فأجفل الرئيس وأجاب على الفور قائلا : «اني فاعل ما تريد ، واذا شئت ان اخرج هؤلاء الاضياف من الدير في هذه الساعة فعلت» •

قال : «لا تخرجهم ، بل استبقهم كما يشاءون ، ولكنني أوصيك بأن تكتم خبر مجيئي» •

قال : «سمعا وطاعة» • وأدخله من باب في تلك الطرقة يؤدي الى ممر يستطرق الى حجرات يقيم بها الرهبان الذين يشتغلون بالصناعات ، وفيهم الحائك والخياط والنجار وصانع النعال او السلال وغيرهم • في حين لم يكتم الضيف الابرص دهشته مما يراه وكأنه في بعض أسواق الكوفة ؛ على انه لم يستغرب ملابسهم لانه كان قد رأى رهبان العراق في مثلها ، وهي مسوح من نسيج الشعر او القطن فوقه جلد ابيض من جلود الماعز لا يفارق أجساد الرهبان ليــــــلا ولا نهارا الا وقت تناول الاسرار المقدسة •

ومشى الرئيس حتى انتهى الى غرفة بجانب الكنيسة • فأدخله اليها وهو يردد في ذهنه ما سمعه منه ، ثم عاد الى ضيوفه في ساحة الديــر واختصر في مجالستهم ومحادثتهم ، فأمر بعض الرهبان ان يعد لهم مكانا يقيمون به ، فأدخلهم غرفة ليس فيها الا حصير ؛ وعاد ، فأغلقوا البــاب وجلسوا يتهامسون •

وكان اول من تكلم منهم عبد الرحمن فخاطب عامرا قائلا : «ألم أقل لك انك اخطأت بمجيئك في أثري الى هذه الديار ؟» ولو اتيت وحدك لكان خيرا . ولكنك اصطحبت سلمى فأوجبت اساءة الظن بنا ، حتى سمعت من رئيس هذا الدير ما سمعته من التلميح والتعريض» .

فقال عامر : «قلت لك يا بني انني انما جئت بدافع مما اخذته على عاتقي من امر حراستك فانك بمنزلة ولدي ، وقد مات ابوك وأوصاني بكفالتك . ورأيتك تورطت في عمل خطير لم يقدم عليه احد قبلك ، وأردت ان تأتيه منفردا في بلاد غريبة ، فكيف لا اتبعك ؟» وأما سلمى فانها أشد قلقا مني عليك» .

فقال : «أتخطئني في عمل انتقم به لآل الرسول (ص) وانجي بـه المسلمين ؟»

فقطعت سلمى عليه الكلام بصوت هادىء والرزانة بادية في وجهها وقالت : «لا ريب في ان ما جئت لاجله امر مقدس ، واذا انت لم تقم به فأنا أتولاه ، ولعلي أولى به منك ، فان الرجل الذي تريد قتله واراحة الناس منه قد اساء الي ، وبيني وبينه تأر عظيم فانك تعلم ان أباه قتل ابي شر قتلة . قتله وأنا لم اره ولا عرفت له صورة ، قتل (حجرا الكندي) سيد قومه ووجيههم . وقد قتله لانه ابى ان يطيعه ويلعن الامام عليا ابن عم رسول الله ؟ (صلعم) . والله لقد حق القتل على يزيد ، ان لم يكن انتقاما للامام علي فانتقاما لحجر بن عدي . وان لم يكن لهـذا او ذاك فانقاذا للعباد من سلطان شغل عن مصالح الخلافة بتربية الكلاب والقرود والفهود ، ومجالسة النساء ، والصيد والقنص ، والشعر وضرب الطنابير والشراب ، ناهيك بتهاونه في أمور الدين . فالاقدام على قتله فضيلة . ولكنه عمل خطير محفوف بالمخاطر . انى لك ان توفق الى ذلك وأنت فرد ويزيد خليفة ، يحيط به الاعوان والانصار في الليل والنهار ؟» اني

اخاف عليك مما اصاب ابن ملجم الذي تجرأ على قتل الامام علي وسط المسجد ولم ينج من القتل ، فهل تعرض نفسك لمثل ذلك الخطر ؟»

وكان عبد الرحمن جالسا وسلمى تتكلم . فلما بلغت هذا الحد وقف وجعل يخطر في الغرفة ذهابا وايابا ، وعليه مظاهر الاهتمام ، ثم قال : «سامحك الله يا سلمى ، اذا كنت وأنت فتاة تتطوعين لقتل هذا الرجل ، وترين ذلك فريضة وفضيلة ؛ فكيف ترضين لي ان أحجم عن ذلك ، وان ضحيت في سبيله بحياتي ؟!»

فقطعت كلامه قائلة : «لا تضح حياتك حماك الله من كل شر . هذا هو الامر الذي دفعني الى اللحاق بك مع عمي هذا . خرجت من الكوفة تريد قتل يزيد في دمشق الشام . ومن هو يزيد ؟ أليس خليفة المسلمين الان وفي يده الحل والعقد ، وحوله الجند والاعوان ؟! فخفنا ان تقع بين يديه او يصيبك شر فلحقنا بك لنكون بقربك نبذل لك العون، إذ لا صبر لنا على بعدك . أما يزيد فأنا لا ارى راحة الا بقتله ، وما كان أغنانا عن ارتكاب هذه الجريمة لو ان أباه ترك الخلافة بعده شورى للمسلمين . واذن ما كان ليتولاها الا حبيبنا وسيد شباب المسلمين (الامام الحسين) . لانه أحق الناس بها . ولكن معاوية ابى الا ان يوصي بها لابنه هذا بالرغم من كل مسلم ، فكيف نسكت على ذلك ؟. وزد على هذا ان معاوية قتل أبا حجر شر قتلة . فاذا كنت انت ناقما لقتل حجر لانه عمك ، فانه ابي ، وقد قتل ولم أره . ثم انكم لم تنبئوني بمصيره الا من عهد قريب . فقد ربيت في البادية صغيرة لا أعرف غير اللعب والمرح وأنا احسب ابي حيا في الكوفة والناس اذا ذكروه اطنبوا في مدح مروءته وشهامته . وكنت أتوقع اذا شببت ان آتي اليه فأراه وأفاخر به الناس . فما لبثت حتى علمت بقتله» .

قالت ذلك وغصت بريقها وتوقفت عن الكلام هنيهة ثم قالت لعامر :

«وأنت يا عماه ألا تخبرني كيف كان قتل ابي ؟ انك قد وعدتني بذلك حين نصل الى قبره ، وها نحن اولاء وصلنا . فأين ما وعدتني به ؟»

فتنهد عامر وقال : «نعم يا بنيتي اني أرعف مدفنه ، وأظن رئيس هذا الدير يعرفه ايضا . ألم تسمعي اشارته الى ذلك العمل الفظيع ؟»

قالت : «سمعت ولم أظهر شيئا لاننا نريد كتمان امرنا عن كل انسان لنرى ما ينتهي اليه حالنا» .

وكان عبد الرحمن ما يزال يخطر في الغرفة وقد حل عقاله وأرخى الكوفية على أكتافه وراح يردد بصره في سلمى وهي تتكلم معجبا بحميتها . فلما قالت ذلك اجابها : «اعلمي يا سلمى يا بنت عمي وخطيبتي ويا املي ويا منتهى أربي . اعلمي رعاك الله اني لا يهنأ لي عيش حتى انتقم لابيك المدفون في هذا المرج ، مرج عذراء . فاذا وفقت الى ذلك فقد حق لي ان اكون لك وتكوني لي كما أوصى أبوانا وهما من الأحياء . واذا لم أوفق فلا آسف على حياتي» .

فصاحت وقد كاد الحياء يغلبها وهي تحاذر ان ترفع صوتها خوف الرقباء : «حياتك أعز حياة عندي ، وما معنى بقائي اذا انت أصبت بسوء ! فكيف تلومني اذا لحقت بك ؟» وأما عمنا عامر فانه لنا بمنزلة الاب وقد انقطع عن العالم من اجلنا ، وهو رفيقنا في السراء والضراء» .

وكان عامر مع شدة اعظامه الامر لا يمل النظر الى سلمى متتبعا كل حركاتها وسكناتها وهي تتكلم ، ثم ينظر الى عبد الرحمن ، ويعجب بما أودعه الخالق فيهما من الخلال النادرة .

* * *

أدرك القارىء من خلال الحديث ان سلمى هي ابنة «حجر بن عدي» قتيل مرج عذراء ، وان عبد الرحمن ابن عمها وخطيبها ، وعامرا كفيلهما .

وتفصيل ذلك ان سلمى ولدت في الكوفة قبل مقتل ابيها بثمان سنوات فعهد في امرها الى امرأة عامر ترضعها عند زوجها في البادية ، وكانت تلك عادة المتحضرين من العرب اذا ولد لهم مولود عهدوا في رضاعته الى بعض نساء البادية ، فيربي في الخلاء حيث الهواء الطلق والعيش الرغيد ، فيشب اولادهم أصحاء البنية أشداء • فربيت سلمى في حجر عامر ثماني سنين لم تر فيها اباها . فلما سيق الى مرج عذراء سنة ٥١ للهجرة مع آخرين ، كانت أمها قد ماتت وكان آخر ما قاله حجر ان اوصى عامرا بالعناية بها وأن يتخذها ولدا له . وان يزوجها بعبد الرحمن، ولكن بعد موت معاوية بن ابي سفيان • فظلت في حجره حتى شبت ، وكان عامر كثير التردد على الشام للتجارة منذ صباه ، وبنو كندة ما زالوا على النصرانية. فكان اذا جاء دمشق اقام بها حينا يتردد على الاديار والكنائس يجالس اهل المعرفة فيقصون عليه شذرات من تاريخ اليونان وما يتعلق به من تواريخ الشام وغيرها • وكان يحفظ كل ذلك ويتفهمه حتى عد بين رهطه من احسنهم معرفة وأوسعهم اطلاعا على التاريخ، وآنس عامر في سلمى ذكاء ورغبة في استطلاع اقاصيص الاولين ، فكان يقص عليها كل ما اتصل به من أخبار الفرس والروم وما بينهما •

وكانت كثيرا ما تسأله عن ابيها فيكتم عنها خبر مقتله ، حتى اتفق منذ عامين ان ذكر الناس خبره وهي تسمع ، فاستطلعته الحقيقة فباح لها بها ، فثارت حميتها ، وهاجت عواطفها ، وعزمت بينها وبين نفسها على الانتقام •

وأما عبد الرحمن ابن عمها فقد ربي معها في تلك البادية منذ كانا طفلين على ان تكون زوجة له • وقد مات ابوه وهو طفل فكفله عامر ، فلما بلغ أشده وسمع بمقتل عمه حجر وما اعظمه الناس من امره عزم على ان يثأر له • وكان كسائر بني كندة وغيرهم من دعاة اهل البيت لا يرون

لمعاوية حقا في الخلافة ، فشب هو وابنة عمه على كره الامويين والتشيع لآل البيت . وكان معاوية ما زال حيا والناس يتوقعون موتـــه ليبايعوا الامام الحسين . فصبر على ما في نفسه ، وقد نزل هو وعامر الحجاز ومعهما سلمى وأقاموا بالمدينة في منزل الامام الحسين زمنا ينتظرون ما يأتي به القدر .

وقضت عليهم الاحوال قبيل وفاة معاوية ان يعودوا الى الكوفــة فبلغوها وقد مات معاوية . وجاء الخبر بمبايعة يزيد فعظم ذلك علـى عبد الرحمن ، وأقسم لا يفرحن حتى يقتل يزيد . ووافقته سلمى علـى ذلك . وعامر لا يبدي اعتراضا ، ولكنه لم يكن يحسب ان عبد الرحمن سيقدم على ذلك لتوه . فأصبح عبد الرحمن ذات يوم فودع سلمـى وعامرا وأخبرهما انه عازم على السفر الى دمشق ليبر بقسمه ، فاستمهلاه وهو لا يصغي ، وأخيرا ودعهما وخرج يريد دمشق . وفي مساء يـوم سفره تعاظم بلبال سلمى فلم يهدأ لها بال حتى لحقت به هي وعامر بحجة الاتجار بالتمر ، فالتقيا به في القافلة قبل الغوطة بقليل ، فساءه ذلـك ولامهما على مجيئهما ، ولكنه لم ير حيلة في ارجاعهما فجاءوا معا الى الدير كما مر . وبعد ان دار ما دار بينهما من الحديث قالت سلمى : «لا بد لنا من تدبر الامر بالحكمة ، أما قتل يزيد بين رجاله وجنـوده فتهور لا نرضاه لك ولا هو مستطاع . فهل من رأي صائب رأيته في الوصول الى هذه الغاية ؟»

فلما سمع عبد الرحمن كلامها رجع الى صوابه ، وجلس وهو يصلح وضع كوفيته على رأسه وقال : «انك تنطقين بالحكمة . ولا تظنيني من الجهل بحيث أقتحم هذا الامر بجهالة ، ولكنني رأيت رأيا سأعرضـه عليكما وأظنكما توافقانني عليه» .

قال عامر : «وما هو ؟» . قال : «انه لا يمضي اسبوع لا يخرج فيه

يزيد للصيد ، لان له ولعا شديدا فيخرج بحاشية كبيرة بين فارس وراجل الى هذه الغوطة لكثرة ما فيها من الطير والظباء • وأعرف قرية على مقربة من هنا يقال لها : «جرود» يكثر فيها حمار الوحش ، وهو مولع بصيده فاذا أوغل في الصيد خرجت متنكرا أراقب انفراده خلف طريدة فأرميه بنبل او أطعنه بخنجر • فاذا لم أتمكن في المرة الاولى حاولت ذلك في الثانية او الثالثة حتى أظفر به وأكفي الناس شره» •

فلما سمعت سلمى قوله ابتسمت وآبرقت عيناها سرورا بصواب رأيه وقالت : «انت رأي حسن ، ولكن علينا ان نراقب خروجه للصيد» •

قال عامر : «ذلك علي ؛ فاذا اصبحنا غدا دخلت دمشق بأحمالي وتجارتي واستطلعت خبر الصيد» •

فقالت سلمى : «على الله التوفيق • ولكنني ارجو منك يا عماه ان تدلنا على قبر ابي فنزوره وأكحل عيني بترابه ، وأسمع منك خبر مقتله بالتفصيل » •

قال : «ان القبر يا ابنتي على مسافة ربع ساعة من هذا الدير ؛ تحت شجرة من الجوز كبيرة تظهر للرائي عن بعد • ولكننا لا نستطيع الذهاب اليها الا ليلا لئلا يرانا الرئيس او غيره ممن يعرفون المكان فيشتبه فينا» •

وقضوا بقية ذلك اليوم في الاستراحة من وعثاء السفر وهم يتأهبون للخروج في الليل الى قبر حجر •

* * *

ولما غربت الشمس صعدوا الى سطح الدير وهم يتظاهرون برغبتهم في تفقد منظر «الغوطة» ليلا ، فلقيهم رئيس الدير وكان جالسا في احد جوانب السطح يصلي على انفراد • فتغافلوا عنه وجعلوا يتحادثون ؛ حتى اذا فرغ من صلاته نهض واقترب منهم ، وكان القمر بدرا كاملا فما

أزف الغروب حتى أطل من وراء الافق ، كأنه يتطلع الى الشمس يبغي وداعها وهي تتجاهل غرضه ؛ وظلت سائرة في سبيلها لا تلتفت اليه ولسان حالها يقول : «اذا كنت تبغي لقائي فاتبعني !» . وكأنه شعر بحاجته الى نورها فجرى في أثرها يتبع خطاها ويسترق من أشعتها حبالا يرسلها على تلك الغوطة الواسعة الاطراف ، وفيها من الفاكهة أزواج ، ومن المياه أقنية وبحيرات ؛ ينعكس النور على أسطحها متلألئا كالمصابيح. ولم تمض ساعة حتى علا البدر فأنار تلك الحدائق الغناء فأصبحت بحرا كثير الالوان ، ينوب فيه عن هدير الامواج حفيف الورق وخرير المياه وزقزقة الطيور وهي عائدة الى أوكارها أسرابا متكاثفة ، تسبّح الخلاق العظيم !

وشغل عامر بالحديث مع الرئيس ؛ اما سلمى وعبد الرحمن فانهما لبثا واقفين يتأملان في ذلك المنظر البديع ، وسلمى قلقة تفكر فيما يهدد عبد الرحمن من الخطر المقبل ، وتحاول ان تلهي نفسها بالنظر الى ما امامها من الاشجار الباسقة والينابيع الجارية والاشعة المتلألئة ؛ وما يتخلل ذلك من تغريد العصافير وأصوات الماشية في الحظيرة من معاء الماعز وخوار الثيران وجعجعة الجمال . على ان هذا كله لم يلهها عن مقتل ابيها وما تتوقعه من سماع حديث عامر تلك الليلة .

وأما عبد الرحمن فقد كان همه تدبير الحيلة لبلوغ أربه من يزيد ؛ لا يعير الغوطة ولا مناظرها التفاتا . ثم حانت منه لفتة الى سلمى وهي تنظر الى الغوطة وقد أطل عليها البدر ووقع ضوؤه على وجهها ؛ فكأنهما قمران تلاقيا على موعد ، فثار فيه ثائر الحب وأعجب بما في ابنة عمه من جمال المعاني . وتذكر اعجاب الشعراء بجمال البدر فقال في نفسه :

«اين تلك الصفحة المستديرة الصماء من هذا الملاك الناطق الذي ينبعث نور الحياة من محياه ؟» . وكأن لسان حاله يقول :

بدري أرق محاسنـــا والفرق مثل الصبح ظاهر

وكان عامر يحدث الرئيس في شؤون شتى لا علاقة لها بما في نفسه من امر «حجر» وعزمهم على زيارة قبره تلك الليلة . وكان نظره متجها الى الجوزة التي يعرف انها تظلل ذلك القبر . وهو يغافل الرئيس في ذلك لئلا يلحظ تطلعه ، حتى اذا وقع نظره على تلك الجوزة عرفها عن بعد من كبرها وانبساط اغصانها ، فتنهد عميقا وجعل يتفرس في الطريق المؤدي اليها ، ثم التفت الى الرئيس فقال له : «سبحان الخالق العظيم. ما اجمل هذه الليلة المقمرة ، وما ألطف هذه المناظر البديعة» .

قال الرئيس : «ان هذا يدلنا يا ولدي على قدرة الباري سبحانه وتعالى . اني اقف هذا الموقف فيدفعني جماله الى شكر العناية العظمى التي أعدت للانسان كل ما يحتاج اليه في هذه الحياة الدنيا» .

فقال عامر : «سبحانه جل سلطانه ، ما اجمل صنعه ، وما أبدع مخلوقاته ! ان في العراق كثيرا من البساتين الغضة ولكن اكثر اشجارها من النخيل . أما أصناف الفاكهة التي اراها في هذه الغوطة فانها خاصة ببلاد الشام . وتحدثني نفسي ان اخرج في هذا الليل أستمتع بشذا الرياحين وأجول بين الاشجار . فهل ما يمنع من ذلك ؟»

قال : «لا ارى مانعا يمنعكم . غير اني أفضل النظر اليها من فوق هذا السطح فانه أوسع أفقا وبخاصة في ضوء القمر» .

قال : «الحق ما قلت ، ولكنني سمعت ابنتي هذه تتشوق الى الخروج فوعدتها بأن أرافقها فنمشي هنيهة ثم نعود» .

قال : «لا مانع من خروجكم . واذا شئتم ارسلت معكم بعض الرهبان يرشدكم ويسير في خدمتكم» .

قال : «اني أعرف الطريق جيدا فلا حاجة بنا الى دليل» .

قال : «افعلوا ما بدا لكم» .

فاتجه عامر الى عبد الرحمن وسلمى وقال لهما : «هلم بنا الى الغوطة تتمشى بين اشجارها . فقد أذن لنا الرئيس بذلك» •

فنهضا ، وتحولوا جميعا فنزلوا الى ساحة الدير وأطلوا منها على الحجرة التي كانوا مقيمين بها اثناء النهار ، فرأوا بابها مفتوحا ، فأسرع عامر وأغلقه • وبينما هو عائد رأى كلب الناسك نائما بالقرب من الباب ولم ير شيخه معه ، فعجب لذلك لانه كان قد سمع ان الشيخ الهرم قلما يفارق كلبه ليلا او نهارا •

وكان عبد الرحمن وسلمى قد سبقاه الى باب الدير ، فخرج في اثرهما وهو يقول : «لقد رأيت شيبوب نائما وحده بقرب حجرتنا فأذكرني ذلك الشيخ الجليل • ومما ادهشني من آمره انه يتكلم العربية الفصحى وفي لهجته ما يقارب لغة العراق • ووالله لقد تمنيت ان أخلو به لأسأله عن أصله » •

قالت سلمى : «اين هو من العراق ، وما الذي يأتي به الى هذه الديار ؟ اني اراه رجلا له ولكنني استأنست بشيبوب • ليتنا نصطحب هذا الكلب فانه قد يدفع عنا أذى الدبابات او ينبهنا الى لص قادم» •

فقال عبد الرحمن : «دعونا من هذا الرفيق فاننا في حاجة الى التستر » •

وكانوا قد وصلوا الى باب البستان ففتحوه وخرجوا الى الغوطة وهم يتظاهرون في باديء الامر بأنهم يريدون التنزه مشيا • حتى اذا تواروا عن الدير أوغلوا بين الاشجار المتكاثفة ، وعامر يسير امامهما ، وسلمى وعبد الرحمن يتبعانه ، تارة يطلعون وطورا ينزلون ، وهم يتحسسون الطرق على ضوء القمر المنبعث من خلال الاغصان •

وما زالوا يقطعون قناة هنا ، او يعبرون جسرا هناك ، وهم سكوت؛

وقلب سلمى يخفق تطلعا الى قبر ابيها ، وعبد الرحمن يفكر فيما عزم عليه من قتل يزيد ، حتى اشرفوا على مرتفع بسيط تعلوه شجرة جوز منبسطة الاغصان ، تظل بقعة خالية من النبات وفيها مرتفعات من الاتربة على غير نظام • فلما صاروا تحت الجوزة وقف عامر ثم التفت الى سلمى وأشار بيده الى أكمة صغيرة بجانب ساق الجوزة وقال : «هذا هو يا سلمى قبر ابيك» •

وما أتم كلامه حتى ترامت على ذلك التراب تقبله وهي تبكي وتصيح: «وأبتاه !• هذا هو ترابك فأين انت ؟!• اين انت يا حجر بن عدي سيد كندة ؟!» • وأوغلت في البكاء •

أما عبد الرحمن فتقدم حتى وقف بجانب سلمى وقد أنكر صياحها وخشي افتضاح امرهم بسببه ، فوقف الى ساق الجوزة وقال لسلمى : «لا تبكي يا سلمى فان البكاء لا يليق على ميت سننتقم له في الغد» • والتفت الى عامر وهو يقول : «اقصص علينا يا عماه تفصيل مقتل صاحب هذا القبر» •

فقال عامر : «اجلسا يا ولدي لأقص عليكما الخبر كما عرفته» • ثم قال بصوت ضعيف : «اعلما اننا في ارض العدو فينبغي ان نتستر ما استطعنا » •

فسكتوا برهة وهم ينظرون الى ما حولهم • فاذا بالمكان قفر خال ، لا يسمع فيه غير خرير السواقي عن بعد ونقيق الضفادع ، وقد وقعت ظلال تلك الجوزة على ما حولهم فأووا الى الظل بجانب القبر ، وجلسوا على التراب وسلمى جاثية وعيناها تدمعان ، وهي صامتة تتطاول بعنقها وتنتظر ما سيقوله عامر •

- ٤ -

مقتل حجر بن عدي

جلس عامر جاثيا امام قبر حجر ، وبدأ بتلاوة «الفاتحة» واستغفر الله ثم افتتح الحديث قائلا : «اعلمي يا سلمى ان أباك صاحب هذا القبر كان من اقوى آنصار الامام علي ، وقد حارب معه حروبا كثيرة وجاهد معه بسيفه ولسانه جهادا حسنا الى آخر نسمة من حياته . فلما قتل الامام علي وصار امر الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان في دمشق ظل ابوك وغيره من العلويين على مبدئهم بين مجاهر ومستتر ، وكان ابوك يقيم بالكوفة مع قومه ينادي بحبه عليا على رؤوس الاشهاد .. ولكن سلطان معاوية ما لبث ان استفحل ، وكان كما تعلمين قد جعل ديدنه الحط من كرامة علي وجميع اهل البيت ، فكان يأمر الناس ان يلعنوه ، فمنهم من يطيع خائفا ومنهم من لم يكن يفعل ، وفي مقدمة هؤلاء ابوك حجر وبعض رفاقه . حتى اذا كانت سنة ٥١ للهجرة بعث معاوية الى الكوفة عاملا اسمه المغيرة بن شعبة وأوصاه حين بعثه قائلا : (أما بعد فان الذي الحلم قبل اليوم تقرع العصا ، وقد يجزيء عنك الحكيم بغير التعليم ، وقد اردت ايصاءك بأشياء كثيرة انا تاركها اعتمادا على بصرك ، ولست تاركا ايصاءك بخصلة . لا تترك شتم علي وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب لاصحاب عي والاقصاء لهم) . فقال له المغيرة : (قد خرجت وجربت وعملت قبلك لغيرك فلم يذمني ، وستبلو فتحمد او تذم) . فقال معاوية : (بل نحمد ان شاء الله) . فأقام المغيرة عاملا على الكوفة وهو لا يدفع شتم علي والوقوع فيه والدعاء لعثمان والاستغفار له . فكان ابوك اذا سمع ذلك قال : (بل اياكم من دم علي ولعنه !) .

ثم يقول : (أنا أشهد ان من تذمون أحق بالفضل ومن تشكرون أولى بالذم) • فيقول له المغيرة : (يا حجر ، اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته؛ فان غضب السلطان يهلك أمثالك) • ثم يكف عنه ويصفح • فلما كان آخر امارة المغيرة قال في علي وعثمان ما كان يقوله فقام ابوك وصاح فيه صيحة سمعها كل من في المسجد وقال : (مر لنا ايها الانسان بأرزاقنا ، فقد حبستها عنا وليس ذلك لك ، وقد اصبحت مولعا بذم امير المؤمنين)• فقام اكثر من ثلثي الناس يقولون : (صدق حجر وبر ، مر لنا بأرزاقنا فان ما انت عليه لا يجدي علينا نفعا) • وأكثروا من هذا القول وأمثاله• فنزل المغيرة فدخل عليه قومه وقالوا : (علام تترك هذا الرجل يجترىء عليك في سلطانك ويقول لك هذه المقالة فيسخط عليك امير المؤمنين معاوية ؟) • فقال لهم : (اني قد قتلته • سيأتي من بعدي امير يحسبه مثلي ، فيصنع به ما ترونه يصنع بي ، فيأخذه ويقتله • اني قد قرب آجلي ولا احب ان اقتل خيار هذا المصر فيسعدون وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة) •

«ثم توفي المغيرة ،وولي الكوفة زياد بن ابيه المشهور بدهائه ومكره، فقام في الناس فخطبهم عند قدومه ، ثم ترحم على عثمان وأثنى على اصحابه ولعن قاتليه • فقام ابوك ففعل كما كان يفعل بالمغيرة ، فكظم زياد، حتى اذا عزم على الفتك به دخل المسجد وصعد المنبر يوما فحمد الله وأثنى عليه ، وأبوك جالس ، ثم قال : (أما بعد فان غب البغي وألغي وخيم ، ان هؤلاء جمعوا فأثروا ، وأمنوني فاجترأوا على الله ، لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ، ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر وأجعله نكالا لمن بعده ، ويل لك يا حجر ، سقط العشاء بك على سرحان) • ثم أرسل الى ابيك يدعوه وهو بالمسجد • فلما اتاه رسول زياد قال لاصحابه : (لا نأتيه ولا كرامة له !) • فرجع الرسول فأخبر

زيادا فأمر صاحب شرطته ، وهو شداد بن الهيثم الهلالي ، ان يبعث اليه جماعة ففعل ، فسبهم اصحاب ابيك ، فرجعوا وأخبروا زيادا .

«فلما رأى زياد امتناع ابيك بأهله وأصحابه احتال بشتى الحيل حتى تمكن من القبض عليه خدعة . وذلك ان بعض اصحاب ابيك استأمنوا زيادا على ان يرسله الى معاوية في الشام ، فأمنه زياد ، وأرسلوا الى ابيك فجاء زيادا ، فلما رآه قال : (مرحبا بك أبا عبد الرحمن . أحرب ايام الحرب ؟ وحرب وقد سالم الناس ؟. على اهلها تجني براقش) . فقال ابوك : (ما خلعت طاعة ، ولا فارقت جماعة ، واني على بيعتي) . فأمر به الى السجن . فلما ذهب قال زياد : (والله لأحرصن على قطع رقبته !)

«ثم جد زياد في طلب اصحاب ابيك فهربوا . فأخذ كل من قدر عليه منهم ، وجاء بعض الوشاة الى زياد فقالوا له : (ان رجلا هنا يقال له (صيفي) من رؤوس اصحاب حجر . فبعث زياد فأتى به وقال له : (يا عدو الله ، ما تقول في ابي تراب ؟) . قال : (ما أعرف أبا تراب) . فقال: (ما أعرفك به ، أتعرف عليا بن ابي طالب ؟) . قال : (نعم) . قال : (فذاك ابو تراب) . قال : (كلا .. ذاك ابو الحسن والحسين) . فقال له : (صاحب الشرطة يقول هو ابو تراب وتقول لا ؟) . فقال : (أفأن كذب الامير أكذب انا ، وأشهد على باطل كما شهد ؟) . فقال له زياد : (وهذا ايضا ؟ علي بالعصا) . فجاءوه بها فقال : (ما تقول في علي ؟) . قال : (أحسن قول) . قال : (اضربوه !) . فضربوه حتى لصق بالارض . ثم قال : (اقلعوا عنه . ما قولك في علي ؟) . قال : (والله لو شرحتني بالمواسي ما قلت فيه الا ما سمعت مني) . قال : (لتلعننه او لأضربن عنقك) . قال : (لا أفعل) . فأوثقوه حديدا وحبسوه . واني والله لم أر أشجع منه الا ابوك رحمهما الله !

«ثم جمع زياد اثني عشر رجلا اتهمهم بالدعوة لعلي ، وأشهد شهودا

ان حجرا جمع اليه الجموع وأظهر شتم الخليفة معاوية ودعا الى حربه ، وانه قال : (ان هذا الامر لا يصلح الا في ابناء ابي طالب) • وانه وثب بالمصر ، وأخرج عامل امير المؤمنين ، وأظهر عذر ابي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه ، وان هؤلاء الاثني عشر الذين معه هم اصحابه على رأيه • ثم دفع زياد أباك وأصحابه الى اثنين من خاصته وسلمهما تلك الشهادات وأمرهما ان يسيرا بهم الى الشام •

«فساقاهم من العراق حتى انتهيا بهم الى هذا المكان وهو مرج عذراء فأبقياهم هنا وسارا الى دمشق ، فدخلا على معاوية وعرضا عليه الكتب التي كانت معهما • واتفق ان كان في مجلس معاوية أناس استوهبوه ستة من رفاق ابيك فوهبهم اياهم ، وبعث أناسا الى هذا المرج فوصلوا اليه في المساء في مثل هذا الوقت •

* * *

«وكنت قد صحبت الجماعة من الكوفة ومكثت عن بعد أنتظر ما سيكون ، فلما رأيت القادمين من دمشق ومعهم الاسلحة والانطاع ، علمت انهم قادمون ليقتلوه وأصحابه ، ولم اكن أعلم ان معاوية وهب ستة منهم • فدنوت عند ذلك من ابيك فلما بصر بي دعاني اليه وقال لي قولا لا أنساه عمري ، وكأني به قد تحقق دنو الاجل فقال : (اني أوصيك يا عامر بوليدتي سلمى ، احتفظ بها ما استطعت ولا تزوجها الا بابن عمها عبد الرحمن ، ولكن لا تفعل ذلك الا بعد موت معاوية هذا• فاذا مات وعاد امر الخلافة شورى للمسلمين ، فانهم يولون الحسين لا محالة ، فاذا وليها فهو ينتقم لنا ان شاء الله) • ولم يكد ابوك — وأسفي عليه — يتم كلامه حتى وصل القادمون من عند معاوية ،

فاستقدموا أباك وستة من رفاقه وقالوا لهم قبل القتل : (انا قد أمرنا ان نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له . فان فعلتم تركناكم ، وان أبيتم قتلناكم) . فقالوا : (لسنا فاعلي ذلك) . فأمروا فحفرت القبور وأحضرت الاكفان . وقام ابوك وأصحابه يصلون عامة الليل . فلما كان الغـــد قدموهم ليقتلوهم فقال لهم ابوك : (اتركوني لأتوضأ وأصلي ، فاني ما توضأت ولا صليت) . فتركوه فصلى ، ثم قال : (والله ما صليت صلاة قط أخف منها . ولولا ان تظنوا فيّ جزعا من الموت لاستكثرت منها) . ثم قال : (اللهم انا نستعديك على أمتنا ، فان اهل الكوفة شهدوا علينا . وان اهل الشام يقتلوننا . والله لئن قتلتموني بها فاني لاول فارس من المسلمين هلك في واديها ، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها) . ثـم مشى احدهم اليه بالسيف فارتعد رحمه الله ، فقالوا له : (زعمت انك لا تجزع من الموت فابرأ من صاحبك وندعك) . فقال : (وما لي لا أجزع وأنا ارى قبرا محفورا وكفنا منشورا وسيفا مشهورا ؟ وانـــي والله ان جزعت من القتل لا اقول ما يسخط الرب) . فقتلوه ــ والهفي عليه ــ وقتلوا ستة من رفاقه ، ثم صلوا عليهم ودفنوهم في هذا المكان ، وهذا هو قبر ابيك رحمة الله عليه . وخرجت انا الى الكوفة ثم قمت بكفالتك وربيتك انت وعبد الرحمن» .

وكان عامر يتكلم وسلمى وعبد الرحمن شاخصان اليه بأبصارهما ، وقلباهما يكادان يشتعلان . فلما بلغ هذا الحد لم تتمالك سلمى نفسها وقالت : «ويل لقساة القلوب قتلة الابرياء ! ألأنه لم يلعن الامام عليــا قتلوه ؟. ان الله منتقم من القوم الظالمين» .

فوقف عبد الرحمن واستل خنجرا أبرق فرنده في ضوء القمر وقال وهو ينظر الى القبر : «ايها الراقد بلا حراك ، يا عماه ، يا حجر بن عدي، اني لا أخاطب ترابا ولكنني أخاطب روحا طاهرة لا أظنها تفارق هـــذا

المكان .. اعلم رحمك الله اني سأنتقم لك قريبا بحد هذا الخنجـــــر ان شاء الله» .

واستولى عليهم السكوت تحت تلك الشجرة هنيهة لم يكن يسمع فيها الا طنين البعوض وخرير الماء . وكان كل من هؤلاء الثلاثة يفكر في شيء واحد مرجعه الانتقام . ثم هبت سلمى من مكانها بغتة وجثت على قبر ابيها وتناولت حفنة من ترابه بيدها وقالت وهي تنظر الى السماء من خلال الاغصان : «انت تعلم ايها الواحد القهار ان ابي هذا قد مـــات مظلوما : وآنت وحدك نصير المظلومين . انه قتل في سبيل نصرة بيت نبيك (صلعم) . انه قتل في سبيل نصرة الامام علي ، وصي النبي وصهره وابن عمه » .

ولم تتم سلمى كلامها حتى سمعوا صوتا عميقا كأنه خارج من أعماق القبر ، او كأن هاتفا من عالم الارواح يقول بصوت ضعيف وقع همسا في أذن كل منهم على حدة : «وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم» .

فلما سمعوا الصوت اقشعرت أبدانهم : ووقفت شعور رؤوسهم ، وتولتهم الدهشة ، وظلوا صامتين هنيهة وكل منهم يحسب نفسه قــد انفرد بسماع الآية ، وتطلع بعضهم الى بعض والبغتة ظاهرة على وجوههم، ثم ازدادت دهشتهم حين تبينوا انهم سمعوا الآية جميعا على السواء ، وخيل اليهم ان روح حجر تنطق من عالم الغيب ، او ان روحا مـــن الارواح العلوية تخاطبهم بما تنطوي عليه ارادة الخلاق العظيم :فخشعوا واستولت عليهم الرهبة وكلهم ساكتون لا يبدون حراكا ، وتصوروا المكان مسكونا بعد ان كانوا يحسبونه مهجورا !

وكانت سلمى لا تزال قابضة على التراب بيدها وعبد الرحمن واقف والخنجر مشرع في يده . وبدأ عامر بالكلام فاستعاذ بالله وقرأ الفاتحة، ولم يكد يتم تلاوتها حتى ابتدره عبد الرحمن وهو يغمد خنجره وقــــال

وصوته مختنق من عظم الدهشة : «أرأيت يا عماه كيف ان الله معنا ؟ وهل بعد ذلك الهاتف من شك في نجاح المهمة التي ندبت نفسي لاجلها؟» فسكتت سلمى وقد اقتنعت في سرها بأن عزم عبد الرحمن الهام مـن الله ، ولكنها لم تحرضه على تنفيذ عزمه خوفا عليه من الخطر ، وتركت الامر يجري مجراه الطبيعي •

نهض عامر وهو ينفض التراب الذي لصق بثيابه ويقول : «سر يا بني واتكل على الله وثق به ، وقد سمعت قوله تعالى : (وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم) ••»

ونفضت سلمى يدها ايضا وتوجهوا جميعا الى الدير والقمر في كبد السماء ، والسكوت ساعتئذ أرهب مما عهدوه وهم قادمون ، لشدة ما آثر في نفوسهم من حديث عامر وهتاف الهاتف • وأصبحوا اذا وقعت أقدامهم على العشب او التراب اثناء مشيهم سمعوا لوقوعها دويا ، واذا دبت دابة او نقت ضفدع وقع ذلك في آذانهم وقعا شديدا • فمشـــوا معظم الطريق وكأن على رؤوسهم الطير ، وعامر يفكر في دخول الدير ومن يفتح لهم بابه بعد ان انتصف الليل • وخاف ان يوجب غيابهم شبهة فغيَّر الطريق التي جاءوا منها ، حتى اذا ما اشرفوا على مدخل البستان شاهدوا شبحا قادما نحوه من الجانب الآخر •فظنوه لاول وهلة ضيفـا طارقا وعجبوا لقدومه في اواسط الليل • وفيما هم يتفرسون فيه قالت سلمى : «هذا هو الشيخ الناسك بعينه • ألا ترون الجلد على ظهره ، ورأسه لشدة بياضه كأنه قطعة من ثلج ؟!»

ولم يكونوا قد رأوه ماشيا قبل ذلك ، فعجبوا من نشاطه وخفته ، وقال عبد الرحمن : «كنت قد حسبته لاول وهلة شيخنا الناسك ولكنني اشتبهت في امره لما عاينت من نشاطه وسرعة جريه ، فاني لا ارى قامته محدودبة كما كنت أتوقع ان تكون بعد ان رأيناه في ساحة الدير !»

فقال عامر : «لا اظن سبب هذا النشاط الا اقتصاره على أكل الفاكهة والخضر دون اللحوم • على انني أستغرب خروجـــه في هذا الليل ؛ وأخشى ان يكون قد رآنا تحت الجوزة ، او لعله سمع كلامنا او اطلع على شيء من امرنا» •

قالت سلمى : «لو كان قد مر بنا لرأيناه او سمعنا خطواته ، فقد كان السكوت سائدا وضوء القمر ساطعا • ولكنني أظنه كان يجول فـــي الغوطة يتناول الثمار كما حكى لنا الرئيس عن غرابة أخلاقـــه وبداوة معيشته » •

وفيما هم يتهامسون كان الشيخ قد ادرك باب البستان وعالجه بأداة في يده حتى انفتح ، فدخل ووقف ينتظر وصولهم • فاستغربوا غايته من ذلك ؛ ولم يفهموا السبب الذي حمله على هذا العمل ، وحملوه علـــى غرابة اخلاقه ، وبخاصة بعد ان دخلوا الباب وحيوه فلم يرد التحية ، بل أسرع الى باب الدير فقرعه حتى أفاق احد الرهبان ففتح له ، فدخـل ودخلوا هم في اثره ، ثم اختفى ولم يعودوا يشاهدونه كأنه كـــان ظلا وزال •

وأما هم فأسرعوا الى غرفتهم يلتمسون المنام بعد المشقة والسهـــر الطويل ، ولكنهم بالرغم من تعبهم لم تغمض أجفانهم الا قبيل الفجر لما ثار في خواطرهم تلك الليلة •

* * *

على انهم لم يكادوا ينامون حتى افاقوا على ضوضاء الرهبان فـــي ساحة الدير فنهضوا مذعورين ، وخرج عامر للبحث عن السبب ثم عـاد وامارات الدهشة بادية عليه ، فابتدرته سلمى بالسؤال عن سبب دهشته،

فقال بصوت خافت : «ان اهل الدير يستعدون لاستقبال يزيد بن معاوية ! »

فبغت عبد الرحمن وقال : «يزيد ؟ وكيف يستقبلونه ، ولماذا ؟!»

قال : «لانه ذاهب الى الصيد في هذا الصباح ، ومن عاداته اذا مر بهذا الدير ان يستريح ساعة ثم ينصرف» .

ولم يتم عامر كلامه حتى اختلج قلب عبد الرحمن بفعل البغتة ، دون ان يداخله شيء من الخوف . وأما سلمى فقد كان اثر هذه المفاجأة فيها اكبر منه في عبد الرحمن . بنسبة ما بين الرجل والمرأة من دقة الشعور . ثم قال عبد الرحمن : «هل انت واثق يا عماه مما تقول ؟ وهل نرى يزيد في هذا الدير اليوم ؟»

قال : «ليس نزوله هنا امرا محتوما لكنه خارج الى الصيد لا محالة وسيمر من طريق بقرب هذا الدير ويغلب على الظن انه يعرج عليه هنيهة، لانه يعرف رئيس الدير ويحترمه . والرئيس يعد مائدة من الفاكهة والأشربة ، فاذا شاء اقام او ظل سائرا في طريقه» .

قالت سلمى : «ارجو ان ينزل هنا لكي اراه ؛ لاني لم ار وجهه بعد» .

فقال عبد الرحمن : «ولكنك لا تقدرين على ذلك الا اذا جلست في مكان ترين منه موكبه دون ان يراك» .

قال عامر : «وأنا لا أريد ان يرى وجهي ، فالاجدر بنا ان نتخذ مقاما في خلوة تشرف على ساحة الدير ، واذا استطعنا ان نشرف على بستان الدير كان حظنا أوفر . لان يزيد اذا اراد الصيد خرج في حاشية كبيرة وفيها البازيارية والعقابون وساسة الفهود والقرود والكلاب ، وحملة الزاد والخدم والاعوان ، وغير هؤلاء ممن يحتاج اليهم اثناء الصيد» .

فقال عبد الرحمن : «وهل يقيمون في الصيد طويلا ؟»

قال : «ربما اقاموا اسبوعا او شهرا او بضعة اسابيع ، وهم في

مضاربهم ومعهم كل ما يحتاجون اليه من الطعام والشراب والكساء • كذلك كان يفعل ملوك العراق عندنا من عهد الفرس • فقد كان الملك منهم اذا خرج للصيد بنوا له حائطا طوله فرسخ يبتدىء من دجلة مثلا او من الفرات على هيئة زاوية ، ثم يخرج الملك او الامير ومعه الرجال والاعوان على الخيول والبغال والحمير يطاردون الغزلان وحمر الوحش وغيرهما من الطرائد نحو الحائط والنهر ، ويمنعونها من الرجوع فلا تفر منهم ويستدرجونها حتى يدخلوها وراء ذلك الحائط ، فتنحصر بينه وبين النهر ، فاذا انحصرت هناك دخل الملك ومن معه من خاصته وتأنقوا في القتل ، فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي • وما اظن يزيد الا فاعلا في هذه الغوطة مثل ذلك» •

فقال عبد الرحمن : «وما السبيل الى مكان نستتر فيه ؟»

قال عامر : «دعوا ذلك لي» • وخرج الى رئيس الدير • وكان الصبح قد انبلج والرئيس على السطح يراقب تنفيذ أوامره في تنظيف الدير وضواحيه ، وفرش الطنافس واعداد المجالس وترتيب الفاكهة في الآنية واستحضار المياه الباردة المحلاة بالسكر وأنواع الاشربة الحلوة • فصعد عامر اليه وحياه فرحب به الرئيس ، فتجاهل عامر وسأله عن سبب ذلك الاهتمام فقال : «ان امير المؤمنين مار بنا هذا الصباح في طريقه الى الصيد ، ومن عادته اذا خرج للصيد ان يجعل هذا الدير اول محطة يقف فيها » •

فأظهر عامر ارتياحه لذلك وقال : «وقد بلغني ان مولانا الخليفة يجلكم ويحترمكم لقدم عهدكم في هذا المنصب» •

قال : «ربما فعل ذلك تفضلا منه ، ولا غرو فاني أعرف أباه من قبله، وكثيرا ما كان يجالسني وأجالسه • وكان خليفتنا هذا يومئذ صبيا يخرج احيانا الى هذه الغوطة ومعه معلم يلقنه حركات النجوم وأنساب العرب

اسمه دغفل ، وكان اذا اتاني أنس بي فأكرمه ، فلما تولى الخلافة ظل ذاكرا الصحبة» •

فقال عامر : «ان منظر امير المؤمنين بحاشيته وخدمه مما ينشرح له الصدر • وأراني كثير الشوق الى مشاهدة ذلك المشهد . وابنتي أشوق مني اليه ، ولكنني لا ادري كيف استطيع ان اريها اياه من غير ان يراها احد لان عادتنا تقضي بالتحجب» •

فقال الرئيس : «هذا أمر سهل يا بني ، فاني أقدم لكم غرفتي تجلسون فيها اثناء تلك الزيارة» •

فأثنى عامر على حسن ضيافته وقال : «بورك فيك يا مولاي» • ثم ذهب ليدعو سلمى وعبد الرحمن • وعندئذ تذكر الرئيس ما سمعه بالامس من الضيف الابرص المتنكر من ان لهؤلاء حكاية تتصل بامير المؤمنين ، ولكنه لم يعد يستطيع الرجوع في قوله •

وبعد قليل عاد عامر ومعه رفيقاه فصعدوا جميعا الى علية الرئيس ، فاستقبلهم وأوصاهم بالتستر ما استطاعوا ، فلم يفقهوا لوصيته معنى غير مجاراتهم في مقتضيات الحجاب ، وكان للعلية نافذتان تطل احداهما على ساحة الدير والاخرى على بستانه • فأطلوا على البستان والغوطة من ورائه يستطلعون موكب الخليفة قبل وصوله ، وكانت الشمس قد ارسلت أشعتها على تلك المروج الخضراء تتخللها الجداول والبحيرات ، وتطايرت العصافير وغنت البلابل ، كما علت اصوات الماشية والحمير والجمال في الحظيرة ، فشاقتهم تلك المناظر البديعة بما يخالطها من ألوان الفاكهة والرياحين والازهار ، ولم يكادوا يقفون قليلا حتى لاحت لهم من بين الاشجار خيول قادمة من جهة دمشق ، وهي في هيئة موكب يتقدمه فارس بلباس زاه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة . وتجلل ثيابه جبة أرجوانية موشاة ، والى جنبه سيف مرصع انكسرت أشعة الشمس على أحجاره

الكريمة فأضاء كالمصباح ، ووراء الفارس بضعة عشر من الفرسان ، اقربهم اليه في مثل هيئته وزيه ، فعلم عامر لاول وهلة ان الفارس الاول يزيد بن معاوية ، ولكنه لم يتبين وجهه لبعد المسافة ، ولم يعرف رفيقه، وان كان قد رجح انه من كبار خاصته .

وسألته سلمى : «من هو هذا الفارس الاول يا عماه ؟ لعله الخليفة المزعوم ؟!»

قال : «يظهر انه هو» .

قالت : «ومن هو رفيقه الفارس الذي يليه ؟ يظهر لي انه من أخصائه» .

قال : «أظنه كذلك ، فاذا اقترب تفرسته وأنبأتك بحقيقة حاله» .

وظلت أبصارهم شاخصة الى هذين الفارسين ولا يلتفتون الى ما وراءهما حتى اقتربا من سور البستان ، بينما كان رئيس الدير قد خرج برهبانه لاستقبال الضيف العظيم .

وترجل الفرسان ، ودخل الخليفة اولا والى جانبه رفيقه ، ثم دخل وراءهما بقية الحاشية ، فمشوا في البستان وعامر يتفرس فيهم وسلمى وعبد الرحمن ينظران الى عامر فرايا سحنته قد تغيرت والتفت الى سلمى فسألته : «ما بالك يا عماه ؟ ماذا رأيت ؟»

فتنهد وقال : «يا للعجب ! سبحان جامع الاشباه والنظائر ، أتعلمين من هما هذان ؟»

قالت : «لا .. ومن عسى ان يكونا ؟»

قال : «أما الاول صاحب الحلة الارجوانية الذي تريان وجهه شديد الادمة وعليه أثر الجدري ، فهو يزيد بن معاوية ، الذي يسميه أتباعه امير المؤمنين خليفة رب العالمين والخلافة بريئة منه ! وهو كما تريانه فتى حسن الصورة لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، ولم يغير الجدري

شيئا من جماله . ولكن الخلافة لا تحتاج الى الجمال وبخاصة اذا كان صاحبها منغمسا في الملاهي . أما رفيقه الذي يسير بجانبه مختالا ، فهو عبيد الله بن زياد . ومتى اقترب منا فستشمان رائحة المسك تفوح من ثيابه » .

فلما ذكر اسمه ارتعدت سلمى وقالت : «أليس أباه الذي سعى في قتل ابي ؟»

قال : «هو بعينه» .

فقال عبد الرحمن : «يا للغرابة ! قد اجتمع القاتلان . وسيقتل كلاهما ان شاء الله» . قال ذلك وحرق اسنانه . فنظر عامر اليه شزرا كأنه يؤنبه على ذلك التصريح ، لانهم محاطون بالرقباء والاعداء .

ولم يكد يزيد ورفقاؤه يقتربون من الدير حتى وصل أتباعهم ودخلوا البستان زرافات ووحدانا ، وفيهم الراكبون على البغال والحمير ، وفيهم المشاة وهم الاكثرون ، ولكنهم على اشكال شتى في ملابسهم وأزيائهم ، فبينهم اصحاب الملابس القصيرة والطويلة على اختلاف ألوانها ، وبينهم حملة الحراب والنبال ، وبعضهم يقودون فهودا ، وآخرون يسوسون قرودا ، وغيرهم يجرون كلابا في أرجلها أساور من الذهب وعلى ظهورها الجلال المنسوجة بالذهب ، ومن حولها عبيد اختص كل منهم بخدمة كلب ، فيقوم بكل ما يحتاج اليه من الطعام والنظافة . وشاهدوا في جملة تلك الحاشية اناسا يحملون طيورا جارحة كالباز والصقر والعقاب.

وانتشر هذا الجمع في البستان ، لان ساحة الدير لا تسعهم جميعا . وقد احدثوا جلبة شديدة لكثرة عددهم واختلاط اصواتهم بأصوات الحيوانات والطير ، من صهيل الخيل ونهيق الحمير وشحيج البغال وصياح الثعالب ونباح الكلاب وضحك القرود وصرصرة البزاة وحفيف الاجنحة .

وأخذت سلمى تسأل عامرا عن ذلك الجمع المحتشد ، وما يحملونه او يسوقونه من انواع الحيوان ، فأجابها عامر قائلا : «اننا يا سلمى في مشهد بديع يندر ان يتفق لمثلك ان تراه . ولذا فاني أقص عليك خلاصته ، فاعلمي ان الخليفة خارج للصيد ، وربما أوغل في الغوطة واستغرقت سفرته اسابيع عدة . وهو مولع بالصيد حتى لقد شغله عن مهام الخلافة . ولا يقتصر في صيده على نوع من انواع الحيوان بل يصطاد الطيور والظباء والارانب وحمر الوحش وغيرها ؛ وهذا هو السبب في كثرة هذه الحاشية . فان منهم حفظة الفهود وقد اركبوها على الخيل . ويزيد هذا اول من اركبها عليها ؛ أما اول من اصطاد بالفهود فهو كليب بن وائل الشهير في حروب الجاهلية . وهي تصطاد له الغزلان وحمر الوحش ونحوها . وترين في هذا الجمع عبيدا يسوسون الكلاب وعليها الالبسة الفاخرة والاساور الذهبية ؛ وعند يزيد عدد كبير منها ، وهي تصطاد له الغزلان والارانب» .

«وأما الطيور التي ترينها في أيدي حامليها ، فمنها الباز ويسمى حامله (البازيار) . والباز كما تعلمين من الجوارح التي تفترس الطيور الضعيفة كالدراج والحباري والورشان والعصافير ، فيحمل الصيادون الباز من الجبال ويعلمونه الطيران والرجوع الى مكانه ، فاذا خرجوا به للصيد أطعموه قليلا وقبض البازيار عليه من رجليه ومشى به بعد ان يكسو كفه بقفاز من جلد . فاذا اشتم الباز رائحة دراج او حباري رفرف وحاول الافلات ، فيفلته البازيار فيطير حتى يقع على طريدته فيقتلها ، والبازيار يركض في اثره . وقد يهم الباز بأكل الطريدة فيدركه البازيار ويخرجها من فمه ، وقد لا يهم بذلك . وهكذا يفعل العقاب ، ويقال لحامله (عقاب) . وكذلك الصقر والشاهين وغيرهما من الجوارح، ولكنها لا تصطاد الا الطيور الضعيفة» .

فاعترضه عبد الرحمن قائلا : «ولكنني سمعت ان الباز قد يصطاد الغزال ايضا» •

قال عامر : «ربما اصطاده ولكنه لا يستطيع ذلك وحده • فان بعض البزاة اذا اطلقتها على غزال رفرفت على وجهه واعترضت مسيره فتعوقه عن الفرار السريع ريثما يدركه الكلب او الفهد فيرديه • اما حمار الوحش فان الفهد يصطاده ، وقد يصطادونه بالنبال • وحمار الوحش كثير في (جرود) • وهي قرية في هذه الغوطة» •

وكانت سلمى مصغية تسمع حكاية الصيد وهي تعرف شيئا منه ولكنها لم تكن تعرف هذا التفنن فيه • فلما وصل عامر الى هذا الحد ظهر من رنة صوته انه يهم بانهاء الحديث فقالت سلمى : «ولكنني ارى جماعة من هؤلاء الغلمان يسوسون قرودا منها قرد عليه قباء من حرير احمر وأصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بديعة ، وقد ركب اتانا وحشية عليها سرج من الحرير الاحمر منقوش بألوان جميلة ، وبين يديه خادم يسوسه ويطعمه الفاكهة من يده • فما هو شأن هذا القرد ؟ »

فضحك عامر وقال : «هذا هو (ابو قيس) • وقد رباه يزيد وسماه بهذا الاسم ، فاذا جلس للشراب مع منادميه طرح له مقعدا معهم • وهو قرد خبيث كثيرا ما يركب هذه الاتان ويخرج لمسابقة الخيل في ايام السباق ، وقد يحوز قصب السبق عليها كلها !»

* * *

اشمأزت سلمى مما سمعته عن يزيد وقالت : «أالى هذا الحد بلغت حال الخلافة ؟ اين هذا من عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت أثوابهم

من الكرباس الغليظ ، ونعالهم وحمائل سيوفهم من الليف ، وكانـــوا يمشون في الاسواق كبعض الرعية ؟.. هكذا كان ابو بكر ، وكان عمر ابن الخطاب ، وهكذا كان علي بن ابي طالب !. اين الزهد والتقوى ؟ اين العدل والقسط ؟ اين الحزم والعزم ؟ اين العلم والفضل ؟ واأسفاه على الاسلام والمسلمين !»

فابتدرها عبد الرحمن وقال : «رويدك يا سلمى ان وقت النجـــاة قريب . ولا أظنك بعد ما سمعت ورأيت ترددين في اطلاق حريتي فيما عزمت عليه ، وان غدا لناظره قريب» .

فتنهدت سلمى وأطرقت وكأن قلبها قد دلها على خطر يهدد حبيبها ، ولكنها ظلت صامتة . وبينما هم في ذلك اذ علا نباح الكلاب في باحة الدير ، فتحولوا الى النافذة المطلة على تلك الباحة ليروا ما هناك ، فاذا الخليفة ورجاله قد جلسوا على طنافس فرشت لهم تحت الصفصافة ، وبين ايديهم مختلف الوان الفاكهة ، والرهبان وقوف بأقداح الماء المحلـــى بالسكر وأنواع الاشربة الحلوة التي يستخرجها الرهبان من الثمار ، وفيها اصناف الخمور المختلفة ، المستخرجة من العنب والتفاح والبلح . وكان الرئيس جالسا باحترام بين يدي يزيد ، وبيده قدح من الفضة يقدمه له ليشرب . ولكن الصفصافة حجبت كثيرا من ملامح الجالسين ، فلم يكن يبدو الا بعضها من خلال الاغصان ، كما ان عواء الكلاب كاد يصم آذانهم ويشغلهم عن تتبع ما يجري في ذلك المجلس الطريف .

وكان سبب ذلك العواء ان كلاب يزيد حينما تبعته الى باحة الدير وعليها الالبسة والاساور كما تقدم ، كان شيبوب وصاحبه نائمين على دكة في بعض جوانب الباحة . فلما شعر الشيخ بمجيء يزيد ارتعدت فرائصه ولم يعد يستطيع البقاء ، فهرول وانزوى في مستتر من الديـــر ولم يدع شيبوب لمرافقته . فظل الكلب متكئا حتى دخل يزيد وانتشرت

كلابه تحت الصفصافة واشتم شيبوب رائحتها فكان أشد نفرة ورعدة من صاحبه ، فأخذ في النباح وكذلك فعلت كلاب يزيد !

فلما طال النباح ، أمر الرئيس بعض الرهبان ان يطرد شيبوب من ذلك المكان ، فقام الراهب بذلك ، وركض شيبوب الى السلم فصعد الى السطح . وكان لعلية الرئيس كوة واطئة تشرف على السطح فأدخل الكلب رأسه منها فرأى سلمى ورفيقيها فحمحم مستأنسا بهم ، ثم وثب الى الداخل ودنا من سلمى وقد ارخى أذنيه وهز ذيله ، فاستأنست هي به وجعلت تمسح رأسه بيدها وهو يدنو منها ويحك جنبه بثوبها . على انها خافت ان تشتغل بها عن مشاهدة مجلس يزيد ، فشغلته بثمرات جافة كانت في جيبها . وكان شيبوب قد ألف اكل الفاكهة مثل صاحبه وان لم يكن هذا طبعه . ثم عادت سلمى الى التطلع من النافذة ، وأهل الباحة مشتغلون عنها بخدمة يزيد واكرام وفادته ، وكلابهم لا تزال تنبح ، فلم يكن من شيبوب الا اذاجابها بنبحة ارتجت لها العلية واستلفتت انتباه الجالسين تحت الصفصافة ، فالتفت بعضهم الى جهة الصوت وفي جملتهم «عبيد الله بن زياد» رفيق الخليفة وصديقه ، فوقع بصره على وجه سلمى فلم يتمالك عن الاعجاب بجمالها وهيبتها ، وشعر بجاذب جذب قلبه اليها وامتلك عواطفه !

اما هي فلحظت انتباه الناس لنباح شيبوب والتفات بعضهم الى العلية ووقوع نظر ابن زياد عليها ، فهرعت ال , الداخل وقد غلب عليها الحياء وتبدلت هيئتها . وكان عامر وعبد الرحمن مشتغلين عن ذلك بالحديث ، فلما عوى شيبوب وتحولت سلمى عن النافذة التفتا اليها فاذا هي قد احمر وجهها وظهر عليها الاضطراب . فابتدرها عبد الرحمن بالسؤال عن سبب ذلك ، فأظهرت انها لا تبالي ، وقالت : «ان نباح هذا الكلب قد استلفت أنظار بعض الجالسين بين يدي الخليفة فتطلعوا الى

النافذة » .

فقال عبد الرحمن : «وما الذي تخافينه ؟»

فقطع عليه عامر الكلام قائلا : «لم تخف وانما الحياء غلب عليها !»

* * *

كان عبيد الله بن زياد قد افتتن بسلمى للنظرة الاولى ، ولم يبق له صبر على معرفة امرها ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك والخليفة معه ، فعزم بينه وبين نفسه على الاسراع في العودة وحده من الصيد بحيلة يخترعها ليزيد ، لكي يعرج على الدير وحده ويبحث عن تلك الغادة الفتانة .

على انه لم يتمالك عن سؤال الرئيس خلسة عن سكان تلك العلية . ولا تسل عن حال الرئيس عند ذلك السؤال بعد الذي سمعه من ضيفه الابرص من امر اولئك الضيوف وعلاقة ذلك بالخليفة . فلما سمع ابن زياد يسأله عنهم أوجس في نفسه خيفة ، ولكنه تجلد وأجاب بسذاجة قائلا : «انهم يا مولاي رجل وابنته ، وهم من اهل العراق نزلوا ضيوفا علينا» . ثم فطن لعذر ظنه يرضي الخليفة فقال : «ولا يخفى على مولاي اننا مكلفون باستضافتهم لانهم مسلمون ، فأنزلناهم وقمنا بخدمتهم عملا بعهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو يقضي علينا بضيافة من ينزل علينا من المسلمين ثلاثة ايام» .

فقال عبيد الله : «حسنا فعلت» . واطمأن قلبه اذ علم انهم من المسلمين ورجح ان تلك الحسناء عزبة ، ولكي يتأكد من ذلك قال مغالطا: «ألم تقل ان الثلاثة رجل وامرأته وابنه ؟»

قال : «لا يا مولاي ، انهم رجل وابنه وابنته . والابنة عذراء» .

فازداد اطمئنان عبيد الله ولكنه خاف اذا طال غيابه ان تخرج سلمى

من الدير فلا يعود يظفر بها فقال للرئيس : «وهل تطول اقامتهم في هذا الدير ؟»

قال : «لا ادري ولكنني أظنهم مسافرين قريبا الى دمشق لانهم آتون في تجارة» . قال : «أوصيك باستبقائهم ريثما اعود» . فقال : «سمعا وطاعة» .

ثم خرج يزيد بحاشيته من الدير والرئيس والرهبان يشيعونهم الى البستان ، حتى ركبوا وهم يدعون لهم بالسلامة . أما عبيد الله فخرج وقلبه مشتغل بسلمى ، وهو يعد نفسه بالرجوع اليها عاجلا .

- ٥ -

الحب والانتقام

نزلت سلمى ورفيقاها بعد انصراف الاضياف حتى دخلوا غرفتهم ، وعبد الرحمن ساكت لا يتكلم ، وقد ادرك عامر وسلمى ما جاش في خاطره من امر الانتقام . فلما وصلوا الى الغرفة هموا بالجلوس الا عبد الرحمن فانه ظل واقفا والقلق ظاهر على وجهه ، فتجاهلت سلمى حاله ، ودعته الى الجلوس فقال : «أتدعينني الى الجلوس وقد أزفت الساعة التي نحن في انتظارها منذ أعوام ؟»

فقهمت مراده ولكنها تجاهلت ، وقالت : «وأي ساعة تعني ؟»

قال : «اراك تتجاهلين حين لا ينفع التجاهل ، فقد قضي الامر وآن أوان الانتقام !»

فاختلج قلبها في صدرها خوفا عليه من الخطر الشديد بعد ان

شاهدت كثرة تلك الحاشية وما معهم من العدة والسلاح ، وقالت :
«دعنا الان من الانتقام يا عبد الرحمن ، فان الساعة لم تأت بعد» .

قال : «وكيف ذلك وهذا يزيد خارج للصيد بكلابه وفهوده وجوارحه ؟ »

قالت : «ذلك هو الامر الذي اخافه عليك . بالله لا تلق بيدك الى التهلكة ، فان المركب خشن والطريق وعر !»

قال : «لقد عزمت وتوكلت على الله» . قال ذلك وهو يبحث عن خنجره ويصلح ثيابه ويتأهب للخروج .

فأمسكت سلمى بذيل ثوبه ، وقد توردت وجنتاها وغلب عليها الحب والحياء معا وقالت : «بالله لا تذهب . اني خائفة عليك من هذا الامر العظيم . انك واحد وهم جماعة» .

فقال : «دعيني ، لا أبالي مهما يكن من كثرتهم ، وقد صممت على الانتقام وهذا وقته فلا تثني من عزمي» .

فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها : «لا ، لم يأن وقت الانتقام ، فلا تذهب الان» .

قال : «اني لا ارى فرصة أنسب من هذه ، فدعيني يا سلمى ، دعيني أقتل هذا الرجل وأنقذ المسلمين من شره ، وأنتقم لحجر بن عدي ، وأشف غليلي منه» .

فقالت : «اذا لم يكن بد من الذهاب فدعني اذهب معك ، فاما ان نقتل معا ، واما ان ننجو معا !»

قال : «أليس عارا علي وأنا رجل ان أصطحبك في مهمة كهذه ؟ دعيني يا سلمى» . وحاول التخلص منها فاذا هي ممسكة ثوبه بيدها . فغضب وأراد ان يتخلص بالعنف ، ثم نظر الى وجهها فرأى الدموع تتساقط من عينيها ، فسكن غضبه ووقف وهو ينظر اليها بعين المحب المفتون وقال

لها : «ما هذا يا سلمى ؟ ما الذي تفعلينه ؟ انك تضعفين عزيمتي وتحملينني على الجبن ! ما الذي يدعوك الى ذلك ؛ وعهدي بك أشد حنقا مني وأكثر رغبة في الانتقام ؟»

فقالت وهي تجهش بالبكاء وصوتها يتلجلج : «ألا تدري ما الذي يدعوني الى ذلك ؟ هو الحب يا عبد الرحمن . ان الحب يحملني على هذا الخوف !» . ثم قالت بصوت ضعيف متقطع وهي تنظر الى الارض: «نعم ، ان الحب حلو شهي لذيذ !»

فابتسم اعجابا وابتدرها وهو يتجلد مخافة ان تغلب عواطفه على ما في نفسه وقال : «صدقت يا حبيبتي ان الحب حلو . ما احلاه . ولكن الانتقام يا سلمى احلى منه . ليس في العالم ألذ من الانتقام ولا احلى. دعيني اخرج الى هذا الرجل الذي يسمي نفسه امير المؤمنين فأقتله بهذا الخنجر . وأنتقم لك ولي وأنقذ المسلمين منه ، او اموت في نصرة الحق و ... »

فقطعت كلامه وقالت : «لا تذكر الموت يا عبد الرحمن ، ان ذكره يؤلمني ويؤذيني ، حماك الله من شره» .

قال : «أيؤلمك ذكره وقد ذاقه قلبي من هو أكرم عند الله مني ؟. لقد ذاقه الامام علي ، وذاقه ابوك حجر بن عدي ، وذاقه كثيرون غيرهما في سبيل نصرة الحق ، فما انا خير منهم . وقد آن وقت الانتقام» .

وهمت سلمى بأن تجيبه فوقف عامر وقد أثر في نفسه ذلك الجدال، ووقع في حيرة لا يدري لأيهما ينتصر ؟ ولكنه خاطب عبد الرحمن مترفقا وقال : «تمهل يا بني وارفق بنا ، واعلم انك سالك طريقا وعرا لا نرضى ان تسلكه وحدك . دعني أسر معك ، لعلي آنفعك في جهادك او اكون بين يديك فيصيبني ما يصيبك» .

فالتفت عبد الرحمن الى عامر وقال : «وأنت ايضا يا عماه تثبط

عزيمتي ؟ ألم نسمع كلام الهاتف معا ؟ ألم يقل الهاتف فوق قبر حجر : (وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم) • أترى بعد ذلك مجالا لقائل • انه لا بد لي من الذهاب ، ان لم يكن اجابة لدعوة الهاتف فانتقاما لحجر بن عدي الراقد تحت الجوزة ، وانتقاما لصهر النبي (صلعم) وابن عمه ووصيـــه الامام علي • وان لم يكن لهذا ولا لذاك فانتصارا للحق وانقاذا للاسلام والمسلمين من سلطان شغل عن رعاية الامة برعاية الجوارح والكــلاب والفهود والمنادمة على الشراب» •

فأراد عامر ان يجيبه ليثنيه عن عزمه اشفاقا على سلمى فقال له : «لا أنكر عليك نبالة الغرض الذي ترمي اليه ، ولكنني اظن الوقت لـــم يحن بعد » •

* * *

مل عبد الرحمن الجدال فقال : «لقد ضيقتما علي السبل ، ولست اری وقتا أنسب من هذا للوفاء بعهدي» • ثم التفت الى سلمى وقد هاجت اشجانه فوق هياج غضبه ، وكأنه تحقق عظم الخطر الذي يتهدده في طريقه فقال : «ويكفي يا سلمى ان يكون تأجيل قتل هذا الرجل باعثا على تأجيل زواجنا ، ألم أجعل قتله يا منتهى أملي شرطا لعقد زفافنا ؟ انك تبتغين البعد وأنا اسعى في القرب وأشتريه بحياتي ؟• ألم أعاهد نفسي على ذلك ؟ آه يا سلمى !• اني عالم بما يهددني، ولا أجهل خطر الطريق، ولكنني مضطر لركوب هذا المركب ، فاتركيني وادعي لي ، فان دعاءك من دعاء الملائكة لانك ملاك في صورة انسان» •

قال ذلك واختنق صوته ، فسكت وراح ينظر الى سلمى وعينـاه تلمعان بما غشاهما من الدمع ، وقد هاجت شجونه وتلوت عواطفه وهو

يغالبها بشهامته وبسالته : وسلمى لا تزال ممسكة بطرف ثوبه ، والحب والحياء يتنازعانها : فلما سمعت كلامه اطرقت والدمع يسيل على خدبها وهي تحاول اخفاءه بسكوتها ؛ وعامر ينظر الى ذينك الحبيبين وقلبه معهما ، ولكنه لا يدري لأيهما ينتصر !

ظلوا صامتين وعبد الرحمن يغالب عواطفه ويخاف ان تغلبه ، ولكنه تجلد وأعاد الكرة وقال بصوت هادىء : «لا أجهل يا سلمى اني سائر في مهمة ذات خطر عظيم ، ولكنك تعلمين اننا انما قطعنا البراري والقفار وجئنا هذه الديار من اجل الانتقام • وقد اردت المجيء وحدي فأبيتما الا اللحاق بي ، وهذا ما كنت اخشاه منذ بادىء الامر ، فلا تكوني عثرة في سبيلي وسبيل الحق • انني انما جئت الى هذه الديار لقتل هذا الرجل • أم صدقتما ما ادعيناه من اننا جئنا للاتجار بالتمر والجمال ؟! اننا ما جئنا الا للانتقام ، فهل يليق بنا بعد ان استخرنا الله وعزمنا ، ان نرجع الى الوراء ؟ أليس من العلو ان يكون ابن ملجم البلغي اكثر ثباتا مني ، وهو انما ثبت على قتل نفس بريئة ، وأنا اسعى في استئصال شجرة فاسدة ؟• اني اسعى في انقاذ الاسلام من فساد تولاه ، ولا علاج له غير قتل يزيد ، لكي تعود الخلافة الى حبيبنا سيد شباب المسلمين الامام الحسين ابن بنت الرسول (صلعم) فاتركاني أذهب في سبيلي ، فقد اتكلت على الله في امري ، وما الموت الذي تخافانه علي الا سنة الله في خلقه ، فاذا حكم علي به فلي اسوة بغيري من القوم الصالحين ، وأكون قد توسدت الثرى قرير العين : القى وجه ربي باشا مطمئنا تشهد كل ذرة من ترابي بحسن جهادي • واذا فزت وحييت فاني انما أحيا سعيدا وسلمى زوجتي ، والحسين مولاي وخليفة المسلمين • هذا هو القول الفصل ، وكفانا ترددا» •

فلم يبق ثمة مجال للدفاع فقال عامر : «دعيه يا سلمى • ان الله قد

دعاه الى عمل صالح اختاره له ، فعسى ان يوفقه فيه . دعيه وألقي امرك الى الله» .

فتركت سلمى ثوب عبد الرحمن ولكنها ظلت صامتة . فأتم عامر كلامه قائلا : «والآن اذا انت خرجت في أثر هذا الركب فما الذي تفعله ، وكيف نطلع نحن على خبرك ؟ ألا ترى ان اسير !نا معك ؟»

قال : «أقسم بتربة عمي الثاوي في هذا الجوار لا يذهبن احد معي. أما خبري فسأحمله اليكما بنفسي والا» . وسكت .

فعادت سلمى الى القلق وقالت : «والا ماذا ؟. قل ..»

قال : «اني ذاهب الان في اثر هذه الحملة الى حيث ينزلون لصيدهم، وسأختبىء في مكان ما حتى أنفرد بيزيد فأقتله ، اما انتما فامكثا هنا في انتظاري بقية هذا النهار وطول ليله ، فاذا جاء مساء الغد ولم أعد اليكما فلا تطلباني ، فلا ادري اين اكون ..»

فقال عامر : «سر واتكل على الله ، ونحن في انتظارك الى غروب الغد فاذا غابت الشمس ولم تعد الينا ، فـ ..»

فقطع عبد الرحمن كلام عامر قائلا : «لا أظنني بعـــد قتل يزيد الا مضطرا للاختفاء فلا استطيع دخول هذا الدير» . وسكت برهة يفكــر ثم قال : «ولكنني أرسل اليكم علامة» .

قال : «وما هي علامتك وكيف ترسلها ؟»

قال : «ارمي اليكم بسهم أكتب بين ريشتيه اسم المكان الذي نلتقي فيه فتوافياني اليه . فاذا جاء غروب الغد فانتظرا سهمي على سطح هذا الدير . ولن أذكر لكما بين الريشتين غير اسم المكان فلا خوف منه اذا وقع في أيدي الرهبان» .

فأعجب عامر بفطنته وقال : «انها لنعم العلامة» .

وتقلد عبد الرحمن قوسا صغيرة وأسهما ، كما تقلد الخنجر ، ولبس

ثوبا اصبح فيه يشبه أتباع يزيد ، وتزمل برداء فوق ثوبه • وكانت سلمى في اثناء ذلك تنظر اليه وقلبها لا يطاوعها على مفارقته ، فلما أتم الاستعداد وهم بوداعها خفق قلبها وندمت على قبولها ذهابه • وأرادت ان تعود الى منعه ، فلم يتح لها فرصة بل أسرع ففتح الباب وخرج • فلم تعد تستطيع اللحاق به مخافة ان يشتبه الرهبان في امرهم • فتظاهرت بالسكينة ، وتبعته بنظرها فاذا هو قد ادرك باب الدير وخرج منه ، فاصطحبت عامرا والتمست سطح الدير لكي تشيعه ببصرها وهو سائر في الغوطة • فصعدا السلم وهما يتظاهران بالتفرج ، فلما اشرفا على السطح رأيا عبد الرحمن قد قطع البستان حتى خرج من بابه وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة ثم أوغل بين الاشجار •

وفيما هما ينظران اليه من خلال الاشجار ، رأيا رجلا ملثما خرج من الدير وسار في اثره ، فلم يعرفاه ولا اشتبها فيه لخلو ذهنهما من وجود رقيب يراقبهما هناك ، ولو علما من هو ذلك الملثم وما نصبه من الشراك لعبد الرحمن لتعقباه وأوديا به ، او لأرجعا عبد الرحمن عن عزمه •

وما كان ذلك الملثم الا الضيف الابرص الذي جاء الدير بالامس واختبأ في احدى غرفه • وكان قد رافقهم خلسة منذ خروجهما من الكوفة لحاجة في نفسه ، لو عرفتها سلمى لارتعدت فرائصها ولما صبرت الى غروب الغد تنتظر رجوع حبيبها •

وظلت سلمى واقفة تتطاول بعنقها وتحدق بعينيها بين الاشجار حتى غاب عبد الرحمن عن بصرها ، فلما توارى أحست كأن قلبها انخلع من مكانه ، ولم تعد تتمالك عن البكاء لما غلب عليها من الخوف على حياة حبيبها ، وندمت على تركه يذهب وحده ، ثم عادت الى غرفتها حزينة كئيبة لا تخاطب عامرا ولا تنظر اليه •

ولم يكن عامر أقل ندما منها على ذلك ، فظل صامتا ونزل في اثرها ،

والرهبان في شاغل عنهما برفع الأنية والابسطة التي كانوا قد أعدوها للخليفة •

* * *

دخلت سلمى غرفتها وقد اظلمت الدنيا في عينيها وضاقت بها السبل فأطلقت لعينيها عنان الدموع واستغرقت في البكاء كانها اشعرت بما سيلقاه عبد الرحمن من الخطر ، وودت لو تتبعه عسى ان تكون له عونا•• ولكنها لم تكن تعرف الجهة التي مضى اليها ، ولا التي سار اليها موكب الخليفة ، فظلت تتردد بين اليأس والرجاء ، وعامر جالس منقبض الصدر وفي نفسه هواجس أمسك عن اظهارها اشفاقا على سلمى • ثم تجلد فاقترب منها وجعل يخفف عنها ويطمئنها وهي لا تصغي اليه •

على انها عادت تعلل نفسها بنيل المنى ، فتصورت فوز حبيبها بقتل يزيد وما يترتب على ذلك مما تتوق اليه نفسها ونفس كل مسلم من دعاة اهل البيت ، فضلا عن شفاء غليلها بالانتقام لابيها ، فسكن روعها وخف بكاؤها ، فاغتنم عامر الفرصة وقال لها : «خففي عنك يا بنيتي وأتكلي على الله ، فانه ولي التوفيق وهو على كل شيء قدير ، وما قتل هذا الخليفة بالامر العسير ، ولاسيما ان عبد الرحمن لن يقدم على قتله وهو بين رجاله ، ولكنه سيتربص به حتى يراه وحده ، ولا شك في انهما اذا تبارزا فستكون الغلبة لعبد الرحمن» •

فنزل كلام عامر عليها بردا وسلاما ، فكفت عن بكائها ، ونهضت تتشاغل بترتيب فرش الحجرة وأثاثها ، ثم استلقت وقد غلبها التعب وأدركها النعاس • وأدرك عامر ذلك فتركها وخرج ليخلو بنفسه •

وظلت سلمى نائمة الى العصر وعامر يتردد الى الحجرة يتفقدها فاذا

رآها ما زالت نائمة عاد الى السطح وتشاغل بالتأمل في مشاهد الكنيسة، او محادثة بعض الرهبان .

وفيما هو عائد ذات مرة رأى شيبوب تحت الصفصافة ، فتذكر الشيخ الناسك . وخطر له ان يذهب اليه لعله يسمع منه كلاما يطمئنه على عبد الرحمن . وكان يعتقد الكرامة في مثل هذا الناسك . ثم بدا له ان يصطحب سلمى لتشاركه اطمئنانه . فلما ذهب الى غرفتها وجدها قد استيقظت وجلست مضطربة حزينة النفس فقال لها : «ما بالك يا بنية ؟ مالي اراك مضطربة ؟»

قالت والدمع ملء عينيها : «آه يا عماه كيف تسألني عن شيء انت تعلمه ؟ ولقد زاد في همي ما انتابني من الاحلام اثناء نومي» .

فابتدرها الشيخ قائلا : «دعينا من الاحلام والاوهام ، وهلمي بنا الى الشيخ الناسك نجلس اليه عسانا نسمع منه ما يسر . فاني والله أعتقد الكرامة في أمثاله» .

فارتاحت سلمى لهذا الاقتراح . ووقفت وقد انبسط وجهها وزالت عبوسته وقالت : «نعم الرأي يا عماه . فهيا بنا اليه . اين هو ؟»

قال : «أظنه في بعض جوانب الدير فقد رأيت كلبه الساعة تحت الصفصافة ، فلا يبعد ان يكون في زاوية من زوايا الدير ، او في بعض غرفه» .

* * *

خرج عامر وسلمى في اثره ، فلما أطلا على الباحة رآهما الكلب فهرول الى سلمى وهو يحرك ذيله ويغمغم استئناسا بها . وذهب عامر للبحث عن الناسك ثم عاد وهو يقول : «سألت في كل أطراف الدير فلم

اقف له على أثر ، وقد اخبرني الرئيس بأنه خرج عندما كان الخليفة هنا ولم يعد» •

قالت : «هل تظنه في بعض جوانب البستان» •

قال : «ربما ، هلم نبحث عنه هناك» •

فمشيا حتى خرجا من باب الدير ، والحظيرة الى يمينهما وفيها الماشية والدواب ، فوقفا ينظران في جوانب البستان • وكان الكلب قد خرج في اثرهما ، ثم رأياه يجري الى اليسار مسرعا ، فقالت سلمى : «يظهر ان شيبوب اشتم رائحة صاحبه فأسرع اليه ، فلنذهب في اثره» •

وتبعاه فاذا هو قد انتهى الى جميزة قديمة العهد ، في أسفل ساقها كهف يشبه غرفة صغيرة أوى اليه الناسك • ورأياه عن بعد جالسا الاربعاء ويداه متقاطعتان على ركبتيه ، وقد أطرق كأنه يفكر في معضلة يبتغي حلها • فلما وصل الكلب اليه وجعل يلحس يديه ويتحكك به انتبه الشيخ من غفلته فرفع عينيه وشعر حاجبيه يغطيهما ، وأمسك لحيته وثناها الى فيه وأطبق شفتيه عليها ، فوقعت عينه على سلمى وعامر ، فجعل يتفرس فيهما وهما قادمان اليه يفكران فيما يبدآن به الحديث • ولم يكادا يدركانه حتى سمعاه يقول بصوت جهوري اخترق نطاق قلبيهما : «اين عبد الرحمن ؟!»

فلما سمعت سلمى اسم حبيبها خفق قلبها وارتعدت فرائصها ، ولم يكن عامر أقل بغتة منها ، وارتج عليهما فلم يعلما بماذا يجيبانه •

ولم يكادا يقتربان منه حتى انتصب واقفا كأنه شاب في عنفوان الشباب وصاح فيهما : «اين عبد الرحمن • اين ذهب ؟»

فاقشعر بدن سلمى ، وهمت بالجواب فارتج عليها فأجابه عامر قائلا : «وأي عبد الرحمن ؟»

قال : «أتسألني يا عامر عن عبد الرحمن وأنت كفيله ؟ قل اين ذهب،

وقد كان معكما بالامس ؟»

فلم يشك عامر في انه بين يدي ولي من أولياء الله ، المرفوع عنهم الحجاب ، فقال : «انه سار في مهمة ، لعلك عرفتها من تلقاء نفسك» •

قال : «أظنه ذهب وراء يزيد بن معاوية الذي يدعونه الخليفة» •

فخاف عامر وسلمى ان يسمع احد كلامه : فالتفتا فاذا هما في معزل عن الناس فقال عامر : «نعم يا سيدي» •

فضرب الناسك يدا بيد ونظر الى السماء وقال : «حماك الله يـــا عبد الرحمن من ذلك الخائن المنافق • كيف تركتماه يذهب في هذا الخطر العظيم ؟ »

فلما سمعت سلمى كلامه ترامت على قدميه وصاحت : «قل يا سيدي! قل لي بالله ، هل من خطر على عبد الرحمن ؟»

قال : «الخطر عليه من ذلك الابرص الذي خرج في اثره» •

قال عامر : «وأي ابرص يا مولاي ؟• قل بالله ؟• افصح فقد اقلقتنا» •

فأطرق الشيخ وظل هنيهة ساكنا • وهو يقبض على لحيته ثم يتركها ويداه ترتعشان تأثرا • فلم تعد سلمى تستطيع صبرا على سكوته فقالت: «قل بالله يا سيدي • ماذا ينتظر عبد الرحمن في رحلته هذه ؟• ومن هو ذلك الابرص ؟»

فرفع الناسك طرف ثوبه ، وغطى به رأسه وقال : «ألا تعرفان ذلك الابرص ؟ ألا تعرفان شمر بن ذي الجوشن ؟»

فقالا بصوت واحد : «بلى نعرفه ، وأين هو ؟»

قال : «انه خرج في هذا الصباح من الدير ملثما بعد خروج يزيد . وأظنه رأى عبد الرحمن خارجا فاقتفى اثره ليوقع به !»

فالتفتت سلمى الى عامر والشيخ لا يزال ساترا رأسه بثوبه وقالت : «تبا له من خائن ، أظنه اقتفى اثرنا من الكوفة وقد علم بالغرض الذي

جئنا من اجله الى الشام • تبا لك يا شمر !» • ثم التفتت الى الشيخ وقالت : «ماذا نعمل الان يا سيدي ؟• وما الذي تخشاه على عبد الرحمن؟ قل لنا ماذا نعمل ، فانا نراك من المحسنين» •

قالت ذلك وخفق قلبها وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف وكأنها في حلم . وعامر ينظر الى الناسك مستغربا لا يدري كيف يفسر فراسته • ولكنه شغل بأمر الخطر المحدق بعبد الرحمن عن التفكير في الفراسة وكرامات الاولياء • وأحب ان يغالط الشيخ فقال له : «انك تخاطبنا يا سيدي بالرموز والالغاز ، فما هو خبر عبد الرحمن وما الشأن الذي ذهب فيه ؟»

ولم يتم عامر كلامه حتى قهقه الشيخ ، ثم توقف بغتة وقال : «أتجربني يا عامر وتتجاهل ؟ اعل لك عذرا ، ولكن الامر الذي جئتم له لا يخفي علي هذه الاحجار ولا علي هذه الاشجار ! واذا لم تصدقاني فاسألا الهاتف الذي كلمكم من الجوزة ألم يقل لكم : «وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم ؟»

فلا تسل عن حال عامر وسلمى عند سماعهما ذلك الكلام • فهم عامر بيد الشيخ ليقبلها لا يبالي برائحة قذارتها وقذارة ذلك الثوب • فلما أحس الشيخ بيد عامر ابتعد عنه وانزوى في الكهف والغطاء لا يزال على رأسه • فقال له عامر : «بالله ايها الشيخ الجليل ألا كشفت عن وجهك وأظهرت نفسك ؟»

فزجره الشيخ وقال : «الزم الادب يا عامر ، ولا تتطاول الى ما لا يعنيك ، واعلم انني لن أخاطبك بعد الان الا مستترا ، ويكفيك ما علمته من امر ابن ذي الجوشن الابرص ، وما يبغيه من اللحاق بعبد الرحمن» •

فخافت سلمى ان يغضب الناسك اذا هما اكثرا من السؤال فقالت : «لا تغضب يا سيدي ولا يسوءك سؤالنا وأنت تعلم حالنا بعد ما ظهر من

اطلاعك على امرنا . انا سائلوك سؤالا واحدا لا نزيد عليه شيئا ، فهل تجيبنا ؟ »

فلم يزد على قوله : «هم هم» .

ولكنها فهمت انه موافق فقالت : «هل ترى من بأس على عبد الرحمن في مهمته هذه ؟ وماذا نصنع لانقاذه مما عسى ان يحيق به من الاخطار؟»

فأطرق الشيخ برهة ثم قال : «أرجو ألا يكون عليه بأس ، فانه عرض نفسه في سبيل خدمة المسلمين . وهذا كل ما اقوله لكما فلا تزيدا» .
قال ذلك وهرول مسرعا نحو الغوطة والكلب يجري في اثره مخلفا سلمى وعامر على أحر من الجمر ، وقد جمد الدم في عروقهما وهما لا يكادان يمسكان النفس مما اعتراهما .

فلما توارى الشيخ وكلبه عنهما ظلا برهة صامتين ثم قالت سلمى :

«ما قولك يا عماه في هذا الشيخ وما سمعناه من كلامه ؟»

قال : «اني والله في عجب عجاب من امره ، وقد كنا نسمع بالاولياء وكراماتهم ، فالآن قد رآينا احدهم رأي العين !»

فقالت : «اني احسبني في منام» . وفركت عينيها ، وتلفتت الى ما حواليها كأنما تريد ان تستوثق من يقظتها !

وأدرك عامر استغرابها وحيرتها فقال : «لا تستغربي يا سلمى ما شاهدته من امر هذا الشيخ مع ما يظهر من بلاهته ، فان الله يعطي من يشاء بغير حساب ، ثم انه قد توافرت فيه شروط الولاية من الزهد والتقشف ، وقد قيل في اهل الولاية انهم جواسيس القلوب ، فلا ارى غرابة في معرفته حقيقة حالنا . ويلوح لي انه على مذهبنا ، فلا خوف منه على سرنا» .

فقالت سلمى : «ولكن من عسى ان يكون هذا الرجل ؟»

فأجابها عامر : «ان امره حيرني ، لان حاله ولباسه يدلان على

تنسكه وانقطاعه عن الدنيا ، ولكن كلامه عن يزيد يدل على اهتمامه بأمر المسلمين . ويظهر انه عربي ، وكأن لهجته عراقية» .

فقالت سلمى : «ليتنا سألناه عن بلده ، وطلبنا اليه ان ينتسب» .

فقال : «ومن يتجرأ على هذا السؤال وقد رأيت مبالغته في التستر حتى غطى وجهه ، ولما طال الحديث بيننا توارى ؟ فلعله من بعض الذين بلوا بمثل بلوانا فلجأ الى هذا الدير للاختفاء» .

قالت : «أظنه مصابا بعقله ، لانه شاذ الاطوار . ألم تسمع من رئيس الدير عن معيشته وكيف يقضي نهاره بين الاشجار يقتات بثمارها ، ولا انيس له غير هذا الكلب ؟»

قال : «مهما يكن من امره فانه ذو كرامة، وعساه ان ينفعنا بكرامته» .

قالت : «وما العمل الان ؟ اني لم ازدد من حديثه الا قلقا» . وسكتت برهة ثم قالت : «وما قولك في شمر اللعين ؟»

قال : «هذا الذي شغل بالي قبحه الله ! لقد طالما شككت في هذا الابرص وخفت غدره ، ويلوح لي انه علم بسفرنا الى الشام واطلع على غرضنا ، فاقتفى أثرنا ليشي بنا ، ولولا ما قاله الناسك مما يدعو الى الاطمئنان على عبد الرحمن لأسرعت في البحث عنه وارجاعه عن عزمه . ولكن هبي اني لم أطمئن فليس لي سبيل اليه لاني لا أعرف الجهة التي سار فيها . وأخاف اذا انا لحقت به ان أضل الطريق ، وتبقي انت وحدك، ولعل هذا الخائن قد نصب لك أحبولة اخرى» .

قالت : «اذهب معك انا ايضا» .

قال : «ولكننا وعدنا عبد الرحمن ان ننتظره هنا ، فقد يجيء الليلة ونحن غائبون فيرمي سهمه ، وقد يكون فيما يكتبه عليه ما يبعث على ذهابنا لموافاته الى مكان ما ، فيقع السهم بين يدي احد الرهبان ولا نطلع عليه . دعينا نمكث هنا ، ونكل امرنا الى الله فهو نعم الكفيل» .

قال ذلك ومشيا حتى اقتربا من الدير وهما كأنهما في حلم ، فأراد عامر ان يشغل وقته في شيء يبعد الشبهة عنهما فقال لسلمى : «تعالــي معي الى الحظيرة تتفقد جمالنا وأحمالنا» .

قالت : «دعنا من الجمال والاحمال ، وحسبنا التفكير فيما نحن فيه» .

قال : «هذا ما اشعر به انا ايضا ، ولكن لا بد لنا من الانتظار الــى مساء الليلة او صباح الغد او مسائه ، فكيف نقضي الوقت ووقت الانتظار طويل ؟ »

فأطاعته وتحولا الى الحظيرة ، فرأيا الخدم قد بذلوا العناية في خدمة الجمال وأما أحمال التمر فلم يجدوها . فبغت عامر لاول وهلة ، ثم تذكر انهم حملوها الى داخل الدير .

وقضيا هناك بعض الوقت ، وسلمى في شغل شاغل عما حولها لا تتنبه لشيء لعظم ما ثار في خاطرها من القلق على حبيبها ، ولاسيما بعد ما سمعته من الشيخ الناسك . ولم يكن عامر اقل قلقا منها ولكنه اراد تشجيعها وتحويل ذهنها ، فلما لم يفلح في ذلك، اجاب رغبتها في العودة الى الدير ، وسار توا الى حجرتهما ، ومكثا برهة بين كلام وتفكير .

- ٦ -

الوقوع في الفخ ؟

وحين مالت الشمس الى المغيب علقت آمال سلمى بسهم عبد الرحمن، وخيل اليها من فرط قلقها انها لا تكاد تصل الى السطح حتى ترى السهم ساقطا امامها ، فحثت عامرا على الصعود معها فأطاعها وقلبه لا يدله على

خير . فوقفا على السطح ينظران الى الافق وقد تملكتهما الهواجس ، وسلمى كلما لاح لها طائر ظنته سهما من حبيبها حتى تعبت عيناها من طول التحديق ، وعامر يراقب حركاتها ساكتا ، حتى آذنت الشمس بالزوال ولم يأت السهم ولا سمع له همس .

وكان رئيس الدير مشغولا في ذلك اليوم بصلوات خاصة لم يفرغ منها الا نحو الغروب ، فخرج من عليته وتمشى على السطح ، فرأى عامرا وسلمى جالسين ينظران الى الغوطة ؛ وقرأ آيات القلق على وجهيهما فلم يشأ ان يزعجهما بالسؤال ، بل ظل بعيدا وفي نفسه انهما اذا أحبا مجالسته دعواه اليهما .

فغابت الشمس وهما على السطح ولم يحدث شيء ، فاشتد قلقهما وعامر يحاول عبثا طمأنة سلمى بحديث او رأي ، وشاع بصرها بعد الغروب نحو الغوطة في الطريق الذي سار فيه عبد الرحمن لعلها ترى قادما تستأنس به فلم تر شيئا ، وأخيرا نهض عامر وهو يقول : «ان موعدنا غدا حتى الغروب ، ومن العبث بقاؤنا هنا الليلة على السطح فضلا عن انه يوجب الشبهة» . قال ذلك ومشى فمشت في اثره ، وعيناها لا تكادان تستقران .

باتا تلك الليلة وهما يفكران في عبد الرحمن ، وقد عزمت سلمى ، بينها وبين نفسها ، على انها اذا غربت شمس الغد ولم يأتها خبر من عبد الرحمن تسارع الى التنكر في زي الرجال ، ثم تذهب للبحث عنه. ولم يكن عامر أقل قلقا منها او رغبة في البحث عن عبد الرحمن ، ولكنه كان يخشى اذا تركها في الدير وحدها ان يكون عليها بأس ، وأخيرا اعتزم اذا لم يعد عبد الرحمن ان يذهب هو وسلمى معا للبحث عنه .

وأما رئيس الدير ، فقد لاحظ بقاء عامر وسلمى على السطح ، كما لاحظ ان عبد الرحمن ليس معهما ولكنه حسبه في بعض جوانب الدير،

ولم يداخله ريب في امره .

ونهضت سلمى والفجر لم يبد بعد فأيقظت عامرا وحرضته على الصعود الى السطح عسى ان يكون سهم عبد الرحمن قد وقع في اثناء الليل ، فصعد ولم ير شيئا فرجع . فحثته بعد هنيهة على الصعود وهو لا يحتاج الى من يحثه . وما صدق ان اشرقت الشمس حتى دعاها الى الصعود معه . وفيما هما صاعدان على السلم شاهدا طائرا يحلق في الجو ولا يحرك جناحيه ، فتطيرا به ، وكان من عادة العرب ، اذا رأوا طيرا يحلق على تلك الصورة تشاءموا منه ! وأدرك عامر تشاؤم سلمى فابتدرها قائلا : «اراك تطيرت بسنظر هذا الطائر وقد نهى النبي (صلعم) عن ذلك بقوله : (من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لا طير الا طيرك ، ولا خير الا خيرك ، ولا اله غيرك ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) . وكذلك قال (صلعم) : (اذا تطيرت فلا ترجع) . فانزعي من بالك هذا الوهم وكلي امرك الى الله» . فسكتت وخاطرها لم يطمئن ولكنها سايرته وصعدت معه .

ولما طال انتظارهما واشتد بهما القلق ، تذكرا الشيخ الناسك ولم يكونا قد رأياه منذ فر من بين أيديهما بالامس ولا رأيا كلبه في الدير .

ولم يكن أطول من ذلك النهار على سلمى ، فلما دنا الاصيل ولم يطمئن بالها اخذت تلوم نفسها وتقرع عامرا على التقاعد عن اللحاق بعبد الرحمن ، وهي الى ذلك الحين لم تذق طعاما فخارت قواها ، ولكنها لم تشعر بالجوع لشدة قلقها .

وبينما هي غارقة في هواجسها اذ لمحت فارسا يركض فرسه بين الاشجار بالقرب من باب البستان ، فخفق قلبها والتفتت الى عامر فاذا هو ينظر ايضا الى ذلك الفارس وقد علته البغتة ، ورأت رئيس الدير قد خرج من عليته مسرعا وهو يصلح عباءته وينظر الى باب البستان ، ثم

نادى القيّم وقال له : «ابعث راهبا ليفتح الباب ، لاني ارى عبيد الله ابن زياد قادما . فلعله جاء لينبئنا بقدوم الخليفة» .

فلما سمعت سلمى اسم ابن زياد ارتعدت فرائصها ، ونظرت فاذا هو قد وقف بالباب ، ثم هرول بعض الرهبان ففتحوه له . وهمت بمخاطبة عامر فاذا هو يقول لها : «انزلي يا سلمى الى غرفتك واستتري هناك وأنا ابقى هنا لنرى ما يكون من الامر» . فأرادت ان تستمهله فألح عليها بالنزول ووعدها بأن يبقى هو في انتظار رسالة عبد الرحمن ، فنزلت مسرعة واختبأت في غرفتها وظل عامر على السطح .

وكان الرئيس قد نزل الى الباب واستقبل ابن زياد ، ووقف معه برهة وهما يتكلمان همسا . ثم صعدا الى السطح وقبل ان يصلا فاحت رائحة المسك فعلم عامر انها رائحة عبيد الله بن زياد لانه كان مشهورا برائحته الطيبة . ولبث عامر جالسا وقد ندم على بقائه هناك ، ثم ما عتم ان رأى الرئيس مقبلا نحوه وعبيد الله الى جانبه فوقف له وحياه ، فرد عبيد الله التحية هاشا والرئيس يتبسم كأن في نفسه قولا يهم به ، فتجاهل عامر وتأدب في موقفه فدعاه ابن زياد الى الجلوس ، وأمر الرئيس بطنفسة فرشت لهم على حصير فجلسوا عليها ، وعامر يعجب بما يبدو من مظاهر الترحاب ، ونفسه تحدثه بظنون كثيرة حتى لم يبق له صبر على استطلاع السبب ، وهو يخاف ان يكون فيما سيسمعه بأس على عبد الرحمن !

فلما استتب بهم المجلس ، جيء اليهم بالفاكهة وكؤوس الأشربة فأكلوا وشربوا ، ثم بدأ الرئيس الكلام قائلا : «لعل مولانا الخليفة قادم الينا فنتأهب لاستقباله» .

فضحك عبيد الله وهو يصلح حمائل سيفه وقال : «لا اظن مولانا يمر بكم اليوم» .

قال الرئيس : «أعائد هو الى دمشق ؟»

قال : «نعم انه عائد الليلة» .

قال : «ولماذا عجل بالرجوع من صيده ، وقد كنت احسبه لا يعود قبل اسبوع ؟»

قال : «انه تشاءم من سفرته هذه فآثر الرجوع سريعا» .

فارتاب عامر في امر عودة يزيد ، وهم بالاستفهام ، فاذا بابن زياد يستأنف الحديث قائلا : «وقد نجا امير المؤمنين من خطر عظيم» .

فلما سمع عامر قوله توسم الوصول الى ما يتوقعه لكنه خاف ان يكون ثمة ما يسيئه ؛ فبدت البغتة على وجهه وتطاول بعنقه لسماع بقية الكلام .

فأتم عبيد الله حديثه قائلا : «وكانت نجاته من الخطر بسر عجيب يرجع الفضل فيه الى كلبه والى رجل من خاصتنا» .

فقال الرئيس : «وكيف ذلك ؟»

قال : «خرجنا من عندكم بالامس ، وبتنا في قرية على بضعة أميال من هذا الدير ، فجاءني مساء امس رجل اعرفه من الكوفة ؛ ونبهني الى وجود غريب متنكر يعتزم الفتك بأمير المؤمنين في اثناء صيده ، فشكرت مسعاه ووعدته خيرا على جميله . وأصبحنا وأنا لم أطلع الخليفة على ذلك لئلا أزعجه ، فخرجنا الى الصيد وكلما اراد الخليفة الانفراد في الغوطة لحقت به مخافة ان يكون ذلك المتنكر متربصا في بعض الاماكن ، وأوصيت جماعة من رجالنا الأشداء ان يقتفوا اثرنا ويتأهبوا للوثوب عند اول اشارة . وكان معنا كلب من كلاب الصيد يمتاز بسرعة عدوه وذكائه ، وقد احبه الخليفة حتى ألبسه الدمقس والحرير ، وملأ قوائمه بالاساور الذهبية ، وفيما نحن على خيلنا بالقرب من غابة متكاثفة الاغصان نبح الكلب نباحا شديدا وأسرع امامنا حتى أوغل بين الاشجار وهو يبالغ في نباحه ، فعجبنا لامره وما زلنا ندعوه الينا وهو لا يطيع

حتى ارتبت في الامر ، فتفرست في اثره فاذا بشاب ملثم قد خرج من الغابة وفي يده خنجر مسلول ، طعن به اول من صادفه من الحاشية . ثم طعن الثاني والثالث واخترق الجمع وهو يلتمس الخليفة . فأمرت الرجال بأن يقبضوا عليه ولا يقتلوه ، فتكاثروا عليه فقتل منهم خمسة ولم يبلغوا منه وطرا الا بعد ان عثر بجذع شجرة ناتيء ، فتجمهروا عليه وأوثقوه وثاقا شديدا وساقوه الى الخليفة ، وكنت قد سبقته اليه وأخبرته بخبره فأمر بارساله الى دمشق ، وعدل عن اتمام الصيد وأوعز بالاياب فأسرعت في المجيء قبله لغرض عند عمي هذا» . وأشار الى عامر .

* * *

سمع عامر حديث ابن زياد فلم يبق عنده شك في ان الذي قبضوا عليه هو عبد الرحمن ، ولكنه عجب للغرض الذي قدم عبيد الله من اجله ، وخاف ان يكون فيه بأس عليه اذ لا يبعد على الذي وشى بعبد الرحمن ان يشي بهم جميعا ! فاسودت الدنيا في عينيه ، ولكنه صبر صبر الرجال وتجلد ، والتفت الى عبيد الله وهو يظهر الاستغراب مما اتفق للخليفة وقال : «مهما يأمر سيدي فاني رهين اشارته» .

قال : «انني احببت مصاهرتك ، فهل ترضاني لك صهرا ؟»

فوقع ذلك الكلام على قلب عامر وقوع الصاعقة ، وارتج عليه فلم يعلم بماذا يجيبه ، وهو لا يستطيع مجافاته لانه في قبضة يده ، فأراد ان يحتال في جوابه . وقبل ان يبدأ بالكلام رأى ابن زياد قد وقف فجأة وهو ينظر الى البستان وتطاول بعنقه وعلته البغتة . فالتفت عامر فاذا بالخيول تتزاحم عند باب البستان وعليها الفرسان وفيهم يزيد بن معاوية. ثم رأوا يزيد قد ترجل وحده وأقبل مسرعا على قدميه نحو الدير كأنه

يطارد شيئا ، فبغت الرئيس وأسرع الى باحة الدير وهو يتعثر بأذياله حتى كاد يقع على السلم ، فرأى كلبا من كلاب الخليفة دخل الباب وعليه الاطلس والاساور كما وصفه ابن زياد . فلما رآه الكلب مهرولا نحوه انحرف بمسيره نحو غرفة سلمى ويزيد في اثره ، لانه افتقده وهو بقرب الدير فلم يجده ، فعلم انه دخل الدير فجاء للقبض عليه بنفسه لانه كان يحبه ، ولاسيما بعد ما بدا من نباهته في ذلك اليوم .

وكانت سلمى متكئة على عباءة وباب غرفتها مفتوح نصف فتحة ، وفي يدها منديل تمسح به دموعها وهي غارقة في ظلمات الخيال ، تفكر في حبيبها وما عرض نفسه له من الخطر الشديد وقد طال غيابه فغلبها البكاء وأطلقت لعواطفها العنان حتى احمرت عيناها وتكسرت أهدابها وتوردت وجنتاها . وكان شعرها محلولا فاسترسل بعضه على جبينها وتدلى البعض الآخر حتى غطى معصمها ، وانحسر كمها عن زندها فانكشف معظمه وعليه الوشم كدبيب النمل .

وفيما هي على تلك الحال سمعت خشخشة الاساور في قوائم الكلب. ثم رأته داخلا غرفتها فتذكرت يزيد فأجفلت ، وتشاءمت واذا بها تسمع صوت يزيد وهو يناديه ، وأحست به مقبلا نحو غرفتها فارتعدت فرائصها ومدت يدها الى النقاب لتستر رأسها به فلم تدركه فأرسلت شعرها على وجهها ريثما تستتر واذا يزيد قد دخل ورآها فانذهل لرؤيتها ووقف مبهوتا لا يدري ما يقول وقد نسي الكلب وأساوره !

اما هي فغطت وجهها بكمها وغلب عليها الحياء والوجل . وظلت جالسة لا تدري كيف تحتجب ! وداخلتها الدهشة فزادتها رونقا ومهابة.. فولت وجهها عرض الحائط وظهرها نحو يزيد الذي لم يتمالك عن الاعجاب بجمالها وهيبتها ، ولم يستطع ان يكبح انعطافه اليها ، فناداها بنغمة المحب المفتون قائلا : «لا تحجبي شمس وجهك عن خلق الله يا

أجمل خلق الله !»

فظلت صامتة وجمد الدم في عروقها من شدة الخجل ، فتحول يزيد من الغرفة وقد وقعت سلمى من نفسه موقعا عظيما • وكان عبيد الله بن زياد قد نزل الى الباحة والرئيس معه فرأى يزيد خارجا من غرفة سلمى وامارات الاعجاب بادية في عينيه ، فشعر بغيرة شديدة ممزوجة بالحسد، لعلمه ان الخليفة اذا رآها وأعجبته لا يبقى له هو سبيل اليها • فتجاهل ما ثار في خاطره وخاطب الخليفة على سبيل المزاح قائلا : «ارى امير المؤمنين مشغولا بكلبه بعد الطريدة التي اصطادها له هذا الصباح !»

فقال يزيد وهو يحاول الابتسام : «لكنه اصطاد طريدة اخرى اجمل من تلك ، فتضاعف فضله علينا» •

فأدرك ابن زياد تلميحه فازدادت غيرته ، ولكنه اضطر الى الكتمان وندم على امتداح نباهة الكلب ، ولعن الساعة التي جاء فيها الى الدير، ولكنه عمد الى المغالطة ونادى احد الخدم فسلم اليه الكلب ، واستشار الخليفة فيما يراه من البقاء او الرحيل فأشار بالرحيل ، والرئيس يرحب به ويرجو بقاءه للاستراحة بقية ذلك اليوم ، فقال يزيد : «لقد طرأ ما يدعو الى التعجيل بعودتنا» • ثم طلب اليه ان يتبعه فتبعه الرئيس حتى انتحيا ناحية وظل ابن زياد واقفا وعيناه تتبعانهما حتى تواريا وراء الصفصافة •

فلما خلا يزيد الى الرئيس سأله عن تلك الفتاة فأخبره انها ابنة تاجر قدم من العراق منذ بضعة ايام •

فقال يزيد : «هل هي عزبة ؟» • قال : «أظنها كذلك يا مولاي» •

قال : «حسنا» • ولم يزد ، ثم أمر فركبت حاشيته وركب هو وابن زياد معه ، وودعا الرئيس وخرجا ، وعامر لا يزال على السطح يختلس النظر الى حركات يزيد وقد رآه وراء الصفصافة مع الرئيس•

فلما مضى يزيد ورجاله صعد الرئيس الى السطح وفي وجهه ابتسامة استدل عامر منها على شيء في نفسه ، فتقدم اليه وملامح الاستفهام بادية على وجهه . وقبل ان يهم بالكلام ابتدره الرئيس قائلا : «اني أبشرك بالسعادة يا بني !»

قال عامر : «بماذا ؟ وكيف ؟»

قال : «لاني رأيت امير المؤمنين معجبا بابنتك !»

فشق ذلك على عامر وقال وهو يتظاهر بالسذاجة : «وماذا في ذلك من دواعي الغبطة ؟»

قال : «لحظت من كلامه انه يريد ان يسعدك بالمصاهرة» .

فوقع ذلك الكلام على عامر وقوع البلاء العظيم . ولم يفه بكلمة وتراكمت عليه الهموم ، وحار فكره بين وقوع عبد الرحمن في الاسر . وبين ما سيصيب سلمى اذا علمت بما اصابه ، ثم برغبة يزيد في زواجها، فلم يعد يعرف كيف يتخطى درجات السلم لشدة كدره .

اما سلمى فأسرعت بعد ان خرج يزيد من غرفتها وأغلقت الباب ، ثم وقفت مبهوتة وهي تردد ما سمعته منه ، وأدركت ما جال في خاطره عنها، فوقعت في حيرة لا تدري ماذا تعمل ! ثم عاد خيال عبد الرحمن الى ذهنها فشغلت به عن كل هاجس ، وودت لقاء عامر لتستطلع ما علمه عن عبد الرحمن ، وحدثتها نفسها بأن تخرج في طلبه على السطح ، ولكنها خافت ان يكون يزيد باقيا هناك فأحجمت .

وبينما هي تتردد في ذلك اذ فتح عامر الباب ودخل ، فرآها على تلك الحال من القلق . وأثر البكاء في عينيها ، والبغتة لا تزال غالبة على محياها . فلم يدر كيف يخاطبها ، ولا كيف يفضي اليها بما جاء به من الخبر المحزن عن عبد الرحمن ، فوقف لحظة لا يتكلم . وأدركت هي ما يساوره فقالت : «ما وراءك يا عماه ؟»

قال : «ما ورائي الا الخير ان شاء الله» •

قالت : «هل جاءت رسالة عبد الرحمن ؟ هل وصل اليك سهمه ؟»

قال : «نعم ولكنه وقع في قلبي !»

ففهمت انه سمع شيئا يسوؤها فقالت : «ما الخبر ؟ اين عبد الرحمن؟ ماذا جرى له ؟»

قال وهو يتلجلج : «لم يجر له شيء ، ولكن ••»

قالت : «ولكن ماذا ؟ هل قتلوه ؟» • قالت ذلك وقد اختنق صوتها وسبقتها العبرات •

قال : «لا لم تصل يدهم الى ذلك ، ولكنهم اسروه !»

فلطمت خدها حتى كادت نفع اقراطها وقالت : «من أسره ؟ وكيف ؟»

فجعل يخفف عنها وهو يقص عليها حديث ابن زياد ، دون ان يذكر لها شيئا مما قد بدأ به من امر المصاهرة • فلما فرغ من كلامه عـــادت سلمى الى البكاء وهي تقول : «وقبحهم الله ! انهم قبضوا عليه • أرأيت تطيري في هذا الصباح وأنت لا تزال تغالطني ؟• هذا ما كنت اخشاه ، فما العمل الان ؟»

فلبث عامر ساكنا غارقا في بحار أفكاره . فابتدرته قائلة : «قل يـا عماه • قل ما الرأي ؟»

قال وهو يفرك لحيته بسبابته كأنه يهيىء عبارة يخفف بها عنها : « لا تعجلي يا سلمى ، تمهلي واستعيني الله • ولننظر في الامر على مهل» •

قالت : «كيف أتمهل وقد اسروا عبد الرحمن ، ولا ادري ما الذي يحدث له هناك ؟» • قالت ذلك وأجهشت بالبكاء ، فتحير عامر في امره وهو أشد منها خوفا عليه ، لما سمعه من حديث ابن زياد ، وحدثته نفسه ان يطلعها على ذلك ولكنه خاف ان يزداد قلقها فقال : «لا يفيد التسرع، ونحن الان حوالي الغروب ، والليل اعمى لا نستطيع فيه عملا ، ولا بد

من الانتظار الى الغد ، وان غدا لناظره قريب» •

قالت : «انني خائفة من هذا الليل • اني خائفة ان يصاب عبد الرحمن ببلاء عاجل . فلا نملك حيلة لانقاذه» •

قال : «لا أظنهم يبتون في شأنه الليلة ، ولا بد من ان يمهلوه حينا ريثما يستطلعون حاله ، وما دفعه الى قتل الخليفة • وأرى ان انزل غدا بأحمال التمر الى دمشق ، لاحتال لاستطلاع الخبر وأعود اليك ، فنرى ما يكون » •

قالت : «لا بد من الانتظار اذن ؟ فلنصبرن ان الله مع الصابرين» •

وقضيا تلك الليلة على مثل الجمر ، وسلمى لم تذق رقادا ، وعامر يفكر في تدبير الحيلة لاستطلاع حال عبد الرحمن • فلما اصبحا هيأ عامر جماله وتزيى بزي التجار ، وركب قاصدا الى دمشق ، وسلمى تدعو له بالتوفيق وقلبها يخفق خوفا عليه ايضا ، لئلا يكون شمر قد دبر له مكيدة • ولما توارى عن نظرها عادت الى غرفتها وأغلقت الباب ، ولما تذكرت حبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد فهاجت أشجانها وأجهشت في البكاء •

وفيما هي في ذلك سمعت وقع أقدام خارج غرفتها ، وصوتا يشبه صوت الرئيس • ولم تكد تصيخ بسمعها حتى سمعت قرع الباب فأجابه قلبها بدقات متوالية ، ووقفت بلا انتباه ويدها اليسرى على خمارها تتأهب لارساله على رأسها اذا رأت في الباب رجلا غريبا •

ولا تسل عن اضطرابها ووجلها لما فتحت الباب ورأت الرئيس ، ومعه «شمر بن ذي الجوشن» • وقد ارتدى افخر ملابسه وتطيب وأصلح هيئته كأنه يستعد للقاء عروس • فلما رأت برصه ارتعدت فرائصها وحدثتها نفسها ان تبتدره باللعن والتأنيب ، ولكنها خافت الفضيحة وهي وحدها هناك ، فتجلدت وهي ترتعش • اما الرئيس فلما رأى سلمى

وحدها قال لها : «اين ابوك ؟»

قالت : «أظنه ذهب الى دمشق بأحمال التمر في هذا الصباح . فما الذي تريده منه ؟»

قال : «ان مولانا الخليفة بعث اليه بهذا الامير ليكلمه في شأن» .

فلما سمعت اسم الخليفة ورسالته خافت مما وراء تلــــك الرسالة ولكنها امسكت عواطفها وآجابته بهدوء فقالت : «ان ابي ليس هنا الان». قالت ذلك وهي ترجو ان ينصرف شمر بهذا الجواب .

فابتسم شمر وهو يحاول ان يتظاهر بالرزانة والاستخفاف معا وقل: «لا بأس ، فاني مكلف بتأدية هذه الرسالة له او لك» .

قال ذلك ودخل الغرفة ، فتحول الرئيس راجعا ..

واما سلمى فظلت واقفة . وقد اصطكت ركبتاها وافشعر بدنها وخافت ان يبدو ذلك الاضطراب في وجهها فبالغت في ارخاء النقاب عليه ، ولم تكشف منه الا عينيها . ولكن شمر قرأ في تينك العينين امارات الخوف والوجل . فلما خلا اليها ، قال متلطفا : «لا تخافي يا سيدتي ولا تظني بي سوءا ، ولكنني ارجو ان تكوني قد عرفت هذا الوجه» . قال ذلك وقبض على لحيته .

فقالت : «وماذا في معرفتي اياه ؟»

قال : «اذا عرفته عرفت اني جاركم القديم ، واني من اصدقاء ابيك او كفيلك عامر !» . قال ذلك وهو يحاول الابتسام فأدركت انه يهددها بمعرفة سر وجودها هناك ، وتحققت الغدر في وجهه ، وندمت علــــى بقائها وحدها .

ولكنها لما تذكرت ما ارتكبه ذلك الابرص من الوشاية بعبد الرحمن، هان عليها كل صعب وعولت على التفاني في سبيل شفاء غليلها منــــه فقالت : «واذا كنت كذلك ، فما الذي يهمك من امرنا ؟»

قال : «ما بالك تخاطبينني بالجفاء يا سيدة الملاح وأنـــا انما جئت لاستعطافك ؟ »

فأدركت ما وراء هذه الملاطفة ، وسكتت وقد صعد الدم الى رأسها فتحول وجلها الى غضب وقالت : «انك جئت لمخاطبة ابي . ولكنه غائب، فاذا جاء فخاطبه» .

قال : «وماذا يفيدني خطابه اذا لم تكوني انت راضية ؟»

قالت : «اراك تلمح الى ما لا يليق بك بين يدي فتاة لا تعرفك !»

قال وهو يظهر الاستخفاف : «كيف تقولين انك لا تعرفينني وآنا أعتقد غير ذلك ؟ ام انت لا تزالين مغرورة بذلك الفتى الغر الجاهل ؟!»

فلم تعد سلمى تستطيع صبرا على تلك الفحة ، وأعملت فكرها فيما تفعل فرأت نفسها ضعيفة غريبة ، والخليفة وأعوانه وكل اهل الشام ضدها وحياتها وموتها بين شفتي ذلك الرجل . فأحست كأن الجبال تراكمت على صدرها وتساقطت دموعها بالرغم منها ، فحولت وجهها لئلا يلحظ شمر ذلك فيزداد طمعه فيها .

أما هو فلما رآها تبكي استسهل استرضاءها ، فعمد الى الملاينة ، واقترب منها وقال في حنان : «لا تبكي يا سلمى ولا تخافي ، فاني مع علمي بسرك وسر عامر وعبد الرحمن . لا اريد بك شرا ، بل انا نصيرك وعونك حتى تخرجي من هذه الديار آمنة ، على شرط ان تجيبي سؤال قلبي ، وترحمي محبا قطع البراري والقفار سعيا اليك . فارحمي قلب هذا العاشق الولهان ، واقلعي عن مجاراة الغلمان الذين يسوقون انفسهم الى الموت بجهلهم وغباوتهم ، كما فعل ابن عمك عبد الرحمن الذي اغواك بشقشقة لسانه ، حتى وقع اسيرا وسيق الى السجن مغلولا ، ولو اردت ان اسوقك وأسوق عامرا معه لفعلت ، ولكن قلبي لم يطاوعني لانـــي احبك . فاذا أطعتني ورضيت بما اطلبه منك عشت سعيدة آمنة ، لان ما

تسعون الى نيله انما هو أضغاث احلام ، ونحن الان اهل الصولة والبطش ، وخليفتنا صاحب السلطان والاعوان . فما قولك ؟»

وكان شمر يتكلم وهو ينظر الى وجهها من وراء النقاب وهي معرضة عنه وفرائصها ترتعد ، وقد جمد الدمع في عينيها وحارت في امرها فظلت صامتة . فاستبشر شمر وظن السكوت جوابا فأعاد الكرة وقال : «اني والله ليعجبني تعقلك وسداد رأيك . فأفصحي لي عن رضاك وهذا يكفيني الان» .

فلم تعد سلمى تصبر عن الجواب فحولت وجهها اليه وقالت : «انك لتطمع في امر يقصر عنه باعك ، فانصرف من هنا بسلام !»

فضحك وقال : «الى اين أنصرف يا سلمى . أأنصرف الى امير المؤمنين فأطلعه على امرك فيصيبك ما اصاب ابن عمك ؟. أظنك لم تفهمي مغزى كلامي بعد . فاعلمي اذن ان عبد الرحمن اصبح في قبضتنا ولم يبق له مطمع في الحياة ؛ فاستبقي نفسك وعامرا . والا فالموت اقرب اليكما من حبل الوريد» .

قال ذلك والخبث يتجلى في وجهه ، فابتدرته سلمى قائلة : «خسئت يا نذل ! ان باعك وباع يزيد أقصر من ان تنالا شعرة من عبد الرحمن !»

فضحك شمر ضحكة طويلة وقال : «أتظنين اننا قاصرون عنكم ؟ ألم تفهمي ان عبد الرحمن اسير عندنا وقد قبضنا عليه وهو يحاول قتل امير المؤمنين ؟ فمن اين تأتيه الحياة بعد ؟! اقلعي عن عنادك وأطيعي ناصحا يعرض عليك السعادة ، فاذا رفضتها اذاقك الموت الزؤام !»

قالت : «لا تحسبني جاهلة ما تقوله فقد علمت ان عبد الرحمن اسير ، وانك وشيت به ، وأعلم انك قادر على ان تشي بي ايضا وتميتنا معا . ولكن الموت مع عبد الرحمن خير من الحياة معك يا خائن ! فامض لشأنك وافعل ما تشاء ، والموت اسهل ما تخوفني به وهو أحب الي من

قربك . فاذا بعدت عن وجهي لا أبالي حييت ام مت !»

فوقع ذلك التقريع موقع السهام في قلبه ، ولكنه كان شديد الولع بسلمى منذ كانت في العراق ، وهو انما لحق بهم الى الشام وأوقع بعبد الرحمن طمعا في الحصول عليها ، لانه لم يكن يجرؤ على منافسته فيها ؛ فلما أوقعه في الأسر ظنها تيأس من حياته وتخاف على حياتها فترضى به . وكان يريد مخاطبة عامر في هذا الشأن ؛ فلما لم يجده هناك خاطبها وعجب لشجاعتها وعزة نفسها ، وهان عليه ما سمعه من التوبيخ واعتزم استرضاءها بأية وسيلة كانت ، فقال : «يا للعجب من جهالتك ! لقد كنت أحسبك عاقلة فاذا انت حمقاء مغرورة ! ولكني أعرض عليك الحياة مرة اخرى فاذا رفضتها كان ذلك آخر العهد بك» .

قالت : «امض وافعل ما تشاء . اخرج من هنا وليكن ما يكون» .

فخرج شمر والغضب ظاهر في وجهه وحركاته ، وهو يلعن سلمى ويتوعدها . ولكن قلبه لم يطاوعه ، فصبر نفسه ريثما يرى عامرا ويحمله بالوعد او الوعيد على اقناعها .

* * *

اغلقت سلمى الباب وراء شمر وأطلقت لنفسها عنان البكاء . وجلست تندب سوء حظها وتفكر في مصير عبد الرحمن ومصيرها . حتى اذا كلت من البكاء والنحيب استرجعت رشدها وأعملت فكرها فلم تر خيرا من ان تنتظر عودة عامر فتستشيره في الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر ريثما ينفتح باب الفرج .

ومضى معظم ذلك النهار وسلمى بين بكاء وتأمل ، دون ان تذوق اي طعام او شراب . حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل سمعت وقع

خطوات مسرعة امام باب الغرفة ، فخفق قلبها ، ثم رأت الباب قد فتح ودخل عامر وعلى وجهه ظواهر الدهشة فازداد اضطرابها وقالت : « ماذا وراءك ؟ »

قال : «ما ورائي الا الخير ، ما بالك في هذه الحال ؟ هل جاءك احد بخبر جديد ؟ »

قالت : «كيف تسألني عن حالي وأنت تعلم ان عبد الرحمن مسجون؟ هل علمت جديدا من امره ؟ وما سبب اضطرابك ؟ قل ولا تطل السكوت » .

قال : «أما عبد الرحمن فقد علمت انه حي في سجنه ولا خوف عليه الان . وأما سبب اضطرابي فاني رأيت جوادا واقفا بباب الدير موسوما بلفظ (عدة) فعلمت انه من خيل الحكومة ، وخشت ان يكون قد جاءنا احد من رجال يزيد يريد بنا سوءا لاني صرت أحسب اشجار هذه الغوطة عيونا علينا !»

فقالت : «لقد نطقت بالصواب ، وأنا ايضا ارى رأيك فهل توافقني على الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر ؟»

قال : «نعم ، ولكنني اخاف اذا خرجنا الساعة ان يكون صاحب ذلك الجواد في انتظارنا ، فلنصبر قليلا» .

فتذكرت سلمى حديث شمر فقالت : «ربما كان هذا الفرس لذلك الرجل الابرص» .

قال : «وما شأنه ؟ هل جاء الى الدير اليوم ؟»

قالت : «نعم جاء وتطاول الى ما يقصر عنه بنو أمية جميعهم !»

فتعجب عامر وقال : «وما تعنين ؟ هل رأيته ؟ وهل خاطبك في شأن ما ؟ » .

قالت : «انه جاء بعد خروجك هذا الصباح ، وجعل يستعطفني

ويسترضيني ، ولما لم ير غير الاعراض خرج مغضبا وهددني بالوشاية بي الى خليفته ، وما زلت مذ خرج وأنا أفكر في هذا الامر ، فلم أر خيرا من الاسراع بمغادرة هذه البلاد» •

فدق عامر يدا بيد وقال : «تبا له من غادر !•• أظنه لن يصبر الى الغد لكي يشي بنا • وقد كان من الحكمة ان تماطليه وتدافعيه ريثما نخرج من هذا المكان ولاسيما انك تعلمين ان قيادنا في يديه ، وانه قادر على ان يؤذينا ••»

فقطعت سلمى كلامه قائلة : «لا تلمني يا عماه فاني لم استطع صبرا على قحته وغدره وتهديده . ولم اعد أريد الحياة بعد ما اصابنا» • قالت ذلك وخنقتها العبرات فسكتت واغرورقت عيناها بالدموع ، فندم عامر على ما بدا من لومه وقال : «اني لا آلومك يا سلمى ، فلو كنت انا مكانك لما قابلته باخف من ذلك ، على اني اخفيت عليك امرا وقع لي بالامس مع ابن زياد ، ولم أطلعك عليه بعد» •

قالت : «وما ذاك ؟ » • فقص عليها خطبة ابن زياد لها الى ان قال : «وقد ماطلته خوفا من غضبه • والآن لم يبق انا الا التأهب للسفر ، فقد بعت الجمال والاحمال فخفت امتعتنا ، ولم يبق لنا ما نحمله غير هذه الثياب » •

قال ذلك وأخذ في جمع الثياب وحزمها • ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع رئيس الدير يناديه باسمه ، فأجفل وتحول الى الباب ففتحه وتطلع فرأى الرئيس واقفا تحت الصفصافة وامارات البشر على محياه • فلما وقعت عينه على عامر أومأ اليه باصبعه ان يأتي اليه •

فاستبشر عامر بوجه الرئيس وذهب عنه اضطرابه ، واستأذن سلمى في الخروج اليه ثم خرج على عجل • وقبل ان يصل اليه تحول الرئيس نحو السلم المؤدي الى السطح وهو يومىء اليه ان يتبعه ، فسار في اثره

حتى صعد الى السطح ؛ ودخلا غرفة الرئيس ، فاذا هناك عبيد الله بن زياد جالسا على وسادة مثناة فوق البساط فانقبضت نفس عامر ، وأوجس خيفة من قدومه ، اذ تيقن انه انما جاء خاطبا • ولكنه تجلد وتظاهر بالبشاشة والارتباك ؛ فوقف له ابن زياد ورحب به وأجلسه الى جانبه ؛ وجلس الرئيس على جانب البساط بقرب الباب •• فلما استقر بهم الجلوس قال عامر : «كيف اصبح مولانا امير المؤمنين اليوم ؟»

قال : «أصبح في خير ، وقد كلفني ان احمل اليكم بشرى اظنها تسركم ، وان كانت لا تسرني !»

فسكت عامر ؛ ثم ادرك ان سكوته يعد احتقارا لانعام الخليفة فقال: «اننا جند امير المؤمنين نأتمر بأمره» •

قال : «انت تعلم ما في نفسي من امر ابنتك وما خاطبتك به بالامس؛ ألا تذكر ذلك ؟»

قال : «نعم أذكر ذلك يا مولاي» •

قال : «وقد كان في نيتي ان اعود اليك مرة اخرى ، فسبقني امير المؤمنين لانه شاهد ابنتك اتفاقا . فوقعت من نفسه موقعا حسنا . واعتزم ان يسعدك بالمصاهرة لتكون ابنتك من بعض نسائه» •

فوقع هذا النبأ في اذن عامر وقوع السهم في قلبه ، وتلعثم لسانه وظهرت الحيرة على محياه فظل ساكتا • فلم يخطر ببال ابن زياد ان عامرا يتردد في الجواب ، ولكنه حسبه فوجيء بنعمة لم يكن يتوقعها ، فأعاد عبارته ونمقها فقال : «ولو لم يسبقني امير المؤمنين الى ذلك لكنت احسبني سعيدا بمصاهرتك ، ولكن امره فرض ، فأهنئك بهذه النعمة التي يغبطك عليها كثيرون » •

فلم يزدد عامر بذلك الايضاح الا ارتباكا • وحدثته نفسه ان يعتذر بخطبة سلمى لشاب آخر ، ولكنه خاف ان يسأله عن اسم الخطيب وهو

لا يقدر على التصريح باسمه ولا ان ينتحل اسم احد سواه لانه لا يعرف احدا يسلم اليه سره في تلك الديار • فلم يستطع غير التظاهر بالقبول واسداء الشكر ريثما يدبر حيلة للفرار ، فقال وهو يحاول الابتسام : «اني أعد نفسي أسعد الناس بهذه النعمة ، لان التقرب من امير المؤمنين شرف وسعادة ، وما ابنتي الا جارية من جواريه • ولكني أرغب الى مولاي ان يمهلنا يوما او يومين حتى تتأهب احمل الفتاة الى دار الخليفة، لانها ستتلقى الخبر بالدهشة لبعد هذه النعمة عن خاطرها ولاسيما انها اصبحت اليوم مريضة» •

فقال ابن زياد : «لا اظن الخليفة الا راضيا بما ترتاح اليه عروسه • واذا تعجل الامر فانما يكون ذلك رغبة في استقدامها اليه ليرسل اليها من يكون في خدمتها حتى تصل الى داره في أمن وراحة» •

وسكت عامر ، فحمل ابن زياد سكوته على الرضا ، ثم نهض فنهض الرئيس وعامر ، فودعهما وخرج •

* * *

أسرع عامر الى سلمى ليرى رأيها في هذا الامر الجديد • وكان صبرها قد نفد في انتظاره، فلما أطل عليها وشاهدت البغتة على وجهه أوجست خيفة وابتدرته بالسؤال فقال لها : «هلم بنا نهرب فاني لا ارى فرجا الا بالفرار من هنا» •

قالت : «ما الذي حدث ؟»

قال : «اننا وقعنا في مشكلة اعظم مما كنا نخافه !»

قالت : «وما ذلك ؟»

فقص عليها حديث ابن زياد كما وقع • وكان يتكلم وهو يتوقع

اجفالها فاذا هي قد ابرقت اسرتها وأشرق وجهها وزال غضبها ولم تجب.

فقال : «ما رأيك يا سلمى ؟ ألا ترين ان نسرع في الفرار !»

قالت : «ولماذا الفرار ؟»

فاستغرب سؤالها وقال: «ما هذا السؤال؟. ألا نفر من هذه الهوة؟!»

قالت : «أتحسب الاقتران بالخليفة هوة ؟» . وضحكت !

فازداد استغرابا ولكنه حسبها تمزح فقال لها : «صدقت ان الاقتران بالخلفاء سعادة ! هيا بنا نحمل امتعتنا وننصرف قبل ان تداهمنا تلك السعادة ! »

فقالت : «كيف نفر من سعادة يتمناها كل انسان ؟ ام تحسبني امزح؟»

قال : «لا !شك في انك تمزحين !»

قالت : «كلا انما اقول الجد . ومتى رأيتني أزف الى الخليفة ، عرفت اني أجد ولا أهزل !»

فلم يصدق قولها وظل يحسبها تعبث فقال : «دعينا من المجون الان فان الوقت قصير . هلم بنا نرحل . وأرى ان نخرج منفردين ، واذا رأينا حمل الامتعة يدعو الى شبهة تركناها» .

قالت : «اذا شئت الخروج فاخرج . وأما انا فاني أنتظر وفد الخليفة لأسير اليه» .

فقال : «دعينا من المجون يا سلمى فليس هذا وقته !»

قالت والجد باد في وجهها : «قلت لك اني لا أهزل بل اقول الجد، وأنا باقية هنا حتى أحمل الى دار الخليفة . واذا ساءك ذلك فابق حيثما شئت» .

فقال وقد مل اصرارها : «اذا كنت تجدين فما انا معك . والا فما الذي تعنينه ؟»

فقالت : «كن حيث شئت فاني أعني ما اقول» .

قال : «أتعنين ان تقبلي يزيد زوجا لك ؟»

قالت : «لا تقل يزيد بل قل امير المؤمنين» •

فذهل عامر وظن نفسه في حلم ! وكان وهو يخاطبها قد هم بجمع الامتعة فلما سمع كلامها ترك ما كان بيده من الثياب ، ووقف وأسند ظهره الى الحائط مبهوتا لا يبدي حراكا ، وهو يعجب لما سمعه منها ؛ وقال في نفسه : «لقد صدق من قال ان النساء ضعيفات العقول ! ان هذه الفتاة نسيت ابن عمها بعد ان كانت تتظاهر بالاستماتة في حبه ورضيت رجلا كان السبب في القبض عليه وربما قتله • لك الله يا عبد الرحمن !» • ثم نظر الى سلمى فاذا هي جالسة لا تعبأ بغضبه فناداها قائلا : «سلمى !» • قالت : «نعم» • قال : «أأنت ابنة حجر بن عدي ؟»• قالت: «لا ادري !»

قال : «ألم نكن بالامس نبكي أباك تحت تلك الشجرة ؟ ألم نقسم لنأخذن بثأره ؟• هل نسيت موقف عبد الرحمن والخنجر بيده ؟ أنسيت عبد الرحمن ابن عمك وخطيبك ؟ أنسيته لانه وقع في ضيق ويئست من حياته ؟ اطمعت في القرب من الخليفة ابن قاتل ابيك ؟• اعوذ بالله ! ما هذا الذي اراه ؟ أفي حلم انا ام في يقظة ؟!»

فقالت بصوت هادىء لا يشوبه اضطراب وهي مطرقة : «لا ، بل انت في يقظة !»

فلما سمع كلامها تصاعد الدم الى رأسه وبدا له فشله بعد ان شهد انقلابها فتناثر الدمع من عينيه وهو يحاذر ان تلحظ سلمى ذلك فتنسبه الى الضعف ، فتحول وخرج من الغرفة وهو لا يدري ماذا يفعل ولا الى اين يذهب ، ولم يصل الى الصفصافة حتى لقيه الرئيس ، فلم ينتبه لوجوده حتى سأله عما كان من امر سلمى • فلم يدر بماذا يجيبه لئلا يلمح كدره فيطلع على شيء من سره ، ويفتضح امره ، ولكنه تجلد

وحاول الابتسام وقال : «لا ريب في انها اغتبطت بهذه النعمة» • قال ذلك وتظاهر بأن امرا طرأ على ذهنه يدعو الى سرعة الرجوع فاستأذنه وعاد حتى اتى باب الغرفة وهو لا يلتمسه ، فأراد التحول عنه فوقعت عيناه على سلمى فاذا هي مشتغلة بشيء تحاول دسه في جيبها . ولما رأته بادرت الى الباب فأغلقته في وجهه ثم اوصدته !

فلما رأى تسترها منه الى هذا الحد ، داخله ريب في امرها . ولبث واقفا بالباب وهو لا يفهم سر هذه الظواهر الغريبة • فلم تطاوعه نفسه على طرق الباب وأحب العزلة برهة لعله اذا خلا بنفسه ينكشف له شيء من هذا الغموض فانقلب راجعا حتى خرج من باب الدير ومشى في البستان حتى تجاوزه وهو غارق في بحار الهواجس لا يدري الى اين تسير به قدماه •

وما شعر الا وهو على مقربة من الجوزة ، ولما وقع بصره على قبر حجر اختلج قلبه في صدره لتذكره ليلتهم على ذلك القبر • فتاقت نفسه الى البكاء فوق ترابه لعل هاتفا ينبئه بحقيقة ما يبدو له من الغرائب • وفيما هو يفكر في ذلك مر بخاطره الشيخ الناسك فقال في نفسه : «يا ليتني ألقاه وأستطلعه هذا الامر فلعله يفرج همي» • ولم يكد يفكر في ذلك حتى رأى شيبوب خارجا من وراء الجميزة وهو يثب على جذعها كأنه يحاول الصعود فأراد عامر ان يناديه ولكن بصره وقع على اعلى الجوزة فرأى شيخا متكئا على بعض اغصانها فتفرس فيه فاذا هو الشيخ الناسك بعينه • فأجفل وعجب لوجوده هناك ، ثم تذكر ما ظهر منه من الغرائب السابقة فزال عجبه ، وارتاح لالتقائه به في ذلك المكان • وقبل ان يهم بمخاطبته رآه يتحرك ، فتربص ليرى ما يبدو منه فاذا هو ينحدر نازلا بأسهل ما يكون • فظل عامر واقفا حتى وصل الناسك الى الارض والكلب يحوم حوله ويثب على يديه ورجليه كأنه يرحب به •

وكان الناسك قبل ان يصل الى الارض قد ارسل شعر ناصيته على جبينه وعينيه فغطى ما بقي من سحنته خاليا من الشعر الا رأس أنفـــه وصاح قائلا : «لقد قضي الامر يا عامر . ولكن لا تجزع فانهم لـــن يقتلوه على عجل» . فارتعدت فرائص عامر واقشعر بدنه وهم بيد الشيخ ليقبلها فأمسك الشيخ يده وقال : «تجلد يا عامر وكن رجلا» .

فأمسك عامر نفسه وارتاح لمكاشفته بحال سلمى فقال : «اني لا أجزع على عبد الرحمن ولكني خائف على سلمى» .

قال : «وما الذي يخيفك عليها ؟»

قال : «لقد طلبها يزيد لتكون زوجا له فقبلته بالرغم مني» .

فأرخى الشيخ الناسك يده فأفلتت يد عامر . ولبث كلاهما صامتـا وعامر ينظر ما يبدو من كرامات الشيخ وقلبه يخفق . فاذا بالشيخ قد جلس وأسند ظهره الى الجوزة وهو يحك رأسه بأطراف اظافره كأنه يفكر في امر . ثم قال : «وأي بأس على سلمى من زواجها بيزيد ؟»

قال عامر : «ألا ترى بأسا عليها يا سيدي ؟ وهب انه لا بأس عليها، فكيف تنكرت لعبد الرحمن ؟!»

فضحك الشيخ حتى بدت نواجذه وقال : «لا شك في انها لم تقرر ذلك الا بعد تفكير» .

فتعجب عامر وقال : «لكن كيف يطاوعها قلبها على ذلك ؟ كيـــف تخون خطيبها وابن عمها وترضى بذلك الاموي بديلا منه ؟»

فقال الشيخ : «تأدب يا عامر ان ابنة عدي لا تخون . وهي لم تأت الشام وتكابد مشاق الاسفار وتتحمل الاخطار لتخون قلبها وتغدر بابن عمها» .

قال عامر : «ولكنها قد فعلت يا مولاي . وها هي ذي مستعـــدة للذهاب الى يزيد» .

قال :«دعها تذهب واظهر لها رضاك بذهابها ثم انظر ما يبدو منها».
فدهش عامر لتلك المعميات ولم يلح في الاستفهام لئلا يغضب الناسك . ولكنه استحسن رأيه في مسايرتها ليستطلع ما يكنه ضميرها وتظاهر برغبته في الانصراف اليها فابتدره الناسك قائلا : «اذهب اليها على عجل» .

* * *

نهض عامر ومشى وهو يتعثر بأذياله لفرط ذهوله حتى اتى الغرفة فرأى الباب لا يزال موصدا فطرقه وصبر فلم يجبه احد ، فألح في قرعه ففتحته سلمى وتحولت الى حصير جلست عليه وهي مطرقة ، فدخل عامر وأقفل الباب وراءه ونظر في وجه سلمى فرأى الكآبة بادية فيه وكأنها كانت تبكي فقال لها : «ألا تزالين مصرة على رأيك يا بنية ؟»

فأشارت برأسها ان «نعم» .

فقال : «لقد فكرت في امرك بعد خروجي من عندك فرأيت انك على حق ، لاننا لا نستطيع الفرار الان وعلينا الارصاد والعيون من كل ناحية . ثم ان تقربنا من الخليفة نعمة كبرى ستعود علينا بالخير» .

فرفعت بصرها اليه وتفرست في وجهه هنيهة ثم قالت : «يظهر انك تريد الذهاب معي» .

قال : «وكيف لا ؟»

قالت : «لا ، لا تذهب معي» .

قال : «كيف لا أذهب معك ، والى اين اذهب ؟»

قالت : «لا ادري اين ينبغي ان تذهب ، ولكني لا اريد ان يذهب معي احد » .

قال : «ماذا تقولين ؟• اذا كنت تعدين اقترانك بالخليفة نعمة فلماذا تريدين حرماني منها ؟• اني لأرجو اذا صرت انت زوج امير المؤمنين ان تساعديني في اطلاق سراح عبد الرحمـــــن لانك ستتسلطين على قلب الخليفة ولا أظنه يرفض لك طلبا ، وربما وصلنا بوساطتك الى مناصب رفيعة !» • قال ذلك وهو يراقب ما يبدو منها وعيناه شاخصتان اليها •

اما سلمى فحدقت ببصرها اليه وهي تشك في صدق كلامه ثم قالت: «أصحيح ما تقوله يا عماه ؟• هل تقرني على الذهاب الى الخليفة • أقسم بعبد الرحمن انك تسمح لي بذلك» •

قال : «نعم يا سلمى انه صحيح لا ريب فيه وأقسم لك» •

قالت : «أطعني اذن ودعني اذهب وحدي !»

قال : «ولماذا ؟• اني لأعجب من امرك • أكلما جارنياك في غريبة انيتنا بغريبة اخرى • ان اصرارك على منعي من ذهابي معك لأغرب من قبولك الذهاب • ما هذا يا سلمى ؟» • قال ذلك والاسف والعتاب باديان في عينيه • ولكنه لم يكد يتم قوله حتى رأى وجه سلمى قد علته امارات الكآبة والغضب : فتقطب حاجباها وتوقدت عيناها وقد زادهما الاحمرار بريقا حتى لم يعد عامر يستطيع النظر اليها • ثم وقفت بغتة وتحولت من السكون والرقة الى الخفة والشدة وقالت : «أتظنني ذاهبة للاقتران بيزيد ؟ »

قال : «وفيم انت ذاهبة اذن ؟»

فمدت يدها الى جيبها واستلت خنجرا كانت قد خبأته فيه وقالت : «اني ذاهبة لاقتله بهذا الخنجر !»

فأجفل عامر ، وأكبر شجاعة سلمى وقال : «لكن كيف تفعلين ذلك يا سلمى ؟•• وكيف ارضى بأن تفعليه • اننا ما زلنا نشكو من اندفاع عبد الرحمن وعدم تبصره ، وأراك تندفعين الى ما هو أشد منه خطرا» •

فقالت وقد هاجت عواطفها : «أتعلم ان عبد الرحمن مهدد بالقتل ثم تمنعني من الذهاب اليه ، وتلومني على رغبتي في اللحاق به ؟• وكيف يدعونا يزيد الى ان نسير اليه ويمكننا من التحكم فيه ولا نرضى ؟!• نعم اني عددت عمل عبد الرحمن تهورا لانه اقترب من يزيد وحوله الخدم والاعوان • ولكن يزيد يدعوني الى الزواج به وهي فرصة ينبغي ألا أضيعها • أم تريد ان اخاف على حياتي فأترك عبد الرحمن في خطر القتل وهو في قبضة يزيد ؟• دعني أذهب اليه فاما ان آقتل يزيد وآنقذ الاسلام من شره وأنتقم لأبي ، واما ان اموت فداء حبيبي ، او نموت جميعا • لا تقف في سبيلي اني ذاهبة الى يزيد رضيت أم لم ترض» •

قالت ذلك وقد تغيرت هيئتها من شدة ما اعتراها من الاهتياج والانفعال ، فلم يزدد عامر الا استغرابا ودهشة ، وظل برهة صامتا متحيرا ثم قال : «اذا كنت ترين الموت هينا عليك في سبيل عبد الرحمن، فلماذا تريدين ان ابقى ؟ انني انما اعيش لاجلكما • فارفقي بي ودعيني أسر معك ، فاما ان نموت جميعا ، واما نجونا جميعا • ام تراك تحسبينني جبانا ؟ »

فلما سمعت قوله امسكت نفسها وتجلدت ثم قالت : «حاش لي يا عماه ان اظن بك الجبن ، ولكن لا فائدة من ذهابك» • ثم قطعت حديثها كأنها كانت تهم بأن تقول شيئا ثم امسكت عنه •

فابتدرها قائلا : «كيف لا يكون في ذهابي فائدة ؟• وما فائدة بقائي هنا ؟»

قالت : «أعرني سمعك يا عماه ، وتبصر في قولي •• انك اذا ذهبت معي كنا جميعا في خطر الأسر او القتل • فاذا لم أفز انا بقتل يزيد وحكم علي بالموت يحكم عليك انت ايضا بمثله • فمن يسعى بعد ذلك في انقاذ عبد الرحمن ؟ وأما اذا كنت طليقا وقدر علي الموت ، فانك تستطيع حينئذ

ان تسعى لانقاذ عبد الرحمن • واني لأرجو اذا تمكنت من ذلك ان تقرئه تحيتي . وتنبئه بأن سلمى آثرت الموت في سبيل حبه على البقاء بعده، وان عظامها تهلل في أعماق القبر لتمكنها من انقاذ حياته» • فالت ذلك وخنقتها العبرات ، فجلست وقد خارت قواها ووقع الخنجر من يدها • ثم انتبهت لنفسها فاسترجعت رشدها والتقطت الخنجر من الأرض وقربته من فمها فقبلته وهي تقول بصوت مختنق : «ان فيك آمالي وعليك متكلي . فاما ان تغمد في أحشاء يزيد او في أحشائي • ويا حبذا اذا كان في ذلك نجاة مالك فؤادي» • ثم أغمدت الخنجر وأرجعته الى جيبها ، وجلست وقد تكسرت أهدابها من فرط البكاء وعيناها تتقدان شجاعة وثباتا !

- ٧ -

في مجلس الخليفة

تضاعف اعجاب عامر بشجاعة سلمى وبشهامتها بعد ما سمعه منها • ولكن بقي في حيرة ولم يدر كيف يجيبها ، وأعمل فكره فلم ير مندوحة عن الاذعان لارادتها • ولما تصور ما يهددها من الخطر تحقق انها ملقية بنفسها الى التهلكة ، وانها مع ذلك لا تستطيع انقاذ عبد الرحمن . فقال لها : «وما قولك اذا حكم القضاء بقتلك وقتل عبد الرحمن، هل تكون هناك فائدة من بقائي ؟»

قالت : «أوصيك اذا حكم القضاء بذلك ان تقضي بقية حياتك فوق قبر ابي تبكيه عني وعن عبد الرحمن • واذا ملكت رشدك فاذهب الى

الامام الحسين سيد شباب المسلمين وجاهد في سبيل نصرة الحق لعل الله ان يأتيه بالفرج بعدنا» •

فسكت عامر اذ لم يجد ما يقوله • ثم عاد بعد قليل فقال : «لقد سددت علي السبيل بحجتك ، واني فاعل ما تأمرين والله حسبي ونعم الوكيل » •

قالت : «ولكن احذر يا عماه ان تبقى في هذا الدير . لانهم اذا عرفوا من انا لا آمن ان يبعث يزيد اليك بجند يقبضون عليك على حين غفلة» •

فقال : «لقد أصبت ، ولا فائدة من بقائي هنا وأنت في قصر الخليفة• ولكنني سأتنكر وأدخل دمشق لأتنسم الاخبار • وأوصيك ان تدبري الامر بالتأني والحيلة عسى ان يوفقك الله الى ما فيه الخير» •

قالت : «ليطمئن بالك ، ولا تعبأ بما تراه فيّ الآن من ظواهر الحدة. وتذكر كيف رأيتني حين جئتني بخبر يزيد» •

قال : «اني والله معجب بثبات جأشك يا سلمى ، ولكنني اخاف عليك» • قال ذلك وشرق بدموعه •

قالت : «لا تكن أقل ثباتا مني ، وأنا فتاة وأنت كهل عركه الدهر• ولا يخفى عليك اننا نهضنا لعمل كبير اذا فزنا فيه كان خيرا وسعادة لسائر المسلمين ، أفلا يجدر بنا ان نعرض انفسنا للخطر من اجل ذلك ؟»

فجثا عامر على ركبتيه ورفع يديه ونظر الى فوق وقال : «اللهم اني أستودعك وديعة أودعنيها عبدك حجر بن عدي . شهيد الحق ونصير صاحب الحق . فلا تفجعني فيها ، انك فاحص القلوب وعالم الغيب وأرحم الراحمين» •

ثم نهض ونهضت سلمى وقد سكن روعها ، وارتاحت لما تم لها من امر الذهاب وحدها ، وتعزت بما عولت عليه من التفاني في سبيل الحب الصادق ونصرة الحق القويم •

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وهم الليل بارسال النقاب . وأخذ التعب من سلمى وعامر مأخذا عظيما لما مر بهما من الاهوال في اثناء ذلك النهار ، فقضيا ليلتهما والقلق سائد عليهما .

واستيقظ عامر قبل الفجر وسلمى لا تزال في الفراش ، فظنها نائمة وانسل خارجا من الغرفة وهو يريد الخلوة ليستخير ربه فيما يرجوه من ذهاب سلمى الى دار الخليفة وفيما يخشاه من عواقب اندفاعها .

فصعد الى السطح في هدوء لئلا يشعر به الرئيس ، فلما أطل على الغوطة رأى الاطيار فيها بين تغريد وزقزقة ومداعبة لا يشغلها شاغل عن التمتع بما خلقت له . فاتجه فكره الى ما هو فيه وقال في نفسه : «هنيئا لهذه الخلائق الصغيرة . اني اخالها اسعد حالا من بني الانسان ، واذا فاخرناها بما نعتقده في انفسنا من السلطان عليها وما نرجوه من ثواب او نتوقعه من نعيم فالواقع انها اسعد منا حالا ، لا تجزع على حبيب ولا تخاف من رقيب ، وما أدرانا انها ترجو ثوابا مثلنا ؟» . واعترض تفكيره معاء الماعز في الحظيرة وخوار الثيران فقال : «ولا اخال هذه أتعس حالا من أسيادها بني الانسان : ونحن انما نخدمها التماسا لسعادتنا ، ولكن السعادة تبعد عنا لما يقف في سبيلها من عقبات الطمع والشره مما لا نعرف له حدا» .

ولم تطل احلامه في عالم الخيال لما قام في نفسه من الاهتمام الشديد بأمر سلمى وذهابها الى يزيد . فلما عاد الى هذه الهواجس اقشعر بدنه خوفا عليها . ولكنه لم يدر ما يفعل وقد نفذت حيلته في استبقائها فلم يشأ التسليم ، وعزى نفسه بما سمعه تحت الجوزة من قول الهاتف : «وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم» . فارتاح باله وتحول ذهنه الى عبد الرحمن وخاف ان يستعجل يزيد قتله فيذهب سعيهم هباء منثورا .

وما انتبه الى نفسه حتى وقعت أشعة الشمس على عينيه وهو ينظر

الى مشرقها على غير انتباه ، فخاف ان تستيقظ سلمى ولا تراه في الغرفة فتضطرب ، فمشى نحو السلم فاذا بباب علية الرئيس قد فتح وخرج الرئيس وقد تزمل بعباءته ، فاستقبله عامر بالتحية ، فرد عليه بمثلها وقال : «اراك مبكرا ؟»

قال : «خرجت أستنشق نسمات السحر» .

قال : «ظننتك رأيت رسول الخليفة . ألم تره ؟»

فاختلج قلب عامر عند سماع اسم الخليفة وقال : «لا لم أره ، اين هو ؟ »

قال : «جاء مساء الامس وأنتم نيام فبات عندنا على ان يراك هذا الصباح » .

قال : «وأين هو يا سيدي ؟»

فنادى الرئيس احد الرهبان وأمره ان يدعو الرسول .

ولم تمض برهة حتى رأى الرجل صاعدا وحالما وقع عليه نظره عرف من برصه انه شمر بن ذي الجوشن ، فاستعاذ بالله من شره وعلم انه قدم لمخاطبته في شأن سلمى .

* * *

اما شمر فاستقبل عامرا باسما وقال له : «هل تأذن لي في خلوة قصيرة ؟ »

قال : «تعال» . ومشى به الى جانب منعزل من جوانب السطح . وقبل ان يصلا الى المكان قال شمر : «أظنك ادركت سبب مجيئي يا عامر ؟ »

فرأى عامر ان يبغته بخبر خطبة الخليفة لسلمى لكيلا يترك له مجالا

للكلام .

فقال : «لعلك قادم من قبل الخليفة لحمل خطيبته اليه ؟»

فلما سمع شمر ذلك بغت واستوقف عامرا بيده وقال له : «مــــاذا تقول . وأي خطيبة تعني ؟»

قال : «سلمى» . قال : «هل خطبها الخليفة ؟»

قال : «هكذا يقولون ونحن ننتظر وفدا من عنده اليوم» .

فبهت الرجل وظل صامتا برهة ثم قال : «اذن قد خرجت سلمـــى من يدي » .

فخاف عامر اذا جافاه ان يشي بسلمى او ينوي بها شرا ، وظـــن مجاملته تدفع ذلك الشر عنه فقال : «لا ادري أخرجت ام لم تخرج ، ولكني أعلم ان مولانا امير المؤمنين بعث يخطبها لنفسه ، ومع ذلـــك فالمستقبل في علم الله» .

قال : «ويحك !.. أتغرر بي يا عامر ؟ لكن هذا كله من عناد تلك الفتاة الجاهلة .. ألم تخبرك بما لقيتني به من الجفاء امس ؟ أظنها كانت طامعة في الخليفة ؟» . قال ذلك وضحك ضحكة مغتصبة ثم قال : «فلتهنأ بالخليفة هي وخطيبها الاول اذا كان لا يزال على قيد الحياة» .

فارتعدت فرائص عامر وقال : «هل تعرف شيئا عن عبد الرحمن ؟»

قال : «لا أعلم ما جرى له حتى الآن ، ولكنني أخبرك ان عناد سلمى سيجر الوبال عليها وعليه ، أتظن الخليفة اذا عرف علاقتها به يستبقيها او يستبقيه ؟ فلتهنأ ابنة حجر بما يجره عليها رفضها شمر» . قال ذلـــك وتحول مسرعا وهو يتعثر بأذياله لفرط سرعته ، حتى نزل وخرج فركب جواده وسار ، وعامر واقف وقد جمد الدم في عروقه وهو لا يدري ما يفعل .

وهم عامر بالنزول ، فاذا بفارس أقبل على الدير ، ورآه يدخل من

فوره على الرئيس ويخاطبه ، ثم رأى الرئيس يتحول اليه هـــو قائلا : «ابشر يا عامر ، ان وفد الخليفة قادم لحمل العروس ، فأخبرها لتتأهب»•

فهرول عامر حتى دخل الغرفة وهو لا يدري ما يقول لسلمى ، وكانت قد نهضت ولبست ثيابها وتأهبت للسفر •

فقال لها : «ألا تزالين يا سلمى على عزمك ؟» • قالت : «قد عزمت واتكلت على الله» •

قال لها : «ألا تراجعين نفسك ؟ ألا تذكرين ان في دار الخليفة اناسا يعرفونك ويعرفون علاقتك بعبد الرحمن ؟ أتظنين الخليفـــة اذا عرف حقيقة حالك يبقي عليك ؟»

قالت : «ان الذي يرى الموت امام عينيه ويسعى اليه باختياره لا يخاف العقبى • أتظنني أجهل ان شمر اللعين يترقب فرصة للايقاع بي وانه حالما يعلم بوجودي في دار الخليفة يطلعه على سري ؟• ولكن ••»

فقطع عامر كلامها قائلا : «وما قولك اذا كان قد عرف ذلك قبـــل خروجك من هذا الدير ؟»

قالت : «لا أبالي عرف ام لم يعرف ، وليفعل ما يشاء ، دعني الان من بواعث التردد فقد عزمت وتوكلت والسلام • هل سمعت عن وفد الخليفة ؟ »

قال : «علمت الساعة انهم قادمون لحملك ، فاذا رأوني هنا ولـــم أذهب معهم يرتابون في امرنا وأرى ان اخرج بحيلة • فاذا جاءوا فاذكري لهم اني ذهبت في حاجة وسأوافيكم الى دار الخليفة» • قال ذلك ثـم تنهد والتفت الى سلمى وقال : «انك ذاهبة الى خطر هو أشد مما خفناه على عبد الرحمن يوم خروجه لقتل يزيد ، فكيف ارضى بهذا الذهاب ؟• لا لا • لا أدعك تذهبين وحدك !»

قالت : «لقد قضي الامر يا عماه ، تعال ودعني على عجل ، واحفـظ

وصيتي لك في شأن عبد الرحمن» •

قالت ذلك وشرقت بدموعها . ولكنها حاولت الكظم وهي تتشاغل باصلاح خمارها • اما هو فلم يعد يتمالك عن البكاء لاعتقاده انه لن يرى سلمى بعد هذا الفراق . ولكنه لم يشأ ان يكدرها فقال لها : «سيري في حراسة الله وارفقي بنفسك ؛ واذا رأيت سبيلا للنجاة غير القتل فافعلي» •

قالت : «سأرى ما يكون» • وأكبت على يده لتقبلها فضمها الى صدره والدموع تتناثر من عينيه ، ثم قال : «حيي عني عبد الرحمن ؛ ولا أكلفك انفاذ خبرك الي فاني سأستطلع كل شيء بنفسي وأقف على مخبآت الاحوال في حينها ولكنني أوصيك بأن ترفقي بنفسك ما استطعت » •

قالت : «لا تخف يا عماه وأنت تعلم اني بنت حجر بن عدي وهذا يكفي » •

قالت ذلك وقد استرجعت قواها وأمسكت عواطفها •

وفيما هما في ذلك سمعا ضجيجا في باحة الدير فقال عامر : « ان الوفد قد وصل وسأخرج خلسة حتى لا ينتبه الي احد ، فاعتذري عني كما اوصيتك • أستودعك الله»• ثم تزمل بعباءته وخرج مستخفيا وانسل مسرعا فما لبث ان اختلط بالجمع ولم ينتبه له احد حتى خرج من الدير وقلبه يقطر دما !

وكان الوفد قد وصل الى الدير وفي مقدمته عبيد الله بن زياد ، وقد أعدوا هودجا مجللا بالاطلس • وتقدم ابن زياد توا الى الرئيس وطلب مقابلة عامر فنزل الرئيس بنفسه الى غرفة سلمى فاستقبلته بجأش ثابت، واعتذرت لغياب عامر وذكرت انه سيوافيهم الى دمشق • فعاد الرئيس بالخبر ، فلم يعبأ ابن زياد بذلك ولكنه طلب ان يقابل سلمى • فأخذه

الرئيس اليها فقابلته والنقاب على رأسها وأخبرته بغياب ابيها .
فقال : «هل انت مستعدة للذهاب الى الخليفة ؟»
قالت : «نعم» .

- ٨ -

سلمى في قصر يزيد

خرجوا بسلمى وأركبوها الهودج ، وسار الفرسان حولها بالرماح والحراب في موكب حافل حتى وصلوا الى باب المدينة . وكانت هي تنظر الى المدينة من خلال الستور فلما أطلت على بابها انبهرت بما رأته من الزحام وبما هناك من الابنية الرومانية الهائلة ولاسيما باب المدينة الكبير وأقواسه الضخمة . فدخل الموكب من القوس الوسطي في طريق طويل تحف به الاعمدة الرخامية من الجانبين ، وقرقعة حوافر الخيل على البلاط تحدث ضوضاء شديدة الهتها قليلا عن هواجسها ، ثم وقف الموكب امام باب كبير جانباه من الرخام المنقوش ، وعلى عتبته العليا رسم النسر الروماني والباب من خشب الأبنوس ، مصفح بالنحاس بعض التصفيح وعليه نقوش جميلة . وكانت تسمع عن أمثال هذا الرسم من عمها وتعرف ان النسر شارة الروم فاستغربت اقامة الخليفة في بيت من بيوت الروم .

ولم يكد يقف بها الهودج هناك حتى ترجل ابن زياد ودنا من الهودج وقال لها من وراء الستار : «اننا بباب الخليفة يا سيدتي» . فنزلت حتى دخلت من الباب ، وعلى جوانبه الحرس من جند الخليفة في أيديهم

الحراب . فمشت وابن زياد دليلها في باحة كبيرة مرصفة بالفسيفساء ، تتخللها مغارس الرياحين ، وأحواض الرخام تتدفق عن جوانبها المياه . فسارت في طرق الحديقة وابن زياد يتقدمها وهو يجر سيفه ووراءه معجبا بما ملكوه من ابنية الروم وآثار مجدهم ولسان حاله يقول : «اين ابنية الكوفة التي تعرفينها من هذه الابنية المزخرفة ؟»

وبعد قليل انتهت الى باب آخر اصغر من الباب الاول يصعدون اليه بدرجات قليلة من الرخام المصقول ، وتكتنفه عمد من الرخام فوقها قبة مغشاة بالذهب وعليها الرسوم بالالوان البديعة ، ومن بينها رسوم تشبه ما في كنائس النصارى ، فلم تستغرب ذلك لما علمته من ان هذا القصر بقي على ما كان عليه في عهد ولاة الروم . فدخل عبيد الله امامها تحت القبة فتبعته ، فأشرفت على باحة واسعة مكشوفة مسورة بالعمدان المزخرفة بنقوش بعضها من الذهب ، وعلى دوائرها مقاصير ، وأرض الباحة مرصفة كلها بالفسيفساء الدقيقة على أشكال تشبه رسوم الشجر والحيوانات وغيرها . وفي وسطها حوض من الرخام المجزع يتصاعد الماء من أنبوب ، في وسطه ما يشبه رأس الاسد ، وفي صدر الباحة باب مرتفع عليه ستار وأمامه الحجاب . فعلمت انه مدخل مجلس الخليفة . ورأت الى يمين الباب جماهير الناس وفيهم الشعراء والرواة وأصحاب الحاجات ممن يقفون بباب الخليفة لقضاء حوائجهم . وكانت الباحة مكشوفة من الوسط فقط ، يكتنفها رواق قائم على أعمدة مزخرفة ، وقد نقش بعضه بالحفر على أشكال الازهار والثمار والآدميين ، وزين بعضه برسوم ملونة ومذهبة . فبهرتها تلك المناظر لانها لم تكن رأت مثلها من قبل .

ولما أطل ابن زياد على تلك الباحة هم بعض الذين كانوا هناك من الشعراء وذوي الحاجات بالقدوم اليه لمخاطبته في شؤونهم ، فلما رأوا

سلمى معه تراجعوا وانزووا وراء الاعمدة .

وعطف هو نحو اليسار بين الاعمدة تتبعه سلمى حتى وصلا الى باب بديع النقش عليه ستر من الحرير المزركش بالذهب برسوم جميلة وفي جملتها كتابة باليونانية ، فازداد استغرابها لابقاء المسلمين على تلك الآثار الى ذلك الحين مع ما وصل اليه سلطانهم من السعة والنفوذ . ولو علمت معنى تلك الكتابة لكان استغرابها اعظم ، لانها كلمات تتألف منها عبارة الاستهلال بالصلاة عند النصارى وترجمتها «باسم الآب والابن والروح القدس» . والسبب في ذلك ان الستور وأمثالها من طراز الملك كانت قبل الاسلام تصنع في مصر وسكانها من النصارى وفيهم القبط والروم فكانوا يطرزونها بالرومية ، وأكثر ما يرسمونه عليها تلك الآية . وكان الروم في الشام وغيرها يبتاعون تلك الستور ونحوهـا من مصر فيعلقونها على الابواب والنوافذ للزينة والتبرك . فلما ظهر الاسلام وفتح المسلمون مصر والشام استعاروا تلك الزينة من الروم ولم يلتفتوا الى فحوى ما عليها من الكتابة ، وفي جملتهم الامويون في دمشق . وما زال ذلك دأبهم الى ايام عبد الملك بن مروان (من سنة ٦٥ هـ الى ٨٦ هـ) فكان اول من انتبه اليه ، والى ما كان يضرب على النقود وما كان يطرز على القراطيس ، وهي البرد التي تحمل في الاواني والثياب . وذلك انه بينما كان ذات يوم في مجلسه اذ مر به قرطاس فنظر الى طرازه فأمر ان يترجم الى العربية ، فترجموه له ، فأنكره وقال : «ما أغلظ هذا ! وكيف ان هذه الاواني تصنع في مصر وتحمل في الآفاق» . ثم أمر بالكتابة الى عبد العزيز بن مروان اخيه وعامله على مصر بابطال هذا الطراز ، وأن يأمر صناع القراطيس ان يطرزوها بكلمة «أشهد انه لا اله الا هو» . ففعلوا ، وما زال ذلك شأن الطراز من ذلك الحين . وكتب الى عمال الآفاق جميعا بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ،

ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منه بالضرب الموجع والحبس الطويل • وفعل مثل ذلك ايضا بالدنانير •

دخلت سلمى من ذلك الباب بعد ان ازاحوا الستار عنه ، فانتهت الى دهليز مفروش ببسط من الديباج وعلى جدرانه نقوش كثيرة حتى اقبلت على «دار النساء» • وهي غرف تكتنف باحة فيها بركة من الرخام المجزع • فقال لها ابن زياد : «انك في دار النساء يا سيدتي» • قال ذلك وتحول فاستقبلتها امرأة عجوز ومعها رجل عليه لباس الحجاب فاستغربت سلمى وجوده ، فقالت لها العجوز : انه (فتح) خصي مولانا امير المؤمنين وحاجبه (ويزيد اول من اتخذ الخصيان في الاسلام) • ومشت بها العجوز حتى دخلت غرفة زينوها وفرشوها بالابسطة والاطالس ، وفيها سرير مذهب لم تر مثله قبل ذلك ، وهناك تهيبت وشعرت بعظم الامر الذي عرضت نفسها له ، وأحست انها في قفص من حديد ، فتظاهرت بالتعب والعجوز ترحب بها ، وتطلب اليها ان تنزع خمارها وترتاح الى ان قالت : «وقد أمرني امير المؤمنين ان ادخلك الى الحمام» •

فرفعت سلمى الخمار عن رأسها فبان وجهها وتجلت محاسنها فانبهرت العجوز من جمالها وهيبتها وجعلت تمدحها وتطري حسنها التماسا لاستئناسها ، فأجابتها سلمى بما جعلها تزداد اعجابا بها وتهنئها بما نالته من التفات الخليفة ، وألحت عليها في دخول الحمام ، فقالت : «سأدخله بعد ان أستريح» •

قالت : «لقد أعددنا لك الثياب الفاخرة ، ولا ريب عندي في انك اذا لبستها سيزداد جمالك وتعلو منزلتك عند مولانا» •

فشكرتها ولكنها استمهلتها ريثما تستريح • وهي انما ارادت التخلص من الحمام لتخفي خنجرها في مكان امين لعلمها انها اذا دخلت الحمام فسترافقها العجوز اليه فتطلع على الخنجر فيفتضح امرها ،

فاعتذرت بانحراف صحتها وانها تخاف ان يضرها الحمام •

فسايرتها العجوز ولكنها رجعت فقالت : «واذا طلب الخليفة ان يراك فهل تقابلينه بهذه الثياب ؟»

قالت : «اذا شئت ان أبدل ثيابي فعلت واتركي الحمام الى الغد» •

فأطاعتها وأتتها بثوب من الحرير الناعم ، يجلله جلباب طويل وردي اللون فاحتالت في تبديل ثيابها من غير ان تشعر العجوز بخنجرها • ثم عكفت العجوز على تسريح شعرها وتزيينها ، فأصبحت سلمى بعد ذلك أشبه بالملائكة منها بالآدميين ، حتى ان العجوز عشقتها وعلق قلبها بها •

اما سلمى فقد كانت في اثناء ذلك غارقة في بحار الهواجس لا تدري ما تصنع لكثرة ما يتجاذبها من المشاغل وأهمها امر عبد الرحمن وهل هو مسجون ام قتل ام أطلق • ورأت في الحجرة نافذة بجانبها مقعد مبني من الرخام كالدكة تكسوه وسادة كبيرة ، فجلست على الوسادة وأطلت من النافذة فأشرفت على خلاء ضيق وراءه جدار عظيم يدل على فخامة ذلك البناء ، وسمعت جلبة تشبه التكبير فعلمت انها بقرب الجامع ، فعمدت الى مخاطبة العجوز لعلها تستطرق في حديثها الى خبر خطيبها فقالت لها: «ما هذا البناء يا خالة ؟»

قالت : «هذا هو الجامع ياسيدتي» •

قالت : «وهل بناه امير المؤمنين ام ابوه ؟»

قالت : «كلا يا حبيبتي فانه من بناء االروم مثل هذا القصر» •

قالت : «وهل كان عند الروم جوامع ؟»

قالت : «كلا ولكنه كان كنيسة باسم سيدنا يحيى ، يصلي فيهــــا النصارى ، وكان هذا القصر الذي نحن فيه لرجال الحكومة من الروم ، فلما فتح المسلمون الشام اتخذوه دارا للامارة واقتسموا الكنيسة بينهم وبين النصارى فجعلوا نصفها جامعا والنصف الاخر كنيسة» •

قالت : «وهل بين هذه الدار والجامع اتصال؟»

قالت : «نعم ان بينهما ممرا يمضي فيه الخليفة كل صباح للصلاة ويعود منه ، وقد ذهب في هذا الصباح ولم يعد بعد» .

وبينما هي تخاطبها اذ سمعت الضوضاء تتزايد في الجامع فقالت سلمى : «وما سبب هذه الضوضاء ؟»

قالت : «ان المسلمين يلعنون أبا تراب» .

قالت : «ومن هو ابو تراب ؟»

قالت : «هو علي بن ابي طالب ، فهم كلما صلوا ختموا الصلاة بلعنه» .

فتذكرت سلمى مصيبتها ، وان أباها انما مات في هذا السبيل ، ولم تكن لتعبأ بهذا الحديث لولا رغبتها في التطرق منه الى حديث عبد الرحمن فقالت : «ان هذا القصر بديع لا اظن المسلمين بنوا قصرا مثله الى اليوم ، ولكنني رأيت فيه الحرس وقوفا على الابواب ومعهم السيوف والحراب ، مع علمي ان الخلفاء في الحجاز والعراق لم يكونوا يتخذون الحرس » .

قالت : «صدقت يا بنية ، وأول من اتخذ الحرس هو معاوية ابو امير المؤمنين بعد حادثة البرك بن عبد الله التميمي الذي كاد يقتله لو لم يقع السيف في ظهره وينجو باذن الله ، فاتخذ معاوية الحراس منذ ذلك الحين ليسهروا على حراسته ليلا ونهارا ، كما امر بقيام الشرطة على رأسه اذا سجد ، وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء ، ثم فعل ابنه امير المؤمنين مثل ذلك ، والسبب في كل ذلك يا حبيبتي ان قلوب المسلمين تغيرت عما كانت عليه من قبل وداخلها الغل ، فأصبح الاخ يحقد على اخيه ، وغدا قتل الخلفاء سنة عند بعض الناس حتى ان مولانا الخليفة كان في خطر القتل منذ يومين ، اذ كمن له رجل في مكان صيده ، ولو لم ينبهه بعض خاصته الى ذلك لذهبت حياته على أهون سبيل ولكن الله

نجاه ودارت الدائرة على الباغي» •

فلما سمعت سلمى ذلك اختلج قلبها وارتعدت فرائصها وخافت ان تستزيدها بيانا فتسمع خبر قتل حبيبها • ولكنها لم تكن تستطيع كبح شوقها الى الاستطلاع فقالت : «وماذا فعلوا بالرجل ؟»

قالت : «قادوه مغلولا وحبسوه ، وسمعت في هذا الصباح انهم سيوقفونه بين يدي الخليفة ويسألونه عن اصله وسبب مجيئه وبعد ذلك يقتلونه • ألا يستحق القتل ؟»

فسكتت سلمى وزاد اضطرابها ، وخافت ان يبدو ذلك على وجهها فتظاهرت بصداع دهمها وحنت رأسها على ذراعها فوق النافذة وأخفت وجهها • فقالت لها العجوز : «ما بالك يا سيدتي لا بأس عليك ؟»

قالت : «اني اشعر بصداع أليم في رأسي لا اكاد أتحمله» •

فمدت العجوز يدها وأخرجت من جيبها خرزة من الجزع معلقة بخيط قالت لها : «خذي هذه التعويذة علقيها بين ضفائرك فانها تشفيك باذن الله ، وقد جربتها بنفسي مرارا فكان الصداع يذهب مني حالا» •

فقالت : «ولكن صداعي شديد يا خالتي» •

قالت : «لا بأس عليك خذي هذه التعويذة» •

قالت ذلك ولم تنتظر جوابها بل وقفت وربطت الخرزة بضفيرة من ضفائرها وهي تقول : «واذا لم يزل بعد فانه يزول عما قريب بقدوم الخليفة ، وأظنه سيسأل عنك متى عاد من الصلاة ، ولا ريب عندي في انك ستكونين عنده في المنزلة الاولى بين سائر نسائه» •

فاقشعر بدنها وتحققت قرب الساعة العظمى وقالت في نفسها : «لقد آن الاوان فلا بد من الدهاء والحكمة ، والا ذهب السعي سدى» • وطلبت الى الله ان يلهمها الصبر ويثبت جأشها •

وبينما سلمى تفكر في ذلك ، اذ سمعت الضوضاء قد اشتدت

وأخذت تقترب ، ثم قالت لها العجوز : «ان الخليفة قادم ومن عادته اذا عاد من الصلاة ان يمر بهذه الدار قبل دخوله المجلس ، ولا بد من مجيئه اليك لانه اوصاني بالعناية بك ، ولحظت انه ينتظر مجيئك بفارغ الصبر » •

فاستعاذت سلمى في سرها بالله ، ولبثت صامتة وقلبها يخفق ، فحملت العجوز ذلك محمل الحياء فقالت وهي تضحك : «يا للعجب من البنات كيف يظهرن التمنع وقلوبهن تطفح سرورا عند سماع صوت الزوج • وما كل الازواج مثل الخليفة يا مليحة فانه امير المؤمنين القابض على رقاب المسلمين» •

فظلت سلمى صامتة وهي تكظم ما في نفسها وتتجلد ، وبعد هنيهة أقبل فتح الخصي وقال : «ان الخليفة قادم يا خالة» • وما لبثت ان سمعت وقع خطواته قرب حجرتها ، فلم تعد تتمالك من الاضطراب ، وأرسلت النقاب على وجهها فابتدرتها العجوز ورفعت النقاب عنها وقالت: «أتتحجبين عن امير المؤمنين وهو زوجك ؟» • وما أتمت كلامها حتى دخل يزيد وعليه رداء ازرق ، وعلى رأسه عمامة خضراء وبيده درة (وهي قده من جلد ثخين تشبه الكرباج) • فلما أطل على الغرفة استقبلته العجوز فقبلت يده ، وأمسكت سلمى واستنهضتها لملاقاة الخليفة • فوقفت وتظاهرت بالحياء فناداها يزيد قائلا : «اهلا بعروسنا» • ومد يده ورفع الغطاء عن وجهها وقلبه يكاد يطفح سرورا لحصوله عليها لانه لم يشاهد في حياته مثل ما في وجهها من الجمال والهيبة ، وقد زاده ذلك التمنع رغبة فيها وشوقا اليها •

اما هي فتجلدت ونظرت الى يزيد كأنها تزن قواه لترى ما يكون من امرها معه اذا همت بقتله ، فرأت جسمه لا يدل على بطش شديد • وكان طويل القامة آدم اللون ، جعد الشعر ، أحور العينين بوجهه آثار الجدري،

وله لحية حسنة خفيفة فلم يهمها منظره ولكنها أحبت مطاولته فبالغت في اظهار التوجع من الصداع ولم تجب • فالتفت يزيد الى العجوز كأنه يستفهمها فابتدرته قائلة : «ان عروس مولانا تشكو من صداع أظنه يزول قريبا» •

فقال : «لا بأس عليها ، وأرى ان تنتقلي بها الى المقصورة في اعلى هذا القصر فتكون على مقربة من مجلسي ، فاذا اردت ان أتفقدها في اثناء النهار سهل ذلك ، او فلتقم هناك كي تنام وترتاح حتى نلتقي في المساء» • قال ذلك وتحول حتى خرج من دار النساء الى مجلسه •

واغتبطت سلمى بهذا التأجيل ، لعلها تندبر حيلة تتم بها ما تريده وصعدت العجوز بسلمى على سلم من الرخام بجانب تلك الدار حتى اتت الطبقة العليا ، ومشت في ممر وسلمى تتبعها حتى وصلت الى غرفة مفروشة بأحسن الاثاث ، وفيها الطنافس والوسائد والمقاعد ، ولها نافذة تطل على الحديقة • فتحققت ان يزيد سيوافيها الى هناك واذا همت بقتله فانما تقتله في تلك الغرفة فكيف تنجو بنفسها بعد ذلك • فأخذت تبحث وتفكر فقالت للعجوز : «لعل هذه الغرفة منفرده هنا ؟» • قالت : «ليست منفردة ولكنها مقصورة خاصة بالخليفة يصعد اليها من باب خاص » •

قالت : «هل ينام فيها احيانا ؟»

قالت : «ربما نام فيها احيانا ، ولكنه يجلس فيها لغرض سري لا ارى مانعا من البوح به لك • وذلك ان أباه معاوية كان لفرط دهائه وعلو همته قد اتخذ هذه المقصورة مخبأ له يطل منه على المجلس من كوة صغيرة فيرى اهل المجلس تحته وهم لا يرونه • فعل ذلك حتى لا تخفى عليه خافية » •

- ٩ -

محاكمة عبد الرحمن

استبشرت سلمى بتلك المقصورة ، عسى ان ترى منها ما سيدور بين عبد الرحمن والخليفة اذا جاءوا به للتحقيق معه فقالت : «وهل يجوز ان أطل من تلك المقصورة لأشاهد مجلس الخليفة فاني لم أر مجلسه قط» .

قالت : «ان الخليفة لا يأذن في ذلك لاحد ، ولكنني لا أظنه يمنعه عنك على اني أدلك على الكوة فتطلين منها على المجلس ، واذا جاء الخليفة لا تذكري له انك فعلت ذلك» .

قالت : «بورك فيك يا خالة ، انك والله لطيفة ومحبة ، ولا غرو اذا ارتفعت منزلتك عند الخليفة» .

فانشرح صدر العجوز من هذا الاطناب ، وزادت رغبة في خدمتها .
فقالت لها سلمى : «وأين الباب السري الذي يخرج الخليفة منه ؟»

فأمسكتها بيدها ومشت بها عدة خطوات ، ثم دارت من وراء الغرفة فاذا هناك باب صغير فتحته وأرتها سلما ضيقا وقالت : «هذا هو باب السر فاكتمي ذلك» .

قالت : «والى اين يستطرق ؟»

قالت : «انه ينتهي الى ممر طويل آخر في الحديقة الخارجية يفتح من الداخل ولا يفتح من الخارج الا بمفتاح خاص» .

فتفرست سلمى في المكان ، حتى تصورت المدخل والمخرج ، ثم عادت الى استطلاع امر عبد الرحمن ، ولكنها تظاهرت بعدم الاهتمام في بادىء الرأي وعادت الى المقصورة وجلست الى النافذة فأطلت على الحديقة والعجوز الى جانبها تسليها بالاحاديث . وما لبثت ان تظاهرت

بالملل وقالت للعجوز : «دعينا نطل من الكوة لنرى مجلس الخليفة» •

فمشت العجوز امامها حتى خرجت من الغرفة وتحولت بضع خطوات على الطنافس المفروشة هناك فوصلت الى وسادة صغيرة أزاحتها فانكشفت كوة صغيرة تطل على المجلس ، فاذا به قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد الملون، وعلى دائرها مما يلي الجدران وسائد جلس الامراء عليها ، بعضهم على وسائد مثناة وبعضهم على وسائد غير مثناة ، أما يزيد فقد كان جالسا في صدر القاعة على دكة مرتفعة من خشب العرر صب فيه الذهب ، وعلى رأسه اثنان بأيديهما الجراب ، وفي يده قضيب الخلافة وعلى كتفيه برد خاص بالخلفاء ، ورأت على نوافذ القاعة ستورا مـن الاطلس المزركش بالكتابة اليونانية التي ذكرناها •

فتأملت في هيئة ذلك المجلس فلم تجد فيه ما كانت تتوقعه من الهيبة والوقار اذ كان اهله يخاطب بعضهم بعضا حتـى علت ضوضاؤهم • وسمعت بعضهم يقهقه ويزيد لا يعبأ بقهقهتهم ، وكان موليا وجهه الى ابن زياد يخاطبه سرا وهو يضحك •

ثم صاح بغتة قائلا : «يا غلام» • فدخل رجل كان واقفا بالباب ووقف متأدبا • فقال يزيد : «قل لمن في بابنا من الشعراء اننا لن نقابل احدا منهم اليوم» • وقبل ان ينطلق الغلام استوقفه وقال : «ثم اننا نريد ان نرى ذلك الغلام الذي هم بقتلنا • الي به» •

فخرج الغلام ثم عاد ووراءه عبد الرحمن مكبلا بالحديد • فلما رأته سلمى ارتعشت مفاصلها لما خافت عليه من فتك يزيد •

* * *

جيء بعبد الرحمن الى مجلس الخليفة ، فلما توسط القاعة ، التفت

يمنة ويسرة وهو يتفرس في وجوه الحاضرين ، ولا يبالي بما يتهدده من الخطر . وكانت سلمى ترقبه من خلال الكوة ، فأعجبت برباطة جأشه ولبثت تنتظر ما يكون من امره ، وقلبها يخفق اشفاقا مما قد يصيبه من الاذى .

فناداه يزيد قائلا : «ممن انت يا رجل ؟»

فقال عبد الرحمن : «من هذه الساحة» .

فابتدره عبيد الله بن زياد قائلا : «أيسألك امير المؤمنين عن نسبك فتجيبه بهذا الجواب ؟»

قال : «هو الذي يسألني وهذا جوابي !»

قال عبيد الله : «يظهر من وقاحتك انك لا تدري من هو الذي يخاطبك» .

قال : «اعرفه انه يزيد بن معاوية !»

قال : «قل امير المؤمنين !»

فقطع يزيد كلام ابن زياد وقال : «دعه يا عبيد الله» . ثم التفت الى عبد الرحمن وقال : «وما الذي حملك على هذه الخيانة ؟»

قال : «ليست خيانة ، وانما هي عمل صالح حملني عليه يقيني مما وراءه من خير للاسلام والمسلمين» .

فشعر يزيد بأن الرجل ينوي التصريح بأمور مهينة ، ورأى من الدهاء اخذه بالحيلة على غرار ما كان ابوه معاوية يصنع في مثل هذه الحال . ومعاوية هو القائل : «لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت» فلما قيل له : «وكيف ذلك ؟» . قال : «اذا هم شدوا أرخيت ، واذا هم ارخوا شددت» . وكثيرا ما كان معاوية يتحمل من أتباع علي كلاما غنيظا ويصرفهم راضيا ، وما ذلك الا من كثرة دهائه .

ولم يكن يزيد مثل ابيه ، ولكنه اراد ان يتشبه به فقال لعبد الرحمن:

«ولكن ما يمنعك ان تقول من انت وما الذي جاء بك الى هذه الديار؟»

قال عبد الرحمن : «انك تسألني سؤالا لا دخل له فـي عقابك او ثوابك ، وانما يكفيك ان تسمع كلامي وتأخذني باقراري وأنا اقول انني جئت لقتلك» •

فضحك يزيد والتفت الى ابن زياد وخاطبه خطابا لم يفهمه احد • ثم التفت الى عبد الرحمن وقال له : «يظهر انك مغرور ، ونحن لا نرضى الا ان نلتمس لك عذرا فقد يكون احد أغواك • ويكفي للصفح عنك ان تلعن عليا» •

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نسي انه مقيد بين يدي الخليفة ، فالتفت اليه وقال : «انك تطلب امرا مستحيلا وما علي ممن يجوز لعنه» •

فقال ابن زياد : «اقبل النصيحة وأطع امير المؤمنين لئلا يصيبك ما اصاب أمثالك ممن ساقهم عنادهم الى القتل مثل حجر بن عدي و•••»

فنظر عبد الرحمن الى ابن زياد والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال : «كأني بك يا ابن سمية تقتفي اثر ما فعله ابوك بحجر ، وقد سعى في قتله زورا ، قتله لانه لم يلعن ابن عم الرسول (صلعم) • فاذا رأيت ان ترتكب انت ايضا مثل ذلك فاقتلني ولا تخوفني • فان عليا أولى بالمدح من سواه » •

فلما قال عبد الرحمن ذلك ضج المجلس ، وعجب يزيد والحاضرون من جرأة ذلك الاسير المقيد •

اما سلمى فقد كاد يضيع رشدها من عظم التأثر وهـي تتقلب بين الاعجاب بشهامة ابن عمها وبين الخوف على حياته ، الى ان سمعت يزيد يقول له : «قد أمهلناك يوما آخر فاذا لم ترجع عن غرورك أذقناك الموت• خذوه الى السجن» •

فدخل الحرس ليأخذوه فقال : «لا تؤجل عملا الى الغد فاني انا اليوم

مثلي بالامس وبالغد ، لا أحيد عن الحق ولو قطعتموني اربا ، اربا !»

وكانت العجوز جالسة بجانب سلمى تسمع ما دار في المجلس ، فاما اخرجوا عبد الرحمن قالت لسلمى : «أرأيت مثل هذه الجرأة ؟ ولكنها لا تفيده شيئا ، وغدا يقتلونه» •

فلم تستطع سلمى صبرا على سماع ذلك الكلام ، ولكنها قالت في سرها : «اذا بقيت يا يزيد حيا الى الغد فاقتل عبد الرحمن» • وعادت الى الغرفة وقد ظهر عليها الاضطراب ولكنها عادت الى التظاهر بالتألم من الصداع ، فأخذت العجوز تهون امره عليها ، وتحاول الترفيه عنها ، ثم قالت : «ألم تفدك التعويذة يا حبيبتي ؟ انها لم تخني الا اليوم !»

فلم تجبها سلمى ولكنها اخرجت منديلا من جيبها وعصبت به رأسها وهي تتظاهر بشدة الالم • فقالت لها العجوز : «اذا كنت تشكين من الصداع الشديد فعليك بالفراش توسدي فيه وارتاحي» •

فأطاعتها واتثنت الى فراش من الحرير الملون وعليه غطاء من الاطلس المزركش بالذهب كانت قد أعدته العجوز هناك بأمر يزيد ، فتوسدته والتحفت الغطاء الى رأسها ولبثت لا تبدي حراكا حتى ظنتها العجوز قد نامت • وهي انما سكتت لانشغال ذهنها وقلقها وما تخافه على عبد الرحمن وعلى نفسها من الخطر •

وفيما هي راقدة سمعت خطوات مفردة على السلم ، فعلمت ان يزيد صاعد على السلم ليتفقدها ويسأل عن صحتها اذ لا يجرؤ على الصعود الى تلك المقصورة سواه • فاستعاذت بالله ولكنها رأت ان تتظاهر بالرقاد لأن الليل لم يدن بعد وهي انما تريد قتله ليلا والناس نيام لتتمكن من الفرار •

وبعد هنيهة وصل يزيد الى باب المقصورة ، فأسرعت العجوز اليه واستقبلته لدى الباب وهي تشير له ان يمشي الهويناء ولا يتكلم لان

عروسه نائمة •

فخفف الوطء واستفهم عن سبب نومها فقالت : «ان الصداع اشتد عليها فعصبت رأسها وتوسدت ويظهر انها نامت ولكنها ستفيق بعد قليل ولا أثر للالم في رأسها والنوم أنجع دواء للصداع» •

فمشى رويدا رويدا حتى أقبل على الفراش ودنا من رأسها وكان مغطى وهي ساكنة وعيناها مغمضتان وقد أشرق محياها وزاده الدفء اشراقا ، فلم يتمالك يزيد عند رؤيتها عن الاعجاب بذلك الجمال الجاذب وحدثته نفسه بأن يوقظها ويجلس الى جانبها • ولكن العجوز اومأت اليه بأن يتركها لتنام • وأمسكته ومشت به الى جانب النافذة وقالت له همسا : «لا تستعجل يا مولاي ، ان العروس عروسك تتمتع بها متى شئت • دعها لتنام الان وتستريح فاذا جاء الليل كانت كما تشاء» •

فقال : «ولكنني لا أريد منها الا قبلة» •

قالت : «لم يكن ثمة بأس من ذلك لولا مخافة استيقاظها» •

فقال لها : «هل ادخلتها الحمام ؟»

قالت : «نعم يا سيدي كن في راحة من هذا القبيل واذهب الى مجلسك » •

فقال لها : «أعدي لنا ما نحتاج اليه من الشراب والطعام لنقضي الليلة في هذه المقصورة» •

قالت : «سمعا وطاعة» • وسارت في اثره •

فأدركت سلمى ذهابهما ففتحت عينيها ونظرت الى جوانب الغرفة فلم تجد احدا • وكانت في اثناء رقادها تفكر في طريقة الاحتيال لقتل يزيد• فلما علمت بعزمه على المبيت في تلك المقصورة ، وسمعت استفهامه عن دخولها الحمام اخرجت الخنجر من جُيبها ودسته تحت الفراش بحيث تصل يدها اليه متى شاءت ثم نهضت ورأسها معصوب وقد تعاظم قلقها على

عبد الرحمن .

ومشت الى الكوة المطلة على مجلس الخليفة وأطلت منها عليه ، فلم تر يزيد هناك ، ثم ما لبث ان دخل ومعه رجل لم يقع نظرها عليه حتى ارتعش جسمها وارتعدت فرائصها ، اذ كان شمر بن ذي الجوشن . فاستعاذت بالله من وشايته ولكنها اصبحت لا تخاف شيئا في سبيل الانتقام لابيها وخطيبها .

ورأت يزيد يرحب بشمر ويدعوه الى الجلوس بجانبه ، فلم يجرؤ ان يجلس على الوسادة المثناة ولكنه تربع على البساط بين يدي يزيد .

فقال له يزيد : «لماذا لا تدنو من مجلسنا وأنت اول من نبهنا الى الخطر الذي نجانا الله منه بالامس ؟»

قال : «ان صنيعة مولانا لم يفعل الا بعض الواجب عليه ولا فضل له فيه . وقد بايعنا امير المؤمنين على الطاعة وان دماءنا وأرواحنا وأموالنا فداء له» .

فضحك يزيد ومشط لحيته بيساره والدرة في يمينه وقال له : «بورك فيك يا شمر ، انك ابيض الوجه ابيض الخصال . وسوف تنال ما تستحقه» .

فقبل شمر الارض وقال : «ارجو ان ينال ذلك الخائن ايضا ما يستحقه» .

قال : «انه سينال جزاءه بعد ان نرى ما في اعترافه فلعل له شركاء اذا أطلعنا على مخبآتهم أمنا شرهم» .

قال : «ألم يسأله امير المؤمنين عن نسبه ؟»

قال : «سألناه فلم يجب فأمهلناه الى الغد» .

فوقف شمر والسرور باد على وجهه وقال : «اذا أمرني مولاي اخبرته بنسبه ، ولا اظنه بعد ذلك الا آمرا بقتله في هذه الساعة» .

فلما سمعت سلمى كلام شمر ، اهتزت كل جوارحها ولم تعد تستطيع الوقوف من شدة الاضطراب ، ولعنت ذلك الرجل وساعة قدومه ، ولكنها تجلدت لترى ما يكون فاذا بيزيد يقول : «من هو ؟ قل» •

قال : «ألا تعرف حجرا بن عدي ؟»

قال : «أعرفه بالسماع» •

قال : «هذا ابن اخيه ، ويزعم هذا الغادر انه سينتقم لعمه من امير المؤمنين » •

فهب يزيد من مجلسه وصاح قائلا : «أصحيح ما تقوله يا شمر ؟»

قال : «اني لا اقول غير الصدق ، واذا حضر الان فقأت حصرما في عينيه » •

فضج المجلس وصاح يزيد : «ايتوني به !»

وما لبثوا ان جاءوا بعبد الرحمن وعليه الاغلال والقيود فوقف بين يدي يزيد لا يبالي • فنظر يزيد الى شمر وأومأ اليه ان يسأله ، فالتفت شمر الى عبد الرحمن وقال له : «لقد سألك امير المؤمنين عن نسبك فلماذا لم تجب ؟»

فنظر عبد الرحمن الى شمر وحملق فيه وهو لا يعبأ بما يتهدده من الخطر في ذلك الوقت وقال : «لم أخف نسبي خوفا على حياتي ، ولا ارى في نسبي الا ما يدعو الى الافتخار» •

قال شمر : «قل اذن من انت ؟»

فرفع عبد الرحمن صوته وقال : «اني من كندة ، واسمي عبد الرحمن، وعمي حجر بن عدي الذي قتلتموه ظلما وعدوانا» •

فتعجب يزيد من جرأته وقال : «أتقول ذلك ولا تخاف ؟»

قال : «مم اخاف وقد اقررت بعزمي جهارا ؟!»

وكان ابن زياد جالسا بجانب يزيد يسمع ما يدور بينهما ، فلما سمع

قوله اراد مطاولته فقال : «انك مصاب في عقلك فاقلع عما انت فيه ، فان حلم امير المؤمنين لا يضيق عن وقاحتك • فاستغفر لذنبك وارجع عن غيك » •

قال : «مه يا ابن زياد ، لا تتوسط في استبقائي • ولا تذكروا حلمكم فما لي حاجة اليه» •

قال يزيد والغضب ظاهر في وجهه : «قد كنا أجلنا قتلك الى الغد لعلك تتوب وتندم على وقاحتك ، فاذا انت مستعجل أجلك • فاعلم انك مقتول قبل ان تطلع شمس الغد • خذوه الى السجن وأروني رأسه في الصباح » •

ولما هموا بجره الى السجن قال شمر : «فليأذن لي مولاي ان اقتله بيدي » •

قال : «اقتله وأتني برأسه غدا الا اذا رجع عن غيه واستغفر ولعن أبا تراب» •

فلما سمع عبد الرحمن ذلك جذب يده ممن كان ممسكا به ، وحول وجهه الى يزيد وقال : «اقتلوني الان عسى ان القى عليا وحجرا على عجل • واذا كان لا بد من تأجيل قتلي فلا ارضى بالموت قبل ان أؤدي شهادتي على رؤوس الملأ • فاعلموا يا بني أمية انكم توليتم هذه الخلافة بغير الحق ، وأخرجتموها من اهل بيت الرسول بالحيلة ، وحاربتم من هو أحق بها من سائر المسلمين ، ولم تفوزوا بها من دونه الا لرغبتكم في الدنيا ورغبته في الآخرة ، ولسوف تلقون عاقبة ما جنته أيديكم» •

فانتهره ابن زياد قائلا : «أتقول ذلك جهارا يا خائن ؟»

فالتفت عبد الرحمن اليه وصعد الدم الى رأسه واشتد غضبه وتذكر ما افتراه زياد والده على عمه حجر حتى تمكن من قتله فقال : «لا تذكر الخيانة فما هي الا من شأنك وشأن ابيك من قبلك ؛ وليس في هذا

المجلس احد لا يعرف أباك زيادا وأمه سمية ، وكلهم يعرفون لماذا سموه ابن ابيه • اذكر يا عبيد الله شهادة ابي مريم خمار المدينة ، ألم يقل : (ان جدتك سمية كانت بغيا من بغايا المدينة ؟) هل وصلت انت وأبوك الى هذا المجلس الا بفضل بغائها ؟• وما في هذا الجمع من يجهل ان معاوية لم يستلحق زيادا بنسبه ولم يرض به اخا لأبيه الا لاستخدامه في ايذاء اهل البيت • فاذا رضيت بهذا الاستلحاق فانما هو شهادة على قذارة اصلك • وان لم ترضه فأخبرني ما هو نسبك ؟ آتزعم اني خائن؟ وهل الخائن الا من عرف الحق وانحرف عنه طمعا في الدنيا كما فعل ابوك وأمثاله ، وكما فعلت انت وأمثالك ؟ فلا غرو اذا استغربت المجاهرة باتصاري للحق ، وهي شهادة حق اموت في سبيلها واذا مت فان عظامي تنادي بها من أعماق القبر» •

فضج الناس ، وتشوش المجلس ، والكل معجبون بتلك الجرأة • ثم تقدم شمر الى يزيد وهو يقول : «الى متى يصبر امير المؤمنين على هذه الوقاحة • مرني فأقطع رأسه في هذه الساعة !»

فصاح فيه عبد الرحمن : «اقتل • جرد سيفك • انكم ما قتلتم من قتلتموه من أنصار الحق الا بمثل هذا • تتكاتفون على الرجل عشرات ومئات • اقتل قتلك الله» • ثم التفت الى يزيد وقال : «أتظنون قتل رجل مثلي يؤيد سلطانكم ؟» • وأشار الى عمامته وقال : «ان دون هذه العمامة ألوفا من الرجال الصناديد سوف يذيقونكم مرارة ما جنته أيديكم ، ان سلطانكم يا ابن معاوية لم يؤيد الا بالحيلة • أطمعتم الناس بالدنيا فنصروكم ، واستلحقتم زيادا بنسبكم ، وأطمعتم ابن العاص بمصر فنصركم ولولاه ما بقيتم بعد وقعة صفين يوما واحدا • ولولا فعلته بالاشعري في مجلس التحكيم لم تقم لكم قائمة • ولكن دهاء معاوية غلب دهاءه فاستخدمه في مصلحته فأطعمه مصر وأكل هو الشام وغيرها •

ولكنها لقمة لن تهضموها وسوف ترون ونرى ؟»

وقبل ان يتم كلامه قال يزيد : «خذوه الى السجن وأتوني برأسه في الغد باكرا» . قال ذلك وهو يضحك مستخفا . فساقوه ، فمشى وهو يرسف في قيوده بخطوات ثابتة . ولا تسل عما اصاب سلمى فقد اخذها الاضطراب والجزع واغرورقت عيناها رغما منها . ولكنها فرحت بما ابداه عبد الرحمن من الانفة والجرأة . فلما خرج من المجلس انخلع قلبها ، وتعاظم قلقها . عادت الى ثباتها وعللت نفسها بقتل يزيد في ذلك المساء قبل ان يقتل خطيبها وكانت الى تلك الساعة تهيب جريمة القتل لغلبة غريزة النساء عليها ، فلما سمعت ما دار بينهم وبين عبد الرحمن هان عليها كل امر ، واشتد بها الهياج .

وبعد هنيهة دخلت العجوز ووراءها جماعة يحملون آنية الطعام والشراب ، فمدوا السماط ووضعوا فوقه الآنية من الذهب والفضة ، وفيها الدجاج المشوي وأنواع اللحوم والحلوى والفاكهة ، وصفت الاقداح . فتظاهرت سلمى بأنها استيقظت لتوها ، ثم رفعت الغطاء عن رأسها فوقع نظرها على ذلك السماط وعليه انواع الاشربة وألوان الطعام . ورأت بجانب السماط طنبورا فتذكرت ما كانت تسمعه عن اشتغال يزيد بشرب الخمر وضرب الطنابير .

اما العجوز فلما رأتها ترفع الغطاء عن رأسها تفرست فيها فرأت وجهها قد زاد احمرارا وتوردت وجنتاها ، وازدادت هيبة وجمالاً فأسرعت اليها وقبلتها بين عينيها وقالت : «هنيئا لامير المؤمنين متى فاز بمثل هذه القبلة ، وهنيئا لك ما ستحوزينه من المكانة الرفيعة عنده» .

فظلت سلمى ساكتة ولم تبد حراكا ، فظنتها لا تزال تشكو الصداع فقالت لها : «كيف تشعرين الآن يا بنية ؟»

قالت : «اني احسبني احسن قليلا» .

قالت : «وسيزول بقية الالم متى جلس الخليفة الى جانبك الليلة وسمعت ضربه على هذا الطنبور ، فاننا قد أعددنا لك كل شيء بأمره» •

ولم تتم كلامها حتى فاحت رائحة البخور ، وسمعت وقع أقدام خفيفة خارج الغرفة ، فتحركت في فراشها • فقالت لها العجوز: «لا تجزعي يا حبيبتي ان الخليفة لم يأت بعد ، وأما الذي تسمعين وقع أقدامه فهو رجل يحمل البخور سيضع مبخرته هنا ويعود» • فأرخت سلمى خمارها على رأسها ونظرت من خلاله الى القادم فاذا هو رجل عليه قباء من الاطلس الاحمر وعلى كتفه كساء اصفر مزركش ، وعلى رأسه شاش ، وعلى كتفه الاخرى مخلاة من الحرير الاخضر ملآنة بالعود ، وفي يده مبخرة من الذهب الاحمر فيها نار يلقي فيها من العود فيتصاعد منها الدخان حتى ملأ المكان برائحة العود • ثم وضع المبخرة بباب المقصورة وكر راجعا بينما اشتغلت العجوز بوضع الوسائد حول تلك المائدة ، وأتت بقوائم من الذهب مغروس في رؤوسها وجوانبها شموع فيها الابيض والاحمر والاخضر ، وأوقفتها وسط السماط ولم تشعلها لان الليل لم يقبل بعد •

كل ذلك وسلمى مستكنة في الفراش غارقة في الافكار والهواجس، وهي ترجو ألا يحضر مجلسهم تلك الليلة احد غير يزيد •

ولما غابت الشمس همت العجوز بالشموع فأنارتها فأضاءت الغرفة ولبثت في انتظار يزيد • وكانت العجوز تتوقع قدومه قبل الغروب ، فلما غابت الشمس ولم يأت استبطأته فقالت لسلمى : «يظهر ان مولانا الخليفة قد شغل عنا ، وأنا لا اظن في الدنيا شيئا يشغله عن هذا المجلس» • فأوجست سلمى خيفة من سبب تأخره وحسبت لذلك الف حساب •

- ١٠ -

يزيد .. وسلمى

ثم سمعنا وقع أقدام يزيد على السلم ، فقالت العجوز : «هوذا آت والحمد لله» . فلما سمعت سلمى ذكره اختلج قلبها في صدرها وتحققت دنو الخطر العظيم فتجلدت وجلست في الفراش . ففالت لها العجوز : «انهضي من الفراش الان ، فليس هذا وقته واجلسي الى المائدة» . ولم نكد سلمى تهم بالجواب حتى دخل يزيد وقد بدل بثيابه ثيابا خفيفة . وعلى رأسه عمامة صغيرة . فلما أقبل على المائدة رأى سلمى لا تزال في الفراش فقال لها وهو يبتسم : «لعلك لا تزالين مصدوعة ؟»

فلما سمعت كلامه تفرست في وجهه فاذا هـو قد تغير وعـــلاه الاضطراب ، فانزعجت وحدثتها نفسها انه يضمر شيئا ، وخافت ان يكون قد اطلع على سرها لعلمها بما في نفس شمر بن ذي الجوشن عليها ولم تر بدا من التجلد والتكلف . وكانت كبيرة العقل قوية الارادة فتجاهلت ما يبدو على يزيد من القلق وجلست كأنها تتأهب لمسامرته .

اما هو فحالما نظر اليها اشرق وجهه وزال انقباضه وبدا الارتياح على وجهه وكانت العجوز واقفة بين يديه فقال لها مازحا : «تعالي يا عجوز النحس واملأي القدح من هذا الشراب واسقي سلمى فانه شراب لذيذ» .

فملأت العجوز قدحا من شراب احمر وقالت لها : «اشربي انه مصنوع من عصير التفاح فلا تخافي» .

فتحيرت سلمى اذ لم يكن لها عهد بالشراب ، ولـــم تكن تريد ان تذوقه ، ولكنها تناولت الكأس ولبثت تنتظر ما يفعله يزيد فاذا هو قد صب قدحا آخر من زجاجة اخرى فيها شراب اصفر وقال : «وهذا من عصير البلح» . وشرب فتظاهرت هي بالشرب وصبت الكأس في ثيابها .

فلم يستقر الشراب في جوف يزيد حتى غلب عليه المرح ودنا من فراش سلمى والطنبور بيده يضرب عليه ويطرب ، والعجوز تقطع اللحوم وتناولهما وتصب لهما الاشربة وسلمى تحبب اليه الشراب عسى ان يسكر فيهون عليها الفتك به ٠

وكان شمر حينما علم بعزم الخليفة على الاقتران بسلمى قد اعتزم الوشاية بها انتقاما لما ناله من جفائها ٠ فلما رأى موكبها قادما الى دمشق وتحقق دخولها القصر ووقوعها من يزيد موقع الاستحسان ، اخذ في اعداد المكيدة فاغتنم فرصة رأى فيها يزيد خارجا وحده من المجلس الى المقصورة فاعترضه وهمس في أذنه : «ان عروسك لا يركن الى قلبها فاحترس على نفسك منها» ٠ وكان يزيد مسرعا الى لقاء سلمى وقد اخذ الشوق منه مأخذا عظيما ، فأثرت كلمات شمر تأثيرا لم يطل مكثه طويلا٠ ولم يكد يجلس اليها ويتأمل محياها حتى نسي الوصية ولاسيما بعد ان دارت برأسه سورة الخمر ولم يعد يرى من الدنيا شيئا غير ما في مقصورته ٠

اما شمر فلما طال مقام يزيد مع سلمى في تلك الخلوة ولم يسمع شيئا جديدا اشتد به الحسد مخافة ان تكون سلمى قد تسلطت على قلب يزيد وأنسته حاله ، وندم لانه لم يصرح له بحقيقة نسبها وانها ابنة عم عبد الرحمن وخطيبته فيتحقق خيانتها ويخاف غدرها ٠ وأصبح شمر لا يهدأ له بال ٠ وفكر في سبيل ينال به بغيته ٠ وهو يعلم منزلة عبيد الله ابن زياد من يزيد فسار اليه ، وكان ابن زياد في غفلة عن علاقة سلمى بعبد الرحمن ، ولكنه بات كاسف البال لفشله في خطبته سلمى وقد شق عليه خروجها من يديه ولم يكن أطول من تلك الليلة عنده ٠

فلما انفض المجلس وعلم عبيد الله بذهاب يزيد الى المقصورة وان سلمى هناك في انتظاره ثارت الغيرة في قلبه ، وكان قد أوى الى غرفته

في القصر وتوسد الفراش ولكنه لم يجد الى الرقاد سبيلا ، وكلما تذكر سلمى وجمالها وتصور قربها من يزيد ، وكان يعتقد ضعفه ولا يحترمه الا لانه الخليفة ، اقشعر بدنه لفرط غيرته •

وقضى في غرفته بضع ساعات وهو في قلق شديد يغالب عواطفه ويهون الامر على نفسه • وفيما هو في تلك الهواجس دخل عليه خادمه وهو يحسبه نائما ، فلما رآه مستيقظا قال له : «ان شمر بن ذي الجوشن بالباب» •

فقال : «دعه يدخل» • وجلس في الفراش وآمر الخادم فأضاء السراج •

فدخل شمر وعلى وجهه علامات الاهتمام ، فابتدره عبيد الله بالاستفهام عما وراءه ، فقال : «لقد اتيتك في امر ذي بال» •

قال : «وما هو ؟» • قال : «انت تعلم عزم الخليفة على الاقتران بتلك الفتاة الحسناء» •

فلما سمع ابن زياد الاشارة الى سلمى اختلج قلبه في صدره وأصاخ بسمعه وقال : «آعلم ذلك ، ثم ماذا ؟»

قال : «أتعلم من هي هذه الفتاة ؟»

قال : «لا أعلم الا انها غريبة ، وأظنها من العراق» •

قال : «نعم انها عراقية ولكن من هو ابوها ؟»

قال : «أليس هو الكهل الذي كان معها في الدير ؟» • وهب انه ليس أباها ، فماذا في هذا ؟»

قال : «ان معرفة ابيها تهمنا جميعا ، ولو عرفه امير المؤمنين ما اقترب منها» •

فاستغرب عبيد الله ذلك القول وقال : «ومن عسى ان يكون ابوها؟»

قال : «انه حجر بن عدي» •

ولم يتم كلامه حتى بانت البغتة في عيني عبيد الله ، وصمت برهة ثم

قال : «أواثق انت بصدق ما تقول ؟»

فابتسم شمر وقال : «اني اعرفها وأعرف آباها وعمها وكل اهلها وقد صحبتها ٠٠»

فقطع ابن زياد كلامه قائلا : «اذن عبد الرحمن ابن عمها ؟!»

قال : «نعم ، وهو ايضا خطيبها وقد قدما ومعهما الرجل الكهل الذي ذكرته ، وهو الوصي عليهما ، فأقاموا في دير خالد يتربصون للفتك بأمير المؤمنين ، وهذا ما ساعدني على كشف امر الرجل وايقاعه في الشراك وهو يهم بتلك الجريمة» ٠

فبهت عبيد الله وصدق كلام شمر مما لاحظه من القرائن الاخرى فقال له : «لماذا لم تطلع الخليفة على هذا السر ؟» اني خائف ان يكون قبولها الزواج بالخليفة مكيدة ، وأخشى ان تكون عازمة على الفتك غدرا بأمير المؤمنين» ٠

قال : «لقد لمحت له تلميحا ولكنه لفرط شغفه بها ، وسرعته في الذهاب اليها لم يدع لي مجالا للكلام او زيادة التفصيل» ٠

قال : «لا أستبعد ان تكون ناوية قتله ٠ ولاسيما اذا كانت ثابتة على رأيها ثبات ابن عمها ، وقد شاهدنا ما كان من عناده في هذا النهار ، او ان تكون كأبيها الذي قتله عناده لانه لم يلعن عليا كما تعلم ٠ ما العمل الان ؟» يجب ان نبلغ الخليفة الامر لئلا نلوم انفسنا فيما بعد» ٠

قال : «الرأي رأيك ولا بد من البت في الامر قبل انقضاء الليل» ٠

فأطرق عبيد الله برهة ثم نهض من فراشه بغتة وقال : «الي بفتح خصي امير المؤمنين ، لأنفذه اليه الان» ٠

فأسرع شمر حتى اتى غرفة (فتح) بباب دار النساء ، فأيقظه ودعاه الى عبيد الله ، فنهض حتى دخل على ابن زياد وهو يخطر في الغرفة ، فلما أقبل عليه ناداه وقال له : «اذهب الى الخليفة الان على عجل ٠ وقل

له اني أريد ان أخاطبه في امر ذي شأن» •
فضحك فتح وقال : «كأنك لا تدري اين هو الليلة ؟!»
قال : «اني عالم بمجلسه ولولا ذلك لدخلت عليه وكلمته» •
قال : «وكيف أدخل عليه وهو في مجلس طرب وسرور وقد اوصى ان يترك وحده ؟• ليس يجسر على الصعود الى المقصورة احد» •
قال : «اما انت فتدخل ، وهو انما ادخرك لمثل هذه الليلة • وتلك مزية الخصيان ، فامض اليه على عجل لان الوقت ضيق وقل له : (ان عبيد الله يريد ان يراك الان) •••»
قال : «واذا انتهرني ولم يسمع كلامي ؟»
قال : «خوفه بما شئت • قل له (ان عبيد الله يطلب مقابلتك في امر ذي بال يمس الخلافة) • ولكن لا تقل له ذلك على مسمع من احد • امض يا فتح عاجلا» •
فأسرع فتح وهو يتعثر بأذياله حتى صعد الى المقصورة ، فرأى الباب مغلقا ، وسمع يزيد يضرب بالطنبور ويقهقه • فوقف برهة وقلبه يخفق مخافة ان يغضب الخليفة اذا دعاه ؛ فلبث مدة يتردد حتى كاد ينثني عما جاء لاجله ، ثم تذكر الحاح عبيد الله فهان عليه الامر ودنا من البـــاب وقرعه •
وكان يزيد في ابان نشوته ، وقد اتكأ بجانب سلمى وأسند رأسه على صدرها وتمثلت له السعادة على أبهج حالاتها • فلما سمع قرع البـــاب أجفل وجلس وصاح : «من بالباب ؟»
فأجابه فتح : «انا عبدك فتح» •
فصاح يزيد : «اذهب فتح الله قبرك ! لقد ازعجتني» •
قال : «اتيت لأمر ذي بال لمولاي امير المؤمنين» •
فضحك يزيد وقال له : «دع الامر الى الغد وامض ، ولو قرع هذا

الباب احد سواك لقتلته» •

قال : «اني اعلم ذلك يا مولاي ولكنني ألتمس من امير المؤمنين ان يريني وجهه لحظة ثم يعود» •

فنهض يزيد والطنبور بيده وقد وقعت العمامة عن رأسه ووقف بالباب • فهمس فتح في أذنه : «ان عبيد الله بن زياد يريد ان يكلمك في شأن يتعلق بالخلافة» •

فقال يزيد : «قل له : (ان موعدنا الغد) ••» • وهم بالرجوع • فأمسكه بيده وقال له : «لو استطاع تأجيله لما أزعج مولانا في مثل هذه الليلة ، وقد استمهلته فألح علي ان آتي اليك الساعة، وقد كنت مستغرقا في نومي فأيقظني لهذا الامر • وقد جئت وأنا أتوقع غضبك ولكنني لم أر بدا من المجيء •

فمشى يزيد والطنبور بيده وقد غضب على عبيد الله وعول على توبيخه • ومشى فتح في اثره • ثم أمر فتحا ان يسبقه ويدعو ابن زياد اليه •

فهرع فتح حتى لقي ابن زياد واستقدمه • فجاء واستقبل الخليفة في ممر منعزل ، وقبل ان يتكلم يزيد ابتدره عبيد الله قائلا : «انا أعلم اني ازعجت امير المؤمنين في ساعة طربه ، ولكنني اطلعت على سر خطير لا يصح السكوت عنه الى الغد • فهل يأذن مولاي الخليفة في خلوة ؟»

* * *

بعث يزيد وسار في اثره الى غرفة فيها شمعة مضيئة وليس فيها احد• فلما خلا به قال : «بلغني يا امير المؤمنين ان عروسك التي حملناها اليك اليوم لا تقل خطرا عن عبد الرحمن الذي تعمد قتلك بالامس» •

فبغت يزيد وقال : «وكيف ذلك ؟»

قال : «لانها ابنة حجر بن عدي وعبد الرحمن ابن عمها وخطيبها» .

قال يزيد : «ومن أنبأك بذلك ؟»

قال : «أنبأني به شمر الذي كشف لنا الدسيسة الاولى ، فأخشى ان تكون سلمى هذه انما اتت الى منزل الخليفة لمثل الامر الذي هم ابن عمها به» .

فأطرق يزيد ثم قال : «سمعت مثل هذا التلميح من شمر . ولكنها أتيح لها ان تكون من نسائي ، وقد تكون على غير ما تقولون» .

قال : «قد يكون ذلك اذا عرفت النعمة التي خصها بها امير المؤمنين، وقد تكون شريرة عنيدة مثل ابيها وابن عمها فترتكب امرا يسوء المسلمين ويهدد الاسلام» .

قال : «كيف نعرف الحقيقة يا عبيد الله ؟»

قال : «نعرفها من البحث بين أثوابها عن سلاح او سم او نحوهما مما يستعان به على مثل هذا المنكر» .

قال : «لو كان معها شيء من ذلك لظهر لعجوزنا حين بدلت ثيابها في الحمام» .

قال : «وهل وثق مولاي من دخولها الحمام ؟»

قال : «لا ريب في ذلك ، لاني أوصيتهم ان يدخلوها الحمام ، وقد أكدت العجوز ذلك» . ثم توقف عن الحديث وتذكر انه لما سأل العجوز عن حمامها لم تجبه جوابا صريحا فقال : «وسأسأل العجوز ثانية ، فان كانت لم تدخلها الحمام فلا مانع عندي من التفتيش» . قال ذلك وهم بالخروج ، فاستوقفه عبيد الله وقال : «لا يكفي ان تبحث في أثوابها بل ابحث في كل الغرفة فاذا وجدت شيئا فلا تتسرع في الامر ، بل كن حازما مثل ابيك ، وخذ الامور بالتؤدة والحلم . وها أنذا منتظر حتى

يأتيني امر مولاي» •

كانت سلمى حين سمعت الخصي يخاطب يزيد ويلح عليه في الانفراد به ، أوجست خيفة ، على انها لم تتصور انه جاء لمثل ذلك الغرض ، وكأن نفسها حدثتها بشر يتهددها فاختلج قلبها واصطكت ركبتاها ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر عودة يزيد وقد ايقنت ان الشراب دار في رأسه ودنا الوقت المنتظر •

وكانت العجوز قد انزوت في بعض جوانب الغرفة وغلب عليهــــا النعاس فنامت •

فلما عاد يزيد هشت له سلمى وابتسمت وتوقعت ان يكلمها او يجلس الى جانبها فاذا هو يصيح بالعجوز • فأفاقت مذعورة وأسرعت اليه فأخذ بيدها وخرج من الغرفة • فلما خلا اليها سألها اذا كانت قد ادخلت سلمى الحمام ، فتلعثمت وأقرت له بأنها رأتها منحرفة الصحة ، فمنفها ولكنه أوصاها بالسكوت ، ودخل وجلس الى سلمى فظنت لاول وهلة انه عاد الى ما كان فيه وليس هناك ما يوجب الشك • فاذا به قد مد يده الى صدرها وجعل يجس جوانبها فأجفلت وخافت ولكنها ظنته يداعبها • اما هو فتظاهر بمداعبتها ولما لم ير معها سلاحا قال للعجوز : «ألم اقل لك ادخليها الحمام ؟»

قالت : «بلى يا مولاي ولكنها كانت تشكو صداعــــا فلم اشأ ان ازعجها » •

قال : «خذيها الان وها أنذا في انتظاركما» • وأشار اليها ان تأخذها الى غرفة قريبة في اول الممر •

فتحيرت سلمى ولم تدر ماذا تصنع ، ولكنها أطاعته وخرجت مــــع العجوز وهي لا تخاف الحمام لان الخنجر ليس معها • أما هو فأخـــذ يفتش في جوانب المقصورة حتى قلب الفراش ورأى الخنجر تحته فلم

يبق عنده شك في المكيدة فجعل ينتفض من شدة التأثر ، وحدثته نفسه بأن يقتلها بذلك الخنجر • ولكنه تذكر كلام ابن زياد وأسرع اليه والخنجر في يده وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما •

على ان شغفه بسلمى واعجابه بجمالها ما لبثا ان هونا عليه التماس العذر لها فقال : «ولكنني مع ذلك لا ارى ان آخذها بالشبهة اذ قد يكون هذا الخنجر هناك اتفاقا ، وهب انها تعمدت قتلي ، فهل من المستحيل ان تندم وتتوب ؟»

فأدرك عبيد الله غرض يزيد ، واستصوب رأيه فقال : «لقد اصاب مولانا ، والرأي عندي ان نبعث اليها من يسألها عن هذا الخنجر وسبب وجوده معها ، فاذا أقرت بجريمتها عنفها وحرضها على التوبة والتماس العفو منك فان فعلت بقيت والا فالامر لك» •

فقال يزيد : «نعم الرأي هذا ، ولكنني لا آمن ان أعهد في هذه المهمة الى سواك لعلمي بحكمتك ودهائك» •

فلم يكد عبيد الله يسمع ذلك حتى أسرع الى الغرفة التي كانت سلمى فيها • وكانت لما نزلت الى تلك الغرفة والعجوز معها ، ولم تجد هناك شيئا من معدات الحمام ادركت ان امرها لم يبق مكتوما ، وانها انما سيقت الى هناك لامر يوجب الخوف ، فلم تعد تعبأ بشيء وقد يئست من الحياة • ولولا تذكرها عبد الرحمن لما ترددت لحظة في الانتحار ، وكانت العجوز ايضا مندهشة ولم تفهم معنى هذا الانقلاب ، ولم يستقر بهما المقام هناك حتى جاء ابن زياد وقرع الباب فخرجت له العجوز ، فقال لها: «اين سلمى ؟»

قالت : «وماذا تريده منها ؟»

قال : «أريد ان أبلغها امرا من امير المؤمنين» •

قالت : «هي هنا» • وأشارت الى داخل الغرفة •

* * *

دخل عبيد الله وقد خبأ الخنجر تحت ردائه ، وكانت سلمى لما سمعت صوته تطيرت وأرخت النقاب على رأسها • فلما أقبل عليها ورأى جمالها قال في نفسه : «حرام ان يمس هذا الجسم بسوء» • فتلطف في الكلام وقال :

«لقد جئت من قبل امير المؤمنين اسألك عن امر ارجو منك ان تجيبني عنه بالصدق والصراحة» •

فظلت سلمى ساكتة مطرقة ، ولكن قلبها اشتد خفقانه • فلما لم تجب مد عبيد الله يده الى جيبه وأخرج الخنجر وقال لها : «أتعرفين هذا الخنجر يا سلمى ؟»

فلما رأت الخنجر تحققت فشلها وأيقنت انها ذاهبة ضحية جرأتها فامتقع لونها وظلت مطرقة لانها لم تجد جوابا •

فاستبشر عبيد الله بسكوتها خيرا وقال لها : «يظهر انك نادمة على تهجمك في مثل هذه الحال ، والعاقل من رأى العبرة فاعتبر • أما كفاك ما رأيت من فشل عبد الرحمن وطيشه حتى ألقيت بنفسك الى التهلكة • ولا ريب انك انما اقدمت على ذلك باغراء بعض الجهال ، فان من كان عنده ذرة من العقل لا يفعل فعلتك • أيطلبك الخليفة لتكوني عروسا له فتتعمدي قتله وأنت تعلمين ان حوله الجند والرجال ؟! فاذا قلت انك عالقة بذلك الشاب الجاهل فاعلمي انه قتل وأصبح في عداد الاموات منذ ساعتين » •

ولم يكن عبد الرحمن قتل بعد ولكن عبيد الله ظن يأسها منه يقرب رضوخها ، لكنه لم يكد يتم هذا القول حتى شهقت سلمى شهقة أجفل لها عبيد الله وأطلقت لنفسها عنان البكاء ، وملكها اليأس والاسى على حبيبها ، ولذهاب آمالها أدراج الرياح •

فلما سمعها عبيد الله تبكي ظنها ندمت على ما فرط منها ، فجلس

بجانبها على وسادة وقال مترفقا : «لا تبكي يا سيدتي ولا تخافي ، واذا كنت نادمة على ما فرط منك فأنا أتوسط في العفو عنك لدى امـــير المؤمنين ، وأظنه يعفو» •

فتوقفت عن البكاء ، ولبثت صامتة ، ثم تزحزحت من مكانها لتبتعد عن عبيد الله وقد تحول خوفها الى غضب ، وأصبحت بعد سماعها خبر موت عبد الرحمن لا تبالي الحياة بل تتمنى الموت • فحمل سكوتهـــا محمل القبول وقال لها : «وأنا اضمن عفو الخليفة عنك اذا اقررت بذنبك ولعنت أبا تراب» •

فلم تطق سلمى صبرا على ما سمعت ، ورفعت رأسها وقالت : «اغرب يا ابن زياد من وجهي» •

فقال وهو يمازحها : «وهل تريدين ان أبعث امير المؤمنين لتأخذي العفو منه» •

قالت : «ألا تزال تذكر العفو • وممن اطلبه ؟ أمن يزيد بن معاوية ضارب الطنابير ومعاقر الخمور • وعلام اطلب العفو ؟• آلكي ابقى حية وأنت تقول انكم قتلتم عبد الرحمن ؟• آه من ظلمكم وعتوكم • قتلتم عبد الرحمن وجئتم تلتمسون بقائي • اقتلوني فليس لي مأرب في الحياة بعد الذين ماتوا قبلي» • قالت ذلك وقد اختنق صوتها وهي تتجلد ولا تريد ان يبدو الضعف عليها ، وعبيد الله يعجب بجرأتها ، وكان يختلس النظر الى وجهها من خلال النقاب وهي تتكلم فسحر بماء عينيها وملامح فمها وهم بمخاطبتها فرآها عادت الى الكلام فقالت : «ثم انتم تجعلون لعن علي شرطا للعفو ، ان عليا لأولى الناس بالفضل ، دعوني من عفوكم والحقوني بعبد الرحمن • الحقوني به • اقتلوني • آه يا عبد الرحمن ! قتلوك قتلة الصالحين ؟ ولكن لك اسوة بأبي» • ثم خنقتها العبرات •

فأجابها عبيد الله وهو يخفف عنها : «يظهر انك لم تفهمي حقيقـــة

حالك انك متعمدة قتل الخليفة وهو انما بعثني لأقتلك فأشفقت على شبابك وأردت الابقاء عليك ، فهل هكذا يكون جوابك ؟»

قالت : «لا جواب عندي غير هذا . اذا كنت آتيا لقتلي ، فاقتلني ، ان القتل يريحني . اقتلوني» .

فقطع ابن زياد خطابها وقال : «أتفضلين القتل وخسارة الدنيا والآخرة على ان تلعني عليا او علي ان تستغفري لذنبك ، وأنا واثق بأنك لم تقدمي على هذا المنكر الا باغواء بعض الناس و ...»

فقطعت كلامه وقالت : «لم يغوني احد ولكنني تعمدت قتله انتقاما لابي وابن عمي ، وسعيا في مصلحة المسلمين . ولم أقدم على هذا الا وأنا عالمة بما يهددني من خطر القتل . ولكني لم أوفق . فاقتلني فما انا خير ممن قتلتموه قبلي» .

فقال عبيد الله : «اني انصحك لوجه الله ان تقلعي عن هذا العناد فلا خير فيه ، وقد اصبحت وحيدة لا نصير الك ، فاشفقي على شبابك وأطيعيني . اني والله أضن بهذا الوجه المليح ان يعفره التراب» .

قالت : «لا تضن بشيء لا يضن به صاحبه . اقتلني او اعطني هذا الخنجر فأغمده في أحشائي» . قالت ذلك ومدت يدها الى الخنجر ، فأخفاه عبيد الله وتحقق ان الكلام معها لا يجدي فتركها وعاد الى يزيد.

* * *

وكان يزيد في انتظاره على مثل الجمر وهو يرجو ان ترجع سلمى عن عزمها وتعتذر وتبقى عروسا له ، فلما عاد عبيد الله قص عليه ما بدا منها فعاد يزيد الى غضبه وقال : «قبحها الله من خائنة منافقة !»

فلما رآه ابن زياد في هذه الحال قال له : «ماذا يرى مولاي ان

نفعل بها ؟»

قال : «ارى ان اقتلها حالا بهذا الخنجر» .

قال : «انها تستوجب القتل . ولكني لا ارى ان تلوث يدك بدمها ولا ان تجعل احدا من اهل القصر يعلم ذلك» .

قال : «وكيف اذن ؟. أأعفو عنها ؟»

قال : «اذا عفوت عنها كان ذلك من حلمك وسعة صدرك ، وكذلك كان يفعل ابوك رحمه الله . فقد كان يسمع الاهانة من نساء بني هاشم ورجالهم فيسكت عنها وهو قادر على الانتقام . وكثيرا ما كان يقربهم ويعطيهم العطيات ، وهو دهاء امتدحه العقلاء عليه . وبه كان تأييد سلطانه . فاذا رأيت ان ترفع عن الانتقام من هذه الفتاة وتخرجها من قصرك اتقاء شرها فعلت ما هو جدير بابن معاوية بن ابي سفيان» .

قال : «أتطلب مني الافراج عن هذه الخائنة بعد ان تحققت عزمها على قتلي ، لا اظن معاوية كان يفعل ذلك في مثل هذه الحال» .

قال : «اذا لم يكن السكوت عنها ممكنا فافعل ما بدا لك . ولكنني لا أريد ان يعلم اهل القصر ان هذه الفتاة تجرأت على الفتك بالخليفة لئلا يهون الاقدام على مثله في عيون الآخرين» .

قال : «ما العمل اذن ؟»

قال : «افعل كما كان يفعل ابوك . فاذا لم يكن سبيل الى العفو بالحلم الواسع فهناك سبيل القتل بالعسل . ألا تذكر طبيبه النصراني ابن آثال ؟ لقد كان ابوك يستخدمه في قتل اعدائه بالعسل المسموم» .

قال : «سمعت ذلك ولكنني لم أتحققه» .

قال : «ألا تذكر لما اراد ابوك رحمه الله ان يبايعك في حياته ما كان من امر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ؟»

قال : «وأي شيء تعني ؟»

قال : «أعني ان أباك لما اراد ان يعهد في الخلافة اليك من بعده جمع أعيان اهل الشام اليه وقال لهم : (اني قد كبرت سني ورق جلدي ودق عظمي واقترب أجلي وأريد ان أستخلف عليكم فمن ترون ؟) • فقالوا : (عبد الرحمن بن خالد بن الوليد) • فسكت وأضمرها • ودس ابن آثال الطبيب الذي ذكرته فسقى عبد الرحمن هذا قدحا من العسل مسموما • فمات والناس يحسبونه مات بعلة • وفعل ذلك ايضا بالاشتر ، وكان علي ابن ابي طالب قد انفذه واليا على مصر بعد قتل محمد بن ابـي بكر ، فأرسل ابوك الى دهقان العريش من قال له : (ان قتلت الاشتر فلـك خراجك عشرين سنة) • فسقاه السم في العسل ، فمات الاشتر وخلصنا من شره • وهكذا فعل ابوك ايضا بالحسن بن علي لما رأى ما كان من حاله في امر الخلافة فبعث الى جعدة بنت الاشعث زوجة الحسن بمن قال لها : (ان قتلت الحسن زوجتك يزيد) • فدست له السم ، فلما مـات الحسن بعثت جعدة الى ابيك تطالبه بك فأجابها : (اني أضن بيزيد) • وقد مات في ايام ابيك كثيرون من اكابر الناس بهذه الحيلة ، وكان ابن آثال هو الذي يركب لهم السموم ويمزجها بالعسل • فهل كان ابـوك عاجزا عن قتلهم بالسيف ؟ كلا • ولكنه كان يرى السم اهون سبيلا حتى قال : (ان لله جنودا من عسل) • فاذا كان لا بد من قتل هذه الفتاة فما يمنعك من ان تفعل فعل ابيك ؟• وما هي الا جرعة تشربها فتمـوت والناس يحسبونها ماتت بمرض او نحوه • وهذا طبيبك ابو الحكم عالم بأنواع الادوية ، وله وصفات مشهورة ، وكثيرا ما كان ابوك ايضا يستطبه ويعتمد عليه في تركيب العقاقير لمثل هذه الغاية» •

- ١١ -

انتقام يزيد بن معاوية

لما فرغ عبيد الله من كلامه قال له يزيد : «الي الان بأبي الحكم الطبيب» .

فخرج عبيد الله الى غرفته ، وكان شمر في انتظاره هناك ، فلما رآه قال : «ماذا فعل الخليفة ؟»

قال : «لقد كشف المكيدة وتحقق قولنا . أتعرف منزل ابي الحكم الطبيب النصراني ؟»

قال : «أعرفه ، انه بالقرب من هذا القصر» .

قال : «سر اليه وأبلغه ان امير المؤمنين يدعوه اليه الساعة» .

فسار شمر ، وعاد ابن زياد الى يزيد فرآه جالسا وقد اخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، فجعل يهون عليه ويهنئه بالسلامة قائلا : «نحمد الله على ان لطف بمولانا وكشف لنا نيات اعدائنا ، فلا تطلع الشمس غدا الا وقد قتل هذان الخائنان وارتاحت البلاد من شرهما ، وما ذلك الا لان الله مؤيد سلطاننا رغم اهل العناد» .

فانشرح صدر يزيد وقال : «بورك فيك يا عبيد الله وبورك في شمر، انه والله ذو فضل علينا ، وسنوليه عملا ينتفع به ان شاء الله» .

وبعد قليل سمعا وقع أقدام ، فأدركا ان الطبيب قادم ، ثم دخل شمر وهو يقول : «ان الطبيب بالباب» . فأمر يزيد بدخوله .

وكان بو الحكم شيخا تدلت على صدره لحية بيضاء وبان الهرم على وجهه من تجعد بشرته ، وقد تزمل بردائه على عجل ووضع القلنسوة على رأسه كيفما اتفق . فحيى الخليفة ووقف بين يديه ، فابتدره هذا قائلا :

«اجلس يا أبا الحكم» • فلما جلس قال له : «أتدري لماذا دعوناك ؟»

قال : «لا يا مولاي» •

قال : «دعوناك لنستعين بعلمك على رد كيد الخائنين اهل الغدر» •

قال : «اني رهن اشارة امير المؤمنين» •

قال : «هيىء لنا جرعة عسل قاتلة ، واسقها في الفجر لفتاة تراهـــا جالسة مع عجوزنا في المقصورة • واحذر ان يعلم احد بذلك» •

قال : «اطمئن يا مولاي ، ان هذا الامر طالما قمت بأمثاله طوعا لأمر ابيك ولم يعلم به احد» •

قال يزيد : «امض الان وأعد العقاقير واستعن بحبيبنا عبيد الله على ذلـــك » •

فوقف الطبيب وقبل يد الخليفة وخرج ، ومضى الخليفة الى فراشه وسار عبيد الله الى غرفته • وسر شمر بنيل بغيته •

* * *

فلنترك أبا الحكم يهيىء جرعة العسل ، ولنعد الى عامر وما كان من امره بعد خروجه من الدير ، وكان قد غادره مرغما وقلبه معلق بسلمى خوفا عليها مما عرضت نفسها له من الخطر العظيم • ثم قعد في مكـــان ظليل يشرف على المارة ، حتى رأى موكب سلمـــى مارا الى دمشق ، فانصدع قلبه وندم على مجاراتها وخاف ان تقع في الفخ فتذهب جهودها هي الاخرى ضياعا •

ولبث في مكانه بالغوطة حتى توارى الموكب فلم يعد يستطيع صبرا، ونهض فسار الى دمشق وهو يفكر في سبيل يدخل به دار الخليفة ليستطلع أحوال عبد الرحمن وسلمى • وما زال ماشيا حتى دخل دمشق ، فتوجه

الى المسجد وهو يعلم ان دار الخليفة بجانبه . فلما أقبل على الجامع رآه مزدحما بالمصلين وقد وقف يزيد يخطبهم ، فأخذ مكانه بينهـــم ، وراح يتفرس في الوجوه لعله يرى احدا يعرفه ليستعين به او يسترشده ، فوقع نظره على فتى قابع بجانب احد اعمدة المسجد يسمع الخطبة . وخيل اليه لاول وهلة انه يعرفه ، ولما تفرس فيه جيدا تذكر انه رآه في غير ذلك المكان ، ثم ما لبث ان عرف انه الفرزدق الشاعر المشهور . وكان يومئذ في اول العقد الرابع من عمره لم يتزوج من «نوار» بعد . وكان سبب معرفة عامر به ان غالبا أبا الفرزدق جاء الى الامام علي بعد وقعة الجمل بالبصرة (سنة ٣٦ هـ) ومعه ابنه الفرزدق وكان صبيا وقال لعلي : «ان ابني هذا من شعراء مصر فاسمع منه» . فأجابه علي : «علمه القرآن» . وكان عامر حاضرا ذلك المجلس . ثم شاهد الفرزدق بعد ذلك بأعوام في الكوفة وقد صار شابا فذكره بما قاله الامام فقال الفرزدق : «ان تلـك الكلمة ما زالت ترن في آذني وقد قيدت نفسي يومئذ عن الشعر فآليت ألا اقوله حتى احفظ القرآن» .

وكان عامر يعلم ان الفرزدق يكتم تشيعه لاهل البيت ، فرأى ان يستعين به . فلما انقضت الصلاة وتفرق الناس ، تبعه ورآه يعرج نحو القصر فاعترضه وأوقفه وحياه ، فعرفه الفرزدق ورحب به ، ودعاه الى منزله . فلما اختليا شكا له عامر حاله وهو يبكي ، فاستغرب الفرزدق حكايته وقال : «ما العمل الان ، وما الذي استطيعه ؟. ان الامر خطير كما ترى . ولو ان عبد الرحمن شاورني لأشرت عليه بألا يقدم على ما أقدم عليه . ان الامر قد استتب للقوم ، ولا حيلة في النجاة من أيديهم، ولن يفيدنا التمرد شيئا» .

فتنهد عامر وقال : «انني لم أحبذ اقدامه على ذلك ، ولكن لا خيرة في الواقع ، وانما اريد ان أصحبك الى مجلس الخليفة فأقف ببابه فـــي

جملة الشعراء ، لعلي أسمع ما يحدث لعبد الرحمن» •

قال الفرزدق : «اجعلك راويتي» • وكان الشعراء في الجاهلية وأوائل الاسلام يصطحبون الرواة حيثما رحلوا ؛ ولكل شاعر راوية يحفظ شعره ويروي له اقوال الآخرين ، فاذا دخل الشاعر على الخليفة دخل راويته معه وجلسا متحاذيين • فاستحسن عامر هذا الرأي فتنكر في لباس الراوية ، وخرج مع الفرزدق حتى دخلا دار الخليفة ووقفا مع الشعراء • ولم يأذن يزيد للشعراء بالدخول عليه في ذلك اليوم • وأخذ عامر يستطلع الاحوال ويتنسم الاخبار ، ثم رأى عبد الرحمن لما ساقوه مغلولا للمرة الاولى ، وجاء بعض من كانوا معه فقصوا عليه نبأ ما ظهر من بسالته فأعجب بذلك •

ولما استقدموه للمرة الثانية ، جاء الى عامر من أخبره بما كان من الامر بقتله • فوقع في حيرة ، وبحث عن الحجرة التي سجن فيها فعلم انها حجرة واطئة كانت في عهد الرومانيين حماما لوالي دمشق • فأخذ يفكر في حلة ينقذ بها عبد الرحمن ، على ان يفكر في امر سلمى بعد ذلك •

وفيما هو يعمل فكرته تذكر الشيخ الناسك ، فاستأذن الفرزدق وخرج مسرعا الى الغوطة حتى أطل على الدير فالتمس الناسك عند الجوزة ، ولما سمع نباح الكلب قبل وصوله اليها استبشر وأسرع الى الجوزة فرأى الناسك متكئا فوق حجر ، ولما اقترب منه عرفه فأرخى شعره على عينيه وصاح به : «اين سلمى ؟»

قال : «انها يا سيدي في قصر يزيد ، ولا ادري ما آل اليه حالها ، وانما جئتك في امر ذي بال لا اجد من ارجع اليه فيه سواك» •

قال : «قل واتكل على الله» • فقص عليه حديث عبد الرحمن باختصار ، ثم قال : «وسيقتلونه هذه الليلة ، سيقتله شمر اللعين ، فما

العمل ؟ »

فظل الشيخ الناسك مطرقا ولم يجب • فسكت عامر ايضا لعلمه ان النساك وأصحاب الكرامات لهم مناجاة خاصة يستخيرون الله بها • ثم قال الناسك : «ألم تعلم اين سجنوا عبد الرحمن ؟»

قال : «انه مسجون في الحمام القديم في قصر يزيد» •

فرفع الناسك رأسه وقال : «ابشر بالفرج يا عامر • ولكن يجب ان تكون رجلا وأن تكابد الخطر لانقاذ عبد الرحمن» •

فقال : «اني أفديه بروحي» •

قال : «أتعرف الكنيسة جيدا ؟»

قال : «وأي كنيسة يا مولاي ؟»

قال : «كنيسة النبي يحيى التي جعل المسلمون نصفها مسجدا ، وهي بجانب القصر» •

قال : «نعم أعرفها ، وقد كنت في صباي اذا جئت مع اهلي الى دمشق صليت فيها ونحن يومئذ على دين النصرانية مثل سائر اهل كندة» •

قال : «لا يخفى عليك ان ابنية الجامع والكنيسة والقصر متلاصقة متجاورة ، فعليك ان تدخل الكنيسة ، ولا حرج عليك في الدخول ، ثم حاول ان تبقى بها الى الليل • فاذا أمنت العيون فامش الى جانب المحراب فتجد هناك قطعة من الرخام على هيئة اسد ، فارفعها ، وستجد تحتها سلما قصيرا يؤدي الى سرداب تحت الارض ، فامش فيه متحسسا الجدار بيدك اليسرى • الى ان تصل بعد دقائق الى باب صغير يستطرق الى الحمام • فاذا وفقتْ للوصول اليه وعبد الرحمن به فحل قيوده وعد به في نفس السرداب ، واجعل يدك اليسرى دليلك ايضا ، وسيطول بكما المسير ، ولكن لا تخف ، فانكما ستصلان الى مكان خارج سور المدينة • فاذا نجوتما فتعاليا الي» •

وكان الناسك يتكلم وعامر يصغي لقوله ، وكأنما خامره الشك في صحة كلامه وخاف ان يعتمد على نصيحته فلا يجد سردابا ولا سبيلا وتكون الفرصة قد ضاعت •

ولحظ الناسك ذلك منه فقال : «لا تشك يا عامر فيما قلته لك ، ولا تظن قولي رجما بالغيب • اني أعرف المكان جيدا ، وأمثال هذه السراديب كثيرة في دمشق ، وأكثرها كان اقنية للماء في عهد الروم ثم اعتاضوا عنها بأقنية اخرى جديدة فظلت خالية• ولا اخفي عليك انك قد تلقي مشقة كبيرة في اجتياز مثل هذا السرداب لانه مهجور من زمن قديم ، وربما انسد بعض اجزائه او تهدم ، ولذلك قلت لك ان هذا العمل يحتاج الى شجاعة واقدام» •

فاطمأن بال عامر وتحقق وجود السرداب ، ولم يعبأ بما يحول دون المسير فيه • ونهض فقبل يد الناسك وهو لا يرى وجهه ، فقبل الناسك رأسه ودعا له بالتوفيق • فاستبشر عامر بدعائه لايمانه بكرامته ، وأسرع الى دمشق وسار توا الى الكنيسة وهو يعرف مدخلها ويسهل عليه التظاهر بالنصرانية لانه قريب العهد بها •

* * *

وصل عامر الى الكنيسة ساعة الغروب ، فاشتم رائحة البخور وسمع اصوات المنشدين وهو لا يزال في صحنها ، فعلم ان الناس في الصلاة فدخل في جملة الداخلين ، ولم ينتبه له احد لان كثيرين من أمثاله من نصارى البادية ، وأكثرهم من عرب غسان ، كانوا اذا نزلوا دمشق دخلوا كنائسها وسمعوا الصلاة فيها • وكان الغسانيون قد اسلم معظمهم على اثر الفتح • اما فرارا من الجزية واما تزلفا الى المسلمين ، وظل

بعضهم على النصرانية وأقاموا بالبلقاء وحوران ، وكانوا يأتون دمشق لشراء ما يحتاجون اليه من اسواقها ، ويدخلون كنائسها ليتبركـــوا بالصلاة .

فلما دخل عامر الكنيسة لم يستغرب احد دخوله ، فالتمس مكانـــا منعزلا انزوى فيه ، بينما الصلاة قائمة والاناشيد تصدح والبخـــور يتصاعد ، وراح يفكر في حاله وما هو مقتحمه من الخطر الشديد ، ولم يكن يبالي بالخطر لو انه كان واثقا من نجاح مسعاه .

ولما انتهت الصلاة ، وتفرق الناس تظاهر بالنعاس والضعف ، حتى خلت الكنيسة من المصلين وصعد القسيسون الى غرفهم ، فأخذ الخادم (القندلفت) يمر على الشموع ليطفئها ، فتذكر عامر مهمته ، ورأى ألا بد له من مصباح او شمع يستضيء به في السرداب . فعول على سرقة بعض الشموع التي على المذبح ، ولكنه كان يخشى الخادم . وفيما هو يفكر في ذلك دنا هذا منه وكلمه مستفهما عن غرضه . وكان الخادم من اهل دمشق وقد تعلم العربية . فقال له عامر : «اني رجل مريض وقد نذرت ان ابيت لليلة تحت صورة القديس يوحنا لعلي ابرأ من دائي» .

فاستحسن ايمانه ، ولكنه استطال اقامته معه طول الليل فقال له : «انني مكلف باغلاق الكنيسة قبل انصرافي» .

فقال عامر : «لا بأس ، اغلق الباب وخذ مفتاحه معك ، وأبقى انا هنا الى الصباح ، فقد بدأت اشعر بالراحة وعسى ان ينفعني ايماني» .

فلم ير الخادم بأسا من اجابته الى طلبه ولاسيما ان الكنيسة ستكون مغلقة ومفتاحها معه ، فجاءه بزيت من زجاجة مقدسة كانت في حق امام ايقونة العذراء ودهن به رأسه وقال له : «ان بركة العذراء ستعجـــل شفاءك» . ثم دعا له بالشفاء وتركه وأغلق باب الكنيسة وخرج الـــى غرفته .

ولبث عامر بعض الوقت متشاغلا بالتأمل فيما حوله على ضوء المصابيح الصغيرة المعلقة امام الايقونات الكبرى ، وكان في بعض هذه الايقونات صور كبيرة ظهرت له مجسمة ، وزادهـــا فراغ المكان تجسما ورهبة ، فاقشعر بدنه وخيل اليه انها أشباح حية ترقب حركاته وأبصارها متجهـة كلها نحوه • ثم تذكر عبد الرحمن وما هو فيه من الخطر فهب من متكئه. وأصاخ بسمعه فلم يسمع صوتا ولا حركة •

وكان قد عرف مكان قطعة الرخام التي قد وصفها له الناسك ، فنهض وسار حتى وقف بقربها ، وأعاد فحصها فاذا هي كبيرة وليس فيها حلقة يجذبها بوساطتها فاستل خنجره وعالج به مواضع اتصالها بما يجاورها ، وما زال يحاول زحزحتها حتى توسم قرب اقتلاعها ، فتركها وأخذ في جمع بعض الشمع ليستنير به في ذلك السرداب ، وبعد ان ادخر طائفة منه في جيبه اشعل شمعة من مصباح ، وانتزع قطعة الرخام محاذرا ان يسمع لذلك صوت • وما كاد يفعل حتى أحس بنسيم بارد خرج من السرداب وفيه رائحة العفونة ، فاستبشر ، وأمن جانب الاختناق في السرداب • ثم هبط درجات السلم الحجرية ، والشمعة في يده حتى وصل قاع السرداب فغاصت قدماه في بقايا مياه وأوحال ، وحام البعوض حول الشمعة ، ولم يخط بضع خطوات حتى هبت نسمة قوية اطفأت الشمعة فأظلم السرداب. فرمى الشمعة ومشى يتحسس ويتلمس ويساره على الحائط وقد أحس برطوبته ، وقلبه يخفق ، وهو لا يسمع غير طنين البعوض ، ولا يـــرى شيئا لشدة الظلام • تارة يغوص في الوحل ، وطورا يعثر بالاحجار ، حتى انتهى الى مكان جاف فأسرع في خطاه وهو يحملق ويصيخ بسمعه لعله يرى بصيصا او يسمع حفيفا •

وفيما هو في ذلك سمع صوتا بعيدا لم يتبينه لبعده ، فأسرع السير نحو مصدره ويده اليسرى على الحائط ، وما زال الصوت يقترب منه

حتى عثرت رجله بحجر فوقف ؛ وراح يتحسس الطريق بيديه ، فاذا هو عند آخر السرداب وأمامه درجات لا بد له من صعودها • وقبل ان يضع قدمه على اول درجة رأى نورا ضعيفا منبعثا من شقوق باب صغير في اعلى السلم وسمع قائلا يقول : «لا تهددني بالقتل فاني لا اخاف الموت» •

★ ★ ★

علم عامر انه وصل الى السجن وعرف صوت عبد الرحمن فصعد الدرجات حتى دنا من الباب ووضع عينيه على شق فيه وحدق فيما هنالك، فرأى رجلا واقفا كان بيده مصباح فوضعه على حجر بارز في احد الجدران ودنا من رجل آخر جالس والاغلال في يديه ورجليه • وتفرس عامر في الرجل الواقف فعرف من بياض برصه انه شمر ، ورأى في يده سيفا مسلولا • وعرف ان الجالس عبد الرحمن • ولم يكد عامر يراهما حتى سمع شمر يقول : «يا للعجب من وقاحتك ووقاحة ابنة عمك ! انت تقول اقتلوني لا أبالي • وكانت هي تقول كذلك ، وقد قتلتها منذ لحظة، وأتيت الساعة لأقتلك • ولكنني قبل ان اخرج روحك من جسدك اطلب اليك بأمر امير المؤمنين ان تلعن عليا فاذا فعلت علمت انك نادم على ما فرط منك من تعمد قتل الخليفة ؛ فأرى ••»

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال : «أتخوفني يا شمر بقتل سلمى وهي بعيدة عنكم لا تنالها أسيافكم ؟»

فضحك شمر وقال : «انك جاهل مغرور ؛ لهذا لا تصدقني • لقد جئت بسلمى الى هذا القصر صباح اليوم ليتخذها الخليفة زوجة ، وقد ماتت منذ ساعة • فاذا شئت ان تعلم كيف ماتت فاعلم انها تجرعت السم بالعسل • وأما انت فسأميتك بحد هذا السيف» • قال ذلك وهز السيف

يده فاهتزت اعضاء عامر وتحفز لخلع الباب ولكنه رأى شمر قد وقف ولم يقترب من عبد الرحمن • أما هذا فلما سمع بموت سلمى صاح صيحة قوية وحاول النهوض ولكن الاغلال الحديدية حالت دون ذلك ، فسمع عامر صلصلتها ، ثم سمعه يقول : «تبا لكم يا اهل الغدر • أتقتلون سلمى وتحسبونني أريد البقاء بعدها ؟•• ثم تكلفونني ان ألعن خير الناس بعد الرسول ثمنا لهذا البقاء !• لقد قيدتم يدي ورجلي والموت اقرب الي من حبل الوريد ، ولكنني لا اخاف منه • عجل بقتلي يا شمر، لألقى سلمى في مكان لا غدر فيه ولا خيانة • ولكن •• يا ليتهم اختاروا جلادا غيرك لانني اكره ان اموت بسيف نذل لئيم مثلك» •

فقطع شمر كلامه وهز سيفه وأجابه بفتور وصوت منخفض وهو يتبسم : «لم يختاروا غيري لهذه المهمة ، وسأقتلك بهذا السيف الصقيل»•

فصاح عبد الرحمن : «اقتل قتلك الله • لو انكم ابقيتم على سلمى لكنت آسف على الحياة من اجلها ، ولكنكم الحقتموها بأبيها - فالحقوني بهما • آه يا سلمى !• قتلوك بلا رحمة • آه ما اقسى قلوبهم • اقتلني يا شمر • ولكن تمهل قليلا • دعني أندب سلمى • أعوذ بالله من شروركم• كيف تقتلون فتاة طاهرة ؟ أما تخافون الله ؟ أما تخافون يوم الحساب ؟•• »

فابتدره شمر قائلا : «لقد كنت عازما على استبقائك برهة لأتلذذ بعذابك ولكنني اراك تطلب البقاء لتندب حبيبتك فما انا مبق عليك • وها أنذا قاتلك الساعة فاختر لك موتة» • قال ذلك ووخزه برأس السيف في كتفه وهو يقهقه ، فصاح فيه عبد الرحمن : «اضرب يا شمر ، اقتل، اضرب عنقي» • قال ذلك وحرق اسنانه ثم قال : «آه ! لولا خوفي من ان تظن بي الخوف من الموت لاستمهلتك لاندب سلمى» •

★ ★ ★

كان عامر ينظر ويسمع ، فلما سمع بمقتل سلمى وكان يحسبها في أمان ، ورأى ما رآه من شمر ، خاف ان يسبقه بالسيف فيقتل عبد الرحمن فتتضاعف المصيبة ، فأسند ظهره الى الباب وتجمع بكليته وخنجره مسلول بيده ورفس الباب رفسة كسره بها ووثب حتى وقف في وسط الحجرة • فأجفل شمر ووقع السيف من يده ثم هم بأن يلتقطه فابتدره عامـــــر بالخنجر وطعنه في جنبه فوقع يتخبط في دمه ولكنه لم يمت • وتحـــول عامر الى عبد الرحمن وحل قيوده وكسرها وعبد الرحمن مأخوذ يحسب نفسه في منام ولا يدري ما يقول ، ولم يزد عامر على قوله : «لا تخف يا عبد الرحمن جاءك الفرج» • وأخذ في حل القيود ولم يبق في الحجرة صوت غير أنين شمر وهو ملقى على الارض •

فلما فرغ عامر من حل القيود قال له : «اتبعني» • وعاد الـــى السرداب • فمشى عبد الرحمن في اثره فقال له عامر : «امسك بذيـــل ردائي بيمينك وتحسس الحائط باليسرى» • ففعل ومضى في اثره وهو ما زال مأخوذا • فقضيا في السرداب زمنا طويلا ولم يخرجا الى النور فظن عامر انه اخطأ الطريق ، ثم أحس بانحباس الهواء عنهما وضاق تنفسهما، فحدثته نفسه ان يعود ثم تذكر الناسك وما أنذره به مما سيلاقيه مـــن المشقة والخطر فاستمر في طريقه حتى اشتد بهما الضيـــــق وأوشكا ان يختنقا من كثرة العفونة وقلة الهواء • ولحظ عبد الرحمن حيرته ، فقال له : «لا تأسف على حياتنا يا عماه • لا بأس من موتنا معا في هــــذا السرداب لا يعلم بنا احد فاني لا ارى الحياة عزيزة بعد موت سلمى • وأما انت ••»

فابتدره عامر قائلا : «وأنا لا احب البقاء بعدكما ، ولكنني لا اريد ان نموت قبل الانتقام من هؤلاء الاشرار • وأسفاه !• ارانا مشرفين على الموت اذا لم يدركنا منفذ تتنفس منه الهواء» •

فقال عبد الرحمن : «دعنا نمت يا عماه . ياما احلى الموت فانه يقربنا من حجر وابنته . لا تأسف على الحياة بعدهما . ولكنني احب قبل الممات ان أعلم كيف قتلوها وما الذي أوصلها اليهم وكيف وقعت في الفخ ؟»

فقص عليه عامر كل ما وقع له مع سلمى من بعد ذهابه ، وعبد الرحمن يعجب بشهامتها ويتنهد ويحرق اسنانه حتى اتى على آخر الحديث .

وفيما هما في تلك الحال سمعا دقا على سطح السرداب فوقهما كأنه نبش بالمعاول . فقال عامر : «اني أسمع نبشا فعسى ان يكون الله قد فتح علينا» . فأصاخا بسمعيهما واذا بصوت النبش يتعاظم ، وبعد قليل رأيا التراب يتساقط عليهما فتقهقرا الى الوراء ، ثم انفتحت كوة في السقف دخل منها نور ضئيل كأنه نور الفجر وجرى النسيم فانتعشا . فقال عامر: «لقد فتح الله علينا بابا للفرج» . وهما بالمسير فسمعا جلبة وفيها صوت رجل يقول لرفيقه : «انهم ابوا الا ان يدفنوها في هذا الفجر وما ضرهم لو صبروا الى الصباح» .

فأجابه الآخر : «يظهر انك لم تفهم السر يا أحمق ألا تعرف عـــادة الخليفة في مثل هذه الحال ؟»

قال : «وما هي عادته يا فصيح ؟»

قال : «ان هذه المسكينة لم تمت حتف انفها ، ولكنهم أماتوها بالسم وأظهروا انها ماتت بالمرض ، وكم من مرة قمت بمثل هذه المهمة في ايام معاوية فقد كان اكثر ارتكابا لهذا المنكر ، وكلما اراد قتل رجل سقاه قدحا من العسل وأمر بدفنه والناس يحسبونه مات بعلة . ولكنه قلما صنع ذلك بالنساء» .

فقال ذاك : «وما عسى ان يكون من امر هذه الفتاة وهـــي عروس الخليفة ولم تأت قصره الا في صباح الامس ؟»

فأجابه الآخر وقال : «ما لنا ولكثرة الكلام ؟ دعه يقتل من اراد

ونحن نحفر القبور والله يجزي على الذنوب !»

وكانا يتكلمان وينبشان فما أحسا الا والمعول وقع في السرداب فصاح احدهما : «اني اراني فوق بئر وأخاف ان يصعد الينا منها عفريت او جان ! »

★ ★ ★

ادرك عامر لما سمع الحديث انهما صارا تحت المقبرة خارج المدينة ، وانهم يحفرون قبر سلمى ، وعلم عبد الرحمن ذلك ايضا فأحب ان يتكلم ولكن عامر أمسك بيده وأشار اليه ان يسكت ريثما يخرجان من السرداب ، فسكت عبد الرحمن ولكن الرطوبة والهواء غلبا عليه فعطس عطسة دوى لها السرداب فأجفل الرجلان وصاح احدهما : «ألم اقل لك ان المكان مسكون ؟ هيا بنا قبل ان تدركنا العفاريت» . قال ذلك وفر وتبعه رفيقه ، ولم يمض قليل حتى ساد المكان سكون تام . فمشى عامر وعبد الرحمن حتى خرجا من السرداب ، وتلفتا فاذا هما في مقبرة خارج المدينة وقد لاح الفجر ، فأسرعا بالخروج من المقبرة وعبد الرحمن يود البقاء ليرى سلمى ولو ميتة وعامر يلح عليه بالخروج لئلا تدركهما الشرطة ويهون المصيبة عليه ، حتى اذا بعدا عن المدينة وأوغلا في الغوطة لجآ الى شجرة في مختبأ وقال عامر : «ارجع يا بني الى رشدك واصبر ان الله مع الصابرين ، هيا بنا الى الشيخ الناسك فانه في انتظارنا قرب الدير فوق قبو حجر» .

فقال عبد الرحمن : «وسلمى ؟ أأتركها ؟ أتركها وحدها بين هذه القبور ؟..» . قال ذلك وغلب البكاء عليه فشاركه عامر في البكاء ولكنه تجلد وقال له : «اصبر يا عبد الرحمن وتدبر الامر بالحكمة . ان بقاءنا

هنا او ذهابنا الى المقبرة او رجوعنا الى الشام لا يفيد شيئا . والحق اني كنت في شك من مقتل سلمى ، وكنت عازما على البحث عنها ، ولكن ها قد تحققنا وقوع المصيبة فلم تبق لنا فائدة من البحث . وعلينا ان نصبر صبر الرجال حتى نشفي غليلنا بالانتقام» .

فقال عبد الرحمن : «نعم ، لا بد من الانتقام ، ولكن كيف ؟. اني لا ارضى الانتقام لسلمى الا بقتل قاتلها الذي يسمي نفسه خليفة . ان قتله والله عوض قليل عن سلمى حبيبة قلبي وروحي وابنة عمي . آه يا سلمى !. كيف اتركها تدفن وأنا حي وهي انما استقبلت الموت من اجلي، ولولاي لم تدخل قصر يزيد ولا اصابها ما اصابها ؟. ولقد كان موتها سببا لنجاتنا من الموت ؟ فلولا انهم جاءوا لحفر قبرها لكنا قبرنا قبلها في السرداب ، آه يا عماه ليتني قبرت وكان قبري تحت قبرها . لنكون متجاورين وتختلط عظامنا وتمتزج بقايانا كما امتزجت روحانا !»

قال ذلك وخنقته العبرات . فتركه عامر ينفس عن نفسه بالبكاء ، وبكى هو الآخر شجاعة سلمى وحسن أخلاقها ما شاء . وبعد قليل عاد الى التخفيف عنه فقال : «ان سلمى تستحق اكثر من هذا ، ولو قتلنا انفسنا عليها ما وفيناها حقها . ولكن هذا يسر اعداءنا . وخير منه ان نتدبر الامر بالحكمة ونسعى للانتقام بتعقل ودراية لنظفر به ونرضي روح سلمى في قبرها» . قال ذلك وتذكر ما اوصته به لما فارقها في الدير فالتفت الى عبد الرحمن وقال : «أعرني سمعك لأبلغك وصية سلمى لك يوم سارت الى يزيد» .

فقال : «قل حدثني عن سلمى ماذا قالت ؟»

قال : «لما ودعتها في ذلك اليوم قالت لي : (اذا انا مت وبقي عبد الرحمن حيا فحيه عني وقل له ان سلمى آثرت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك، واذا بقيت انت حيا فإن عظامها تتهلل في أعماق القبر)..»

فصاح عبد الرحمن : «أتموت هي في سبيل حبي وأراهم يحفرون قبرها ثم اهرب ؟!»

قال عامر : «لقد ذكرت سلمى ان بقاءك حيا بعدها يفرح قلبها وهي في القبر . فهيا بنا الى الشيخ الناسك نستشيره ، فانه والله ذو فضل علينا ، ولولاه ما وفقت الى انقاذك ، واني لا أشك في انه من الصالحين » .

وسار عامر وعبد الرحمن في أطراف الغوطة بحيث لا يشعر بهما احد حتى اقتربا من الجوزة ، فرأيا الناسك راقدا فوق قبر حجر . وقبل وصولهما نبح الكلب فجلس الناسك وتطلع فلما رآهما قادمين ارخى شعره على وجهه ونادى عبد الرحمن قلباه وهو يبكي ويقول : «ما بالك لا تسألنا عن سلمى ؟»

فوقف الناسك وصاح : «ماذا صنعوا بها ؟. لا .. لم يقتلوها !»

فقال عبد الرحمن : «صدقت انهم لم يقتلوها بالسيف ، ولكنهم قتلوها بالعسل !»

فأطرق الشيخ الناسك ويده على لحيته وهو ينتفض ويرتعد وقال : «ومن اخبركم بذلك ؟» . فقص عليه عامر كل ما علماه .

فقال : «ان الله لا ينصر القوم الظالمين» .

فقال عبد الرحمن : «ارشدنا يا شيخنا . اننا لا نرى سبيلا الى الحياة بغير الانتقام . آه ما احلى الانتقام» .

فبهت الشيخ هنيهة ثم قعد وهو يقول : «اخرجا من هذه البلاد ، لم يبق لكما فيها مأرب» .

قال عبد الرحمن : «كيف نخرج منها وقد دفنوا سلمى فيها ؟»

قال : «اخرجا الى شركائكما في الثأر . اخرجا الى مكة فان فيها ابن بنت الرسول ، وهو المطالب بالخلافة وهي حق له وحده . اذهبا اليه على

عجل وانصراه فاذا فاز بالخلافة فقد تم لكما الانتقام . ان البقاء هنا لا يجديكما نفعا والامر اعظم مما تظنان» .

فقال عامر : «وكيف ذلك يا مولاي ، ماذا حدث ؟»

قال : «قد علمتما ان يزيد لما مات ابوه وقام يدعو الناس الى بيعته كان الحسين في المدينة ومعه غيره من ابناء الصحابة وفي جملتهم عبد الله ابن الزبير بن العوام . وكان عامل معاوية على المدينة يومئذ ابن عمه الوليد بن عقبة ، فكتب اليه يزيد يخبره بموت معاوية ويطلب اليه ان يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير . فجاءه الكتاب وعنده مروان بن الحكم فاستشاره في الامر فقال مروان : (ارى ان تدعوهما الساعة وتأمرهما بالبيعة) . فبعث اليهما وكانا في المسجد ، فلما وصل اليهما الرسول وأخبرهما بطلب الوليد قالا : (انصرف الان وسوف نلحق بك) . ثم قال ابن الزبير للحسين : (ترى فيم بعث الينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها ؟) . فقال الحسين : (اظن طاغيهم قد هلك فبعث الينا ليأخذ منا البيعة قبل ان يفشو في الناس الخبر) . قال عبد الله: (فماذا انت صانع ؟) . قال الحسين : (اجمع اصحابي الساعة ثم أمشي اليه وأجلسهم على الباب وأدخل عليه) . قال عبد الله : (اني اخاف عليك اذا دخلت) . قال الحسين : (لا آتيه الا وأنا قادر على الامتناع) . ثم قام وجمع اليه اصحابه وأهل بيته حتى أقبل على باب الوليد وقال لاصحابه: (اني داخل فاذا دعوتكم او سمعتم صوتي قد علا فادخلوا علي بأجمعكم والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم) . ثم دخل الحسين على الوليد ومروان عنده ، فسلم وقال مروان : (الصلة خير من القطيعة ، والصلح خير من الفساد ، وقد آن لكما ان تجتمعا أصلح الله ذات بينكما) . وجلس الحسين فأقرأه الوليد الكتاب ، ونعى له معاوية ودعاه الى بيعة يزيد ، فاسترجع الحسين وترحم على معاوية وقال : (اما البيعة فان مثلي

لا يبايع سرا ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الامر واحدا) • فقال الوليد وكان يحب المسالمة : (انصرف) • فقال مروان للوليد : (اذا فارقك الساعة ولم يبايع ما قدرت منه على مثلها ابدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبسه فاما بايع والا ضربت عنقه) • فوثب عند ذلك الحسين وقال : (يا ابن الزرقاء ، أأنت تقتلني ام هو ؟ كذبت والله) • ثم خرج حتى اتى منزله • فقال مروان للوليد : (عصيتني، لا والله لا يمكنك من نفسه بمثلها ابدا) • فقال الوليد : (والله يا مروان ما أحب ان يكون لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وان أقتل حسينا ان قال لا أبايع ، والله اني لا اظن من يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة) • قال مروان : (قد أصبت) • قال هذا وهو غير حامد له رأيه •

«وأما عبد الله بن الزبير فلما اتاه رسول الوليد اجاب بقوله : (الآن آتيكم) • ثم اتى داره فتمكن فيها ، ولما بعث اليه الوليد وجده قد جمع اصحابه واحترز ، فألح عليه الوليد وهو يقول : (امهلوني) • فبعث اليه الوليد مواليه فشتموه وقالوا له : (يا ابن الكاهلية لتأتين الامير او ليقتلنك) • فقال لهم : (والله لقد استربت بكثرة الارسال ، فلا تعجلوني حتى أبعث الى الامير من يأتيني برأيه) • فبعث اليه اخاه جعفر بن الزبير، فقال جعفر للوليد : (رحمك الله ، كف عن عبد الله فانك قد افزعته وذعرته ، وهو يأتيك غدا ان شاء الله ، فمر رسلك فلينصرفوا عنه) • فبعث الوليد اليهم فانصرفوا ، وخرج ابن الزبير من ليلته فأخذ طريقه الى مكة هو وأخوه ليس معهما ثالث • فسرح الوليد الرجال في طلبه فلم يدركوه ، فرجعوا وتشاغلوا عنه بالحسين ليلتهم • فقال لهم الحسين (اصبحوا ثم ترون ونرى) • فكفوا عنه ، فسار من ليلته وأخذ معه بنيه واخوته وبني اخيه وجل اهل بيته • وكان ذلك بعد ليلة من خروج ابن

الزبير .

«وقبل ان يخرج الحسين من المدينة اشار عليه اخوه محمد ابن الحنفية ان يدعو الناس الى بيعته ويصبر على ذلك . فلما اتى مكة تقاطر اليه الناس ليبايعوه ، ولكن بعض الناس اشاروا عليه ان يقدم الكوفة ويستنصر اهلها . وأشار عليه آخرون بالبقاء في مكة يستظل بالحرم لان اهل الكوفة لم يخلصوا في نصرة ابيه من قبله . وأظنه بعث بابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ليرى رأي اهلها في قدومه اليهم . فاذا تمت له بيعتهم وجاء الكوفة فسيبايعه العراق والحجاز فيتم له الامر ويفشل يزيد ، وفي فشله انتقام كاف لكما . فاذهبا الى مكه وانصرا الحسين فانه أولى الناس بهذا الامر ، والله ينصركم اجمعين» .

فلما سمعا قوله استحسناه ونهضا ، فقبل رأسيهما مودعا دون ان يريا وجهه ، وأوصاهما بسرعة الخروج من الشام لئلا يعلم بهما يزيد او احد رجاله .

- ١٢ -

سلمى لم تمت

فلنترك عامرا وعبد الرحمن في طريقهما الى مكة ولنعد الى دمشق لنرى ما حدث لسلمى بعد ان أمر يزيد بتجريعها العسل . وذلك ان الخليفة لما افترق عن عبيد الله والطبيب وسار يلتمس فراشه مر بالحجرة التي كانت سلمى فيها وكانت العجوز واقفة بالباب تنتظر أمره فأشار اليها ان تنقلها الى المقصورة وتحتفظ بها هنالك .

وكانت سلمى بعد خروج عبيد الله بن زياد من عندها قد ايقنت بفشلها وتحققت وقوعها في الشرك ، ولكنها اصبحت لا تبالي بالحياة بعد ما سمعته عن مقتل عبد الرحمن • على انها كانت تود ان تنتقم له قبل موتها• وراجعت ما مر بها من الاهوال في تلك الليلة فرأت انها لو اطاعت يزيد وسايرته فيما التمسه منها من لعن علي لتمكنت من الفتك به ، ولكنها رأت تلك المداهنة فوق طاقتها وعلى غير السجايا التي فطرت عليها ، فلم تندم على ما صنعته •

وفيما هي تردد تلك التصورات في ذهنها ، دخلت العجوز واستأذنتها في اصطحابها الى المقصورة فأطاعتها وهي لا تبالي بما هنالك من الموت والحياة • فمشت في اثرها حتى صعدتا الى المقصورة فظلت العجـــوز بالباب • ودخلت سلمى وجلست على الفراش ، ونظرت الى ما بين يديها من آنية الخمر والشموع والفاكهة وتذكرت جلوس يزيد الى جانبها وما دار بينه وبينها من الحديث ، وكيف انها بعد ان كادت تصيب مرماها منه عادت العائدة عليها • ثم تذكرت حبيبها مقتولا يتخبط في دمه فاقشعر بدنها ، واشتدت حيرتها •

وفيما هي في ذلك سمعت وقع أقدام على السلم فخفق قلبها خفوقا سريعا ولبثت تترقب ما يكون واذا برجل دخل المقصورة وعليه العباءة والعمامة وفي يده قدح ، وكان هو الطبيب ، فلما رأتــه اطرقت وظلت صامتة • فدنا منها وقدم لها القدح وهو يقول : «اشربي هذا العسل بأمر امير المؤمنين فانه قد ينعشك» •

فأدركت انه مسموم فتناولته ويدها ترتعش وقالت : «سأشربه وأنا أعلم انه سم قاتل» •

قال : «كيف تقولين انه سم وأنا اقول لك انه عسل ؟»

قالت : «انا أعلم انه سم ، وأرجو ان يكون كذلك ، لانه اذا أماتني

اراحني من هذه الحياة • فقل انه سم ليطمئن قلبي ، واعلم اني لاحقة بأبي وابن عمي على عجل» • قالت ذلك وخنقتها العبرات •

فتأثر الحكيم بكلامها ، ولكنه كان قد تعود اخفاء شعوره فتظاهر بالاستخفاف وقال : «اشربيه مهما يكن من امره اذ لا بد من شربه» •

فرفعت يدها وهي قابضة على القدح وقالت : «اني اشرب هـــــذا السم باسم الله وأرجو ان يلحقني بالامام علي وأن يقربني من ابي وابن عمي» • ثم نظرت الى القدح وقالت : «بورك فيك من دواء !• انـــي اشربك باسم الحق والعدل ، وأطلب من الله ان ينتقم لي ولأبي ولابن عمي من ذلك الظالم» • وأدنت القدح من فمها ثم ارجعته وقد غلب عليهـــا الضعف ونظرت الى ما حولها كأنها تودع الدنيا وما فيها • ثم قالت : «هلا أريتموني عبد الرحمن ولو مقتولا ؟ بالله اروني اياه قبل موتـــي لأبكيه وأندبه • أيموت عبد الرحمن على قيد أذرع مني ولا اراه ؟•• أهذا عهدي بك يا عبد الرحمن ؟ اين انت وكيف قتلوك ؟• هل قتلوك بالعسل ام بالسيف ؟• تعال وانظر خطيبتك • وهي تتجرع السم بلـــذة وشوق لانه سيجمعها بك • هل علمت قبل موتك انك ستلاقيني عاجلا ؟ هل انبأوك قبلما قتلوك بأنهم سيقتلونني الان ؟ ليتهم اخبروك لتتأسى بقرب لقائي» •

ثم وقفت وقد هاجت عواطفها وتبدلت حالها وظهر الهياج في عينيها وقالت : «هل قتلوك حقيقة ؟• لا • لا • لم يقتلوك • أظنهم اشفقوا على شبابك ؟ ولكنهم قوم طغاة لا يعرفون الشفقة ، ولولا ذلك ما استهانوا بالنبي وقتلوا نخبة الصالحين من اهل بيته ، فلا غرو اذا قتلونا» • ثم سكتت قليلا وقالت : «ترى اين انت يا عماه ؟ هل علمت بمصيري وهل تذكر وصيتي ؟ ماذا يكون من امرك اذا سمعت بمقتلي ومقتل عبد الرحمن؟ هل انت ذاكر وعدك ؟ امض الى تربة ابي وابكه عني واسكب عليـــه

الدموع ومزق الضلوع ، بل ابك الاسلام واندب المسلمين لما اصابهم من الحيف بخروج الخلافة الى هؤلاء الظالمين» •

وكانت تتكلم والطبيب واقف لا يبدي حراكا وقد ظل صامتا وهو ينظر اليها ويعجب بشهامتها وقوة عارضتها •

اما هي فأدنت القدح من فمها ثانية ونظرت الى ما فيه ، ثم التفتت الى الطبيب وقالت : «اخشى ان يكون السم قليلا لا يكفي لقتلي فأتعذب • فاذا كان قليلا فأضف اليه سما آخر» •

فقال الحكيم بهدوء : «اشربي يا بنية ولا تطيلي الكلام ، فقد نفد الوقت وفات الاجل الذي ضربه الخليفة لي» •

قالت وهي تهز رأسها وتحرق اسنانها : «آتخاف هذا الظالم ولا تخاف الله ؟• أتركب العقاقير القتالة لقتل الابرياء ثم تخاف من لوم يزيد اذا تأخرت في قتلهم ؟ ولكنكم تضافرتم على الظلم وتحالفتم على الخيانة • ويل لكم من مشهد يوم عظيم • في مكان لا ينفعكم فيه سلطانكم ولا جنودكم • يوم تأتي الساعة وينفخ في الصور وتقفون بين يدي الديان العظيم » •

فقطع الطبيب كلامها وقال : «لا تكثري الكلام واشربي القدح عاجلا » •

فقالت : «اني اشربه ولا اخاف منه ، لانه ترياق لمصابي • ولكني اريد ان ارى عبد الرحمن • فأين هو ؟• آه • قتلتموه • نعم قتلتموه ولكن ماذا فعلتم بذلك الجسد الطاهر : هل مثلتم به ؟ وهل دفنتموه ؟• آه اني ارى اعضاءه تختلج ودمه يجري ، وكأني أسمع شخيره في آذني• نرى هل ذكرتني يا عبد الرحمن قبل موتك ؟ هل ذكرت سلمى وتمنيت ان تراها قبل موتك ؟• يا ليتهم قتلونا معا ودفنونا في قبر واحد فتمتزج دماؤنا وتختلط عظامنا • ويا ليتهم يدفنوننا بجانب قبر ابي ، فنشكو له

ما لقيناه وما يقاسيه المسلمون وما يتوقعه الاسلام من الفوضى ، ولكننا سنلتقي به عما قليل في مكان لا وشاية فيه ولا ظلم ولا رياء ، لقد أزفت الساعة وآن لي ان القاهما • استودعك الله ايها العالم الفاني • أستودعك الله ايتها الحياة الزائلة • انك مملوءة شرا . ولا عدل فيك ولا حق» • ثم أدنت القدح من فمها وهي تقول : «أشرب هذا الكأس باسم الله» • وشربته جرعة واحدة ويدها ترتجف ، ثم استلقت على الفراش وهي تتلو الفاتحة وتردد اسم عبد الرحمن •

* * *

لم تمض برهة حتى غابت سلمى عن الدنيا وشفتاها ترتجفان كأنها تخاطب عالم الارواح وقد امتقع لونها وبردت اطرافها ، فخرج الطبيب وأغلق الباب ، ونزل ، وكانت العجوز قد نزلت ساعة دخوله •

أما هو فظل سائرا الى غرفة عبيد الله بن زياد وكان في انتظاره على مثل الجمر ، فدخل عليه وأغلق الباب وراءه فقال له ابن زياد : «مادا فعلت ايها الطبيب ؟»

قال : «لقد سقيتها العسل» •

قال : «وهل فعلت ما وعدتني ؟»

فضحك وقال : «وماذا وعدتك به ؟»

قال : «ألم اطلب اليك ان تضع بدل السم مخدرا ، وجعلت لك جعلا على هذا ؟»

قال وهو يضع يده على كتف عبيد الله : «نعم اني وعدتك بذلك ، وهكذا فعلت فالفتاة لم تمت ولكنها نائمة» • ومد يده الى جيبه وأخرج قارورة وقال : «واليك هذا العقار في هذه القارورة فاذا سقيتها اياه

افاقت . ولكن احذر ان تبقيها هنا بعد يقظتها فيعلم بها امير المؤمنين وتدور الدائرة علي» .

قال : «لا تخف ، وسأخبر الخليفة بموتها وأبعث من يحفر قبرها ، ثم أبعثها الى مكان خارج المدينة وهي نائمة كأنها محمولة الى القبر ، ومتى استفاقت أبقيتها خارج دمشق حتى أسافر فأحملها معي ولا يعلم بها احد سواي . وأنا لم أود استبقاءها الا املا في ارجاعها عن غيها . فاذا فعلت ذلك رضي امير المؤمنين عني وعنك ، وشكرنا على صنيعنا ، لانه فتن بجمالها ولولا غضبه لم يأمر بقتلها . ولا شك في انه اذا اصبح ندم على ما فعل . اما انت فاكتم الامر ولك مني فوق ما اعطيتك» .

فشكره الطبيب وانصرف . وكان عبيد الله بعد ان امر يزيد بقتل سلمى قد خلا بالطبيب وأغراه بالمال الكثير لكي يبدل بالسم مخدرا ، ثم يحتال لاخراج سلمى الى مكان منفرد بدلا من دفنها ، وهناك يحاول استرضاءها لعلها تقبله زوجا لها . وكان ما زال عالقا بها .

فلما اخبره الطبيب بما فعله ، سار توا الى يزيد وأنبأه بموتها فقال له : «ابعث من يدفنها قبل طلوع النهار» . فأمر اثنين من رجاله ان يكفناها وبعث آخرين لحفر القبر . وأوصى الاولين بأن يحملاها الى مكان منفرد خارج المدينة حالا ، وتظاهر بأنه ارسلها الى المقبرة .

وعاد اللذان حفرا القبر قبل الفجر مذعورين لما رأياه من خروج عامر وعبد الرحمن وهما يحسبانهما عفريتين ، فقصا الخبر على عبيد الله ، فأمرهما ان يقصاه على الخليفة لعله يستطيع الاستعانة بذلك اذا علم الخليفة ببقائها حية فيما بعد . ففعلا .

- ١٣ -

الى الكوفة

في صباح اليوم التالي ابطأ يزيد في الخروج الى المجلس لانه قضى ليله ساهرا فنام في الصباح ولم يستفق حتى الظهر ، فجاء الى المجلس وعبيد الله غائب ، ولم يكد يستتب به المجلس حتى دخل عليه الحاجب يقول : «ان بالباب رسولا من الكوفة» .

قال : «فليدخل» .

فدخل رجل عليه علامات السفر وبيده كتاب ، فسلم ودفع الكتاب الى يزيد ، فتناوله وفضه فاذا هو من عبد الله بن مسلم احد أنصار بني أمية في الكوفة ، فقرأه واذا فيه بعد البسملة :

«الى امير المؤمنين يزيد بن معاوية ، من عبد الله بن مسلم . أما بعد : اعلم يا امير المؤمنين ان الناس في الكوفة والبصرة قد ضعف امرهم بضعف اميرهم النعمان بن بشير ، فقد وليته الكوفة وهو رجل ضعيف، او هو يتضاعف ، حتى كاد الامر ان يفضي الى اعدائنا . فاذا كان لك حاجة في الكوفة فارسل اليها رجلا قويا ينفذ امرك ويعمل مثل عملك في عدوك . وتفصيل الخبر ان اهل الكوفة لما بلغتهم وفاة معاوية رحمه الله، وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعة ، ارجفوا بأمير المؤمنين، واجتمعت شيعة علي في منزل احد كبارهم ، فذكروا مسير الحسين الى مكة وكتبوا اليه كتابا قالوا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك، فاننا نحمد الله الذي لا اله الا هو . أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي اجترأ على هذه الامة فابتزها امرها وغصبها فيأها وتأمر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها . وانه

ليس علينا امام ، فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد ، ولو بلغنا اقبالك الينا اخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى ؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته) . وسيروا هذا الكتاب الى الحسين في مكة، وبعثوا اليه كتبا اخرى في مثل ذلك . وكان جملة ما ارسل من هذه الكتب نحوا من مائة وخمسين صحيفة . وأرسلوا اليه رسلا عديدين فجاءهم من الحسين كتاب قال فيه : (أما بعد فقد فهمت كل الذي قصصتم ، وقد بعثت اليكم بأخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي مسلم ابن عقيل ، وأمرته ان يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم ؛ فان كتب الي انه اجتمع رأي ملتكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، أقدم اليكم وشيكا ان شاء الله . فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق . والسلام) .

«وقد حدث مثل ذلك يا امير المؤمنين في البصرة ايضا . وقد جاء مسلم الى الكوفة بعد ان قاسى في طريقه عذابا عظيما من العطش ، ونزل بدار احد شيعة الحسين ، وصار الناس يختلفون اليه وهو يقرأ عليهم كتب الحسين فيبكون ويعدونه بالقتال معه . فلما بلغ ذلك النعمان بن بشير صعد المنبر وقال : (أما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال . واني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا اثب على من لم يثب علي ، ولا أنبه نائمكم ، ولا أتحرش بكم ، ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة . ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم ؛ فوالله الذي لا اله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولا يكن لي منكم ناصر ولا معين . أما اني ارجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يريد به الباطل) .

«فلما رأينا كلامه لا يفيد القطع ولا يدل على الحزم ، قام اليه واحد منا وقال له : (ان هذا لا يصلح الا الغشم ، وانه رأي المستضعفين) . فما كان جوابه الا ان قال : (لان اكون من المستضعفين في طاعة الله أحب الي من ان اكون من الأعزين في معصيته) . فزادنا قوله خوفا منه، فكتبت هذا ليكون امير المؤمنين على بصيرة ، ويعلم ان ابن بشير لا يصلح لهذا الامر . فأرسل الينا من يعمل مثل عملك والسلام» .

فلما قرأ يزيد الكتاب اضطرب وتشاءم مما ارتكبه بالامس ، وخيل اليه انه أذنب بقتل سلمى وهي فتاة ، وندم على فعله وأراد صرف مجلسه ليخلو ببعض خاصته فقال : «على بركة الله» . فعلم أرباب المجلس انه يريد صرفهم وكانت تلك عادته كلما اراد ذلك ، فانصرفوا . ثم بعث الى «سرجون» وهو رجل رومي ذو دهاء وحكمة كان معاوية يعتمد عليه في شؤونه ويستشيره في أموره حتى جعله كاتبه ، فلما مات معاوية ظل يزيد على الثقة به ، فلما جاءه أطلعه على الكتاب فأطرق هنيهة ثم قال : «أرأيت اذا نشر معاوية هل تأخذ برأيه ؟»

قال : «نعم» .

فمد سرجون يده الى جيبه وأخرج كتابا وقال : «خذ هذا» .

فأخذه يزيد وقرأه فاذا هو عهد لعبيد الله بن زياد يوليه به الكوفة .

فقال يزيد : «ما هذا ؟»

قال : «هذا رأي معاوية ، انه مات وقد امر بهذا الكتاب» .

فاستحسن يزيد الرأي ، وعزم على ان يولي ابن زياد الكوفة والبصرة ، فنادى الحاجب وسأله عن عبيد الله ، فافتقده في القصر فلم يجده ، فصبر يزيد حتى جاء ودخل وسلم ثم دفع اليه كتاب عبد الله بن مسلم ، ولم يقل شيئا .

فتناول ابن زياد الكتاب وقرأه حتى اتى على آخره وسكت مطرقا .

ثم دفع اليه يزيد كتاب توليته الكوفة والبصرة ، فلما قرأه قبلــه ووضعه على رأسه وقال : «اني صنيعة امير المؤمنين ويده التي يحارب بها وسهمه الذي يرمي به اعداءه» •

فقال له : «سر الى الكوفة واصلح أمورها ، وامنع اولئك النــاس منها ، وكن لي كما كان ابوك لأبي» •

فقال : «سمعا وطاعة» • وقد سره ذلك لتمكنه من الخروج من دمشق عاجلا ، فيخلو له الجو لاسترضاء سلمى ، وكان قد بعث بها خفية قبل الفجر الى بيت منفرد في اطراف الغوطة كما تقدم ، ثم سار هو فــي الصباح اليها وسقاها العقار الذي اعطاه اياه الطبيب وانزوى في مكان هناك لمراقبتها • فلما افاقت ورأت النور ظلت برهة مبهوتة لا تدري ما تقول ، وعبيد الله لا يخاطبها ، وفي اعتقاده انها اذا افاقت ورأت نفسها حية تعترف له بالجميل • فلما افاقت تبادر الى ذهنها لاول وهلة انهــا بعثت من الموت وانها في العالم الثاني فصاحت : «اين عبد الرحمن ؟ اين هو ؟• اروني اياه •• هل انا في النعيم ؟• عبد الرحمن ! عبد الرحمن !»

فضحك عبيد الله ، ولما سمعت ضحكته التفتت اليه وهي تفرك عينيها بأناملها ، وحالما رأته صاحت : «انت هنا يا لئيم ! اني اذن في الجحيم • اذهب من وجهي» •

فدنا عبيد الله منها وأمسك بيدها وقال : «انت في هذه الدنيا يــا حبيبتي وقد استبقيتك شفقة عليك» •

فجذبت يدها من يده وصاحت : «اخسأ يا نذل ، اني لا اريد الحياة الا اذا كان عبد الرحمن فيها • اقتلني اقتلني • قتلك الله اشفق علــي واقتلني » •

فعذرها لتهيجها وقال لها : «اني أعاملك بما تستحقينه لانك جاهلة، وسأصبر عليك ريثما تملكين روعك ، وأنت اسيرة بين يدي لا ينجيك

من غضبي غير الرضا والاذعان • فامكثي هنا حتى ترجعي الى رشدك او تموتي» • قال ذلك وتركها وأمر الرجلين ان يحرساها ريثما يعود •

فلما رجع الى دمشق وقدم له يزيد كتاب توليته الكوفة والبصرة كما قدمنا واستبشر بنيل مرامه على مهل ، وعلل نفسه باسترضائها في اثناء الطريق الى الكوفة •

***

قضى عبيد الله بضعة ايام يتأهب للمسير وأعوانه يهيئون الاحمال خارج دمشق وفي جملتها هودج حمل سلمى فيه على جملين وأقام عليها خادمين يحرسانها ويقدمان لها الطعام والماء • وكانت في بادىء الرأي لا تقبل طعاما ولا شرابا التماسا للموت جوعا وعطشا حتى نحل جسمها وامتقع لونها ، ولكن الحياة عزيزة لا يتعمد المرء فقدها عن روية ، ولكنه اذا أصيب بضنك شديد قد يؤثر الموت على الحياة في حال غضبه ، فاذا طال اصطباره فانه يحن الى البقاء ويلتمس لحنينه عذرا يحبب الحياة اليه • فلما مضى على سلمى يومان بلا اكل ولا شرب ورأت الموت لا يتهيأ لها على هذا السبيل الا بعد العذاب الطويل ، عادت تلتمس البقاء وعذرها في التماسه ان تعمل على الانتقام من سبيل آخر لا خطر فيه على حياتها •

وكانت قد علمت من قرائن الاحوال انهم سائرون بها الى الكوفة ، وان الحسين سائر اليها ايضا ، والناس في الكوفة على دعوته • فتوسمت في البقاء خيرا ، وأملت ان تنتقم لابيها وخطيبها فجعلت تتناول من الطعام والشراب ما تسد به رمقها •

وكان عبيد الله في اثناء مسير الركب يتردد على سلمى ، تارة

يستعطفها ، وطورا يهددها ، وآونة يؤملها وأخرى يخوفها ، وهي ترفض رفضا باتا . وكثيرا ما كانت تسمعه كلاما مؤلما وهي تعلم ان الجفاء لا يجديها نفعا ، وانها لو عاملته بالحسنى واستخدمت الاين والدهاء لنالت بغيتها . ولكنها لم تكن تستطيع التغلب على انفتها . وكانت من الجهة الاخرى تخاف اذا لاينته ان تطمعه فيما تخافه وتنفر منه .

قضت في مثل ذلك خمسة ايام والركب سائر في الصحراء في ارض لا عمارة فيها ، ولا مياه الا بعض الآبار . وسلمى تشغل نفسها في اثناء الطريق بالاشراف من الهودج على ما يحيط به من السهول القاحلة والرمال الحمراء . على انها كثيرا ما كانت تتحاشى شق الستور فرارا من الرياح الحارة وما تحمله من الرمال .

وفي صباح اليوم الخامس . اخترقوا بقعة منبسطة ادهشها منظرها حتى نسيت ما هي فيه . وكانت مساحة البقعة بضعة أميال ، وقد غطتها ابنية خربة وفيها الجدران العالية والاساطين الشامخة والاسوار الغليظة بين متهدم ومتداع ، وقد استولى عليها السكون وتمكن منها الخراب كأنها جثث بالية او عظام آكلها الدود . على ان حجارتها كانت تنطق بأجلى بيان عما كان هنالك من العظمة وشدة البطش في قديم الزمان .

تلك خرائب تدمر الطائرة الصيت ، تدمر العظيمة التي زهت في أوائل النصرانية وسار بذكرها الركبان . وقد كانت واسطة عقد التجارة بين العراق والشام ، حتى اذا تداعت الى الخراب جعلوها محطا للقوافل فيما بين هذين البلدين .

عمرت تدمر في أوائل القرن الثاني للميلاد على اثر سقوط دولة الانباط شمال جزيرة العرب وغربيها . فاستولى عليها الرومان سنة ١٣٠ م. فازدهرت تجارتها ، وكانت مستقلة بشرائعها وأحكامها ، يتولى النظر في شؤونها مشيخة من اهلها . ومد الرومان بينها وبين دمشق

طريقا تسير فيه المركبات وعليها أصناف التجارة من الانسجة والآنية والمؤونة • وبنى التدمريون في مدينتهم ابنية ينسب اليها ، اقاموها على الأساطين المنحوتة وفوقها التماثيل من الحجر الابيض المحمر • وكان يقطع المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي طريق واسع في اوله قوس نصر بجانب هيكل هائل يعرف بهيكل الشمس آشبه شيء بهيكل بعلبك • وطول هذا الطريق الف وثلاثمائة متر ، تحف به الاعمدة من الجانبين في رواقين عدد اساطينهما الف وخمسمائة ، ولونها ابيض مائل الى الحمرة • وفي الأروقة مساطب مستطيلة كانوا يسندون اليها الاحمال الواردة الى تدمر من اقاصي المعمورة وفيها أحمال الحرير والديباج الدمشقية ، والآنية اليونانية ، وجلود الماشية المحمولة من جزيرة العرب على جمال يسوقها بدو من اهل الحجاز • وأحمال من جرار صنعت بفلسطين • وكانت اسواق تدمر في ذلك العهد تعج بالمارة عجيجا ، وهم أخلاط من الامم المتمدنة ، وفيهم النخاسون من مصر وآسيا الصغرى ، والتجار من الفرس والشام وارمينيا ، والمرابون والصيارف من اليهود • فضلا عن الباعة الذين يحملون سلعهم على اكتافهم ينادون عليها في الدروب والحارات ، فتختلط اصواتهم بنداء باعة الملح ، الذي كان من اعظم تجارات هذه المدينة •

ولو أتيح للقارىء ان يزور تلك المدينة في ايام مجدها على عهد الملكة زينوبيا في القرن الثالث للميلاد ، لبهره ما كان فيها من دلائل الترف والبذخ ، وعلم من الفرق البعيد بين قصورها وأكواخها ان الثروة كانت منحصرة في فئة من اهلها ، وان تمدنها كان شرقيا لا رومانيا ولا يونانيا • وكان التدمريين تشبهوا بقدماء المصريين في استبقاء مجدهم بعد موتهم فبنوا لانفسهم قبورا كالقصور شادوها بالاحجار الهائلة في أكناف المدينة فكانت مدينة اخرى سكانها من الاموات • ولو بعث التدمريون بعد

ذلك بضعة قرون لرأوا قصورهم أشد وحشة من قبورهم !

اشتهرت تدمر في أواسط القرن الثالث للميلاد بالملكة زينوبيا ؛ فطمع فيها الرومان في الغرب ، والفرس في الشرق ، وقامت الحرب سجالا بينهما حتى تغلب الرومان فملكوها ، ولكنها لم تدم لهم ولا لغيرهم فلم تمر بها أجيال حتى اصبحت في زوايا الاهمال ، وتحولت قصورها الى خرائب وصارت هياكلها جحورا للضب والحية وأوكارا للطير . ونعق على منابرها البوم بدل خطابة الخطباء ووعظ الوعاظ .

واو عقل ابن زياد يوم أشرف على تلك الخرائب ، وعرف تاريخ تلك الآثار لعلم مصير الانسان ؛ وانه لا يبقى له من مجده الا ما كسبت يداه من خير او احسان ، وقال مع الامام علي : «الدنيا دار اولها عناء ، وآخرها فناء ، في حلالها حساب ؛ وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن» . ولخجل ما ارتكبه هو وولى امره من ضروب العسف ؛ وهان عليه ان يطلق سراح اسيرته شفقة على صباها ورحمة بما في قلبها من لوعة الحزن على ابيها وخطيبها .

ولكنه جهل ذلك او تجاهله ، واندفع في تيار الشهوات . ولم يزدد في تلك الخلوة الا قسوة . ولم يعد يصبر على نيل بغيته حتى يصل الى الكوفة فأمر بحط الرحال ونصب الخيام ، فنصبوها على مرتفع يشرف على تلك الخرائب الناطقة وفيها بقايا الاسواق والهياكل والقصور والقبور . وأمر ان يقيموا هناك يوما كاملا يستريحون فيه ثم يرحلون. وأناخ هودج سلمى في مكان منفرد عن معسكره بقرب هيكل الشمس ، وشغل أعوانه بانزال الاحمال ثم مشى هو الى سلمى وكانت جالسة كئيبة تتأمل في حالها وتصبر نفسها الى بلوغ الكوفة . ولم يخطر ببالها ما نواه ابن زياد . فلما وصل الى خيمتها أمر الحراس ان يبتعدوا ، ثم دخل فوجدها جالسة على بساط وقد أثر السفر والتعب والحزن في

جسمها فهزلت وامتقع لونها ورقت وجنتاها وذبلت عيناها وأصبح العبوس غالبا عليها •

فلما رأته داخلا قرأت الشر في وجهه فاستعاذت بالله ، وكأنه ادرك خوفها فتلطف في سؤالها عن حالها فلم تجب • فقال لها : «قومي يا سلمى واتركي الخيمة وادخلي هذا القصر وتأملي في صنعه» •

فأدركت انها اذا امتنعت ساقها بالعنف فسايرته ومشت حتى دخلت الهيكل ؛ فأعجبت بما رأته من سعته وارتفاع جدرانه وكثرة اساطينه • فان مساحته كانت نحو مائتي متر مربع ، وجدرانه من حجارة هائلة علوها سبعون قدما لا يزال معظمها قائما ، وفي صحن الهيكل اساطين ضخمة متشامخة متراصة في صفوف متداخلة يزيد عددها على مائة وخمسين ، عدا المتساقط والمتهدم •

فلما رأت نفسها في تلك الخربة الهائلة مع ابن زياد وليس معهما ثالث ارتعدت فرائصها وتحققت وقوع المحظور • وكان الضعف قد تمكن منها ولم تعد تقوى على الدفاع فاصطكت ركبتاها وعجزت عن المشي ، فأسندت ظهرها الى اسطوانة بجانبها حجر كبير جلست عليه وهي ترتجف ، فأدرك عبيد الله حالها ، فعمد الى الرفق بها فجلس الى جانبها وهو يحاذر ان يلمسها لئلا تجفل وقال لها : «أتعلمين يا سلمى انك وحيدة في هذا المكان وان حياتك بيدي ، واني نائل ما أريد ولو بلغ صراخك عنان السماء اذ ليس من يسمع صوتك غير هذه الاحجار ؟• فقد طالما نصحتك وأنت تدافعينني ، ولقد عاملتك باللين واللطف حتى طفحت الكأس وآن لك ان ترعوي• فما ضرك لو اقلعت عن جهالتك وأصغيت لنصيحتي وأطعتني فتكونين زوجتي ؟• وأنت تعلمين اني يد امير المؤمنين وسيفه الذي يناضل به وقد ولاني الكوفة والبصرة ، فاذا عقلت وأطعتني كنت سيدة نساء الكوفة • واذا شق عليك لعن ابي تراب فلا

أكلفك لعنه . وانما اطلب اليك ان تقبلي اقترانا : فأعطيك ما تريدين وتعيشين معي في نعيم يتمناه الكثيرات» .

وظلت سلمى ساكتة . فقال لها : «اراك ساكتة فهل سكونك هذه المرة مثل سكوتك بالامس في دار الخليفة ؟ ام هو دليل على رجوعك الى الصواب ؟. ويكفيني برهانا على ذلك ان تعطيني يدك فأقبلها» . قال ذلك ومد يده اليها .

فلما سمعت كلامه ورآته يمد يده وقفت وتباعدت ، ولكنها شعرت بالضعف وتحققت انها اذا جافته فعل بها ما يشاء ولا تقوى على دفعه. على ان نفسها لم تضعف مثلما ضعف جسمها . فلما دنت يده منها دفعته وصاحت بأعلى صوتها : «أتغتنم ضعفي يا عبيد الله وتستبد بي . وتزعم اننا في خلوة لا يرانا فيها احد ؟ ألا تعلم ان الله يراك وهو قادر على اذلالك كما أذل بناة هذه القصور وكانوا ملوكا فأصبحوا ترابا ؟ خف من الله يا ابن زياد واشفق على ضعفي» .

فقال لها : «لقد صبرت عليك كثيرا وأكثرت من الرفق بك حتى لم يبق مكان للصبر عندي . فاعلمي انك واقفة بين الحياة والموت . فاذا انت أطعتني حييت سعيدة مكرمة معززة ، والا فاني أصلبك الى هذه الاسطوانة ثم اطعنك بهذا الخنجر وأتركك طعاما لطيور السماء» . قال ذلك وأشار الى خنجره .

فعظم الامر على سلمى وغلب عليها اليأس وأيقنت بدنو أجلها فبسطت كفيها الى السماء وصاحت بأعلى صوتها : «اني أستجير بك يا رب العالمين يا نصير المظلومين ، أستجير بك من هذا الباغي الاثيم . فابعث الي من لدنك من يأخذ بناصري وينقذني . اشفق اللهم على فتاة لا ذنب لها الا الانتصار لنبيك والغيرة على اهل بيتك الطاهرين» .

★ ★ ★

وكانت سلمى تتكلم والصدى يدوي في تلك الخرائب ؛ وهم ابن زياد بأن ينتهرها فاذا بكلب ينبح بين الاساطين ونباحه يقرب نحوهما • ولم تمض برهة حتى دنا الكلب واذا هو اسود كبير ؛ فلما رأته سلمى علمت انه شيبوب كلب الناسك فاستغربت وجوده في تلك الخرائب ؛ ولم يكن عبيد الله أقل استغرابا منها • أما الكلب فوثب على عبيد الله وهو ينبح نباحا شديدا دوى له المكان دويا عظيما ، فاستأنست بـه وخيل اليها انه جاءها بالفرج القريب•

اما عبيد الله فلما رأى الكلب واثبا عليه استل خنجره وطعنه في ظهره طعنة غاص بها النصل الى نصفه ؛ فعوى الكلب عواء شديدا من شدة الالم وانثنى مسرعا حتى خرج من الهيكل •

والتفت عبيد الله الى سلمى وقال : «كأني بك قد استأنست بهذا الكلب وحسبته فرجا جاءك من ربك ، فها قد قتلته ، واذا بقيت على غيك ألحقتك به ومزجت دمه بدمك» • قال ذلك والخنجر بيده والدم يقطر منه •

فقالت : «اغمد خنجرك في صدري ، وأرحني من رؤيتك»•

قال : «سأفعل ذلك بعد ان اتركك ساعة تستخيرين فيها نفسك» • قال ذلك وحل عمامته وربط بها أكتافها من الوراء وشدها الى الاسطوانة، وتناول نقابها وقيد به رجليها ، وتركها مصلوبة مكشوفة الوجه وخرج وهو يقول : «استخيري نفسك ، وسأعود اليك بعد ساعة ، فاذا بقيت على غيك أغمدت خنجري هذا في صدرك وتركتك بين هذه الخرائب طعاما للغربان • واذا رجعت عن غيك سرت بك مكرمة الى الكوفة» •

خرج عبيد الله وغادرها مصلوبة تئن من ضغط الوثاق ، فصغرت الدنيا في عينيها ، وعلمت ان العفة لا تصان الا اذا فديت بالروح فآثرت الموت • ولكنها استثقلت ان يطول عذابها على غير طائل وودت لو انه

اسرع في قتلها لتنجو من ذلك العذاب • ثم تذكرت شيبوب وشق عليها موته في سبيلها على غير فائدة ؛ وعادت تفكر في سبب مجيئه الى تلك الديار فلم تجد سببا سوى انه رأى الركب مارا بالغوطة فلحق به التماسا للطعام •

وظلت سلمى مصلوبة على تلك الاسطوانة وأفكارها تائهة في عالم الخيال. وهي تستعيد ذكرى عبد الرحمن •

- ١٤ -

سلمى والناسك

وفيما هي غارقة في لجج الهواجس سمعت انينا ، ثم رأت شيبوب مسرعا اليها وقد جمد الدم على جرحه وانسكب على كتفيه الى قوائمه • وقد فتح فاه واندلع لسانه وهو يلهث • فنادته سلمى فدنا منها وذيله لاصق بساقيه ثم القى نفسه بين رجليها وقد اخذ منه التعب مأخذا عظيما وأغمض عينيه ومدد رجليه وهو يئن انين النزع •

ولم تكد سلمى تتأمله وتأسف لحاله ، حتى رأت الشيخ الناسك بين يديها وهو يحل وثاقها بأسرع ما يستطيعه الشاب في عنفوان شبابه • فبغتت لرؤيته ولم تفه بكلمة • وكانت حركاته واشاراته تشير اليها ان تسكت • فلما حل الوثاق اومأ اليها ان تسرع امامه فأسرعت ثم حمل كلبه على ذراعيه وسار حتى سبقها ، فسارت في اثره لا تنبس ببنت شفة • ولكنها استغربت ذلك الاتفاق وعدته من قبيل المعجزات وكان الشيخ خلال

سيرهما ينثر التراب على آثار الدم في الطريق حتى لا يستدل بها احد الى المكان الذي قصداه .

وبعد مسير نصف ساعة بين الاحجار والعمد ، وصلا الى باب ضيق انحدرا فيه على درجات غير منتظمة والكلب على ذراعي الشيخ . وقبل الدخول عمد الشيخ الى حجر سد به الباب حتى لا يشك الذي يراه انه خال مهجور . ثم دخلا وقد اختفيا عن العيون ، وسارا الى مصطبة تحت الارض لا ينفذ اليها النور الا من شقوق الباب . فجلس الناسك وأجلسها . ووضع الكلب بين يديه على المصطبة وأخذ في البكاء والنحيب وهو يخاطبه وسلمى ساكتة تنظر الى ما يبدو منه ؛ فاذا هو يقول : «اسفي عليك يا رفيقي وصديقي . واحسرتاه عليك ايها الخادم الامين . لقد ختمت حياتك بشهامة يعجزالبشر عن مثلها . انك حيوان أعجم ولكنك خير من الناطقين ، لانهم ينطقون بالباطل ويستخدمون تلك الهبة السامية لارتكاب المنكرات واتيان المعاصي ، وأنت لا تعرف غير الخير ؛ صحبتك منذ بضعة عشر عاما وانت رفيقي وأنيسي . صحبتك بعد ان مللت صحبة الآدميين وعرفت شرور بني الانسان . ما أبلغ عجمتك وما أقبح نطقهم ! نعم انك حيوان اعجم ولكنك انقذت نفسا ناطقة . انقذت هذه النفس الطاهرة من منكر اوشك ان يرتكبه معها انسان يزعم انه ارقى منك خلقة واسمى عاطفة ، وهو لا يفوقك الا باقتداره على بث الدسائس ونصب المكائد . قوتل الانسان ما اكبر دعواه وأقل خيره ، وهو يفتخر انه سيد المخلوقات . ما صحبتك الا وأنا عارف فضالك وناظر خيرك . ولكنني لم اكن اعلم ان هذا مصيرك . وما حسبت انك سائر الى الموت قبلي» . قال ذلك وهو ينظر الى كلبه والكلب يتمطى ويختلج ويجيل عينيه حوله ويعاني عذاب النزع ، وسلمى تنظر اليهما ولا تتمالك عن البكاء . وقالت في نفسها : «اذا كان الشيخ يبكي كلبه لأمانته

وصدق مودته ، فكيف لا ابكي حبيبي وابن عمي وقد ذهب ضحية أمانته في خدمة الحق ؟»

وكان الشيخ يبكي ودموعه تنحدر على لحيته فتنسكب على الكلب وتختلط بدمائه • ثم رفع الشيخ بصره الى سلمى وقال لها : «لا تعجبي يا بنية لما ترينه من بكائي على حيوان أعجم ، فانه خير عندي من اولئك الآدميين • ألا ترينه ذكر صحبتك ومات في سبيل انقاذك ؟ ولكنه لم يمت رخيصا • انه ذكر صحبة يوم ويومين فلما اشتم رائحتك بين هذه الخرائب وكان نائما الى جانبي نهض كالليث الكاسر وأسرع اليك ثم عاد ودمه يفور من جرحه لشدة الطعنة وكأنه اشار الي ان ألحقه فتبعته • وفيما انا مار بين هذه الاساطين بصرت بذلك الرجل اللئيم خارجا من الهيكل ولا عمامة على رأسه والخنجر بيده وهو يهم باغماده • فلما اتيت اليك ورأيتك مصلوبة ادركت انه صلبك تهديدا فأنقذتك ، والفضل لهذا الحيوان الذي ترينه يقاسي غمرات الموت بين ايدينا • فمن يفعل ذلك من الآدميين ؟• كم من رجل تربينه في حجرك وتعسينه بخيرك ثم يكون وبالا عليك ؟ »

فتصورت سلمى احوال البشر ومظالم بني الانسان ومطامع اهل الشر ، وكيف انهم يقدمون الفضيلة قربانا على مذبح الاغراض فقالت : «صدقت يا مولاي ، ان صحبة هذا الكلب خير من صحبة كثيرين ، ولكن القضاء نفذ فيه ، ولا عجب فتلك عاقبة اهل الفضل من المخلوقات الناطقة ايضا» •

فتنهد الشيخ وتغيرت سحنته ، وكأنه أفاق من غفلته والتفت الى الفتاة وعيناه تقدحان شررا وقال : «ويدلك ذلك على صدق ما وعد به ربك من العقاب والثواب • والا فان الحياة ضرب من العبث لان العدل في هذه الدنيا غريب تائه لا يعرف مأوى • ولا نرى في أعماق الناس غير

المظالم الفادحة • نرى الاشرار في رغد وهناء وسعادة ، والابرار يقاسون مر العذاب • وما كان ربك ليثيب الظالمين ، وستأتي ساعة تلقى فيها كل نفس ما كسبت ان خيرا وان شرا ، وويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم ! »

فشعرت سلمى والشيخ يتكلم كأنه ينطق بلسان اهل السماء ، فقالت : «نعم لا بد من ذلك • وقد رأينا خير الصالحين يقتلون بأسياف الظالمين ، وهؤلاء يعيشون في سعة وسلطان • ولكن الله عادل ، فلا بد من يوم ينال فيه كل امريء ما كسبت يداه» •

وسكتا والشيخ يمسح دموعه ، ثم قال : «هلم بنا ندفن هذا الصديق الامين فقد بكيناه وسنبكيه كلما لقينا سرورا» • قال ذلك ونهض فحفر حفرة ، دفناه فيها • وتوقعت سلمى ان تسمع من الشيخ خبرا ، وتذكرت ما شاهدته من كراماته في دير خالد فقالت : «لعله ينبئني بشيء ينفعني • فلما عادا الى مخبئهما همت بخطابه فاذا هو يُفرك انامله وقد أطرق كأنه يفكر في امر ذي بال ، فأمسكت هي عن الكلام تهيبا واجلالا • أما هو فقال لها : «وما الذي جاء بك يا سلمى الى هذه الديار وقد كنت سمعت بمقتلك ؟»

فلما سمعت قوله استغربت اطلاعه على سر قتلها ثم تذكرت ما تعلمت من كرامته فزال استغرابها وقالت : «قتلوني يا سيدي ثم أحيوني • ويا ليتهم أبقوني ميتة» • قالت ذلك وخنقتها العبرات •

ففهم الشيخ انها تحسب عبد الرحمن ميتا ، وهو يعلم انه حي • فأراد ان يستطلع فكرها فقال : «وهل قتلوا عبد الرحمن ؟»

قالت : «أتسألني عن قتله وأنت أعلم مني بذلك ؟»

فصمت الشيخ وأطرق ، وحدثته نفسه ان يخبرها ببقاء عبد الرحمن حيا ، ولكنه رأى بقاءها على اعتقادها اقرب لنيل ما يتمناه وما عقد النية

عليه ، فظل صامتا مترددا .

اما هي فمسحت دموعها وقالت : «ولكنني لا أعلم ما جرى لعامر . هل علم بما اصاب عبد الرحمن وما اصابني ؟ وأين هو الان ؟»

فتجاهل الشيخ برهة ثم قال : «لا شك انه علم بموته ، وهو يعتقد انك قتلت ايضا . ولا أدري اين هو فلعله سار الى المدينة او الى الكوفة. وربما كان قد انتحر يأسا وأسفا» .

فلطمت وجهها وقالت : «واأسفاه عليك يا عماه ، واحسرتاه على آمالك ويا لخسارة ما قضيته من سني الشقاء في خدمتنا . اني لا ألومه اذا قتل نفسه» .

فأراد الشيخ ان يشغلها عن البحث في مسألة عبد الرحمن فسألها كيف نجت . فقصت عليه الحديث من اوله الى آخره ثم قالت : «وها أنذا نجوت من الموت وأنا أشتهيه الا اذا كان في بقائي خدمة للمسلمين . فالآن اما ان تقتلني وتدفنني في هذه الخرائب او ترشدني الى سبيل للانتقام» .

فقال لها : «أتريدين الانتقام ؟»

قالت : «كيف لا أريد وهو وحده الذي يحبب الي البقاء ، والا فالموت اشهى لدي» .

قال : «اذا كنت تطلبين الانتقام فانك تلقينه في الكوفة» .

قالت : «لا أبالي اين هو ولا كيف هو ، وانما اريد الحياة من اجله. فاذا قتلت يزيد وابن زياد ، او رأيتهما مقتولين . فاني اموت بعد ذلك قريرة العين» .

قال : «اعلمي يا بنية ان الحسين بعث بابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة ليدعو الناس الى بيعته فبايعه منهم ثمانية عشر الفا ، فاذا جاء الحسين الى الكوفة تمت البيعة فيفشل ابن زياد ويقتل ، ثم يسيرون الى

الشام فيحاربون يزيد ويقتلونه ايضا» •

ولم يتم الشيخ كلامه حتى اشرق وجه سلمى وقالت : «يا حبذا ذلك• هل اراه يتحقق ؟ هل أقتل يزيد ؟ هل أقتل ابن زياد • انـــي اريد ان اقتلهما بيدي • ولكن قل لي يا عماه : أواثق انت من ذلك ؟»

قال : «اني اقول الصحيح الذي لا ريب فيه فامكثي معي هنا بضعة ايام ريثما ينصرف هؤلاء القوم الى الكوفة ثم نلحق بهم ومتى وصلنا الى الكوفة أنبئك بما سيكون» •

★ ★ ★

ترك ابن زياد سلمى مصلوبة ، وهو لا يشك انها لا تلبث ان تذعن له وتخاف بطشه • فلما عاد الى الهيكل ورأى بقايا الوثاق ولم يجدها تملكه الذهول والغضب ، وأخذ يبحث عنها بين الاساطين في الهيكل وخارجه، وأرسل رجاله يفتشون في كل مكان فلم يقفوا لها على اثر • وما زال في البحث يومين حتى مل ، ولامه رفاقه على التأخير والامر يقضي سرعـة المسير • فحمل أحماله وسار يلتمس الكوفة وهو يلتفت وراءه ولا يكاد يصدق ان سلمى خرجت من يده على هذه الصورة • ولو أطاعه رفاقه لما خرج من تدمر قبل الوقوف على مكان سلمى ولو أدى به ذلك الى نقض أحجار تلك الخرائب حجرا حجرا •

وكان اهل الكوفة قبل وصوله قد رحبوا بمسلم بن عقيل وبايعـه منهم جمع غفير وضعف امر الامويين بها • فذهب عبيد الله بن زياد اولا الى البصرة فحث اهلها على الطاعة ، ثم جاء الكوفة وأهلها قد تشيـــع اكثرهم للحسين • وأصبحوا ينتظرون قدومه ليبايعوه ويولوه امرهم ؛ فلما سمعوا ان يزيد ولي عبيد الله رجوا ان يصل الحسين قبله لتكون الولاية له • ولكن عبيد الله وصل الى الكوفة قبل الحسين فدخلهـــا

وحده وعليه لباس الامراء ، فكان لا يمر بمجلس او جماعة الا ظنـــوه الحسين فيقولون : «مرحبا بك يا ابن رسول الله» . وهو لا يكلمهم. وخرج اليه الناس من دورهم فساءه ما رآه من ترحابهم بالحسين . حتى وصل الى دار الامارة وفيها النعمان بن بشير اميرها السابق ، والنعمان يحسبه الحسين. فأغلق الباب في وجهه وقال : «انشدك الله ألا تنحيت عني . فوالله ما انا بمسلم اليك امانتي ، وما لي في قتالك حاجة» . فدنا منه وقال له : «افتح لا فتحت !» فلما سمع النعمان صوته عرفه وفتح له، وصعد عبيد الله المنبر وخطب في الناس فقال : «أما بعد فان امــــير المؤمنين ولاني ثغركم ومصركم وفيأكم ، وأمرني بانصاف مظلومكـــم واعطاء محرومكم ، وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم . وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده . فأنـــا لمحسنكم كالوالد ولمطيعكم كالأخ الشقيق . وسيفي وسوطي على من ترك امري وخالف عهدي فليبق على نفسه» . ثم نزل وأخذ يعنـــي بارهاب اهل الكوفة وردهم الى الطاعة بما عرف به من الدهاء . وأهل الكوفة ضعفاء سريعو الانقلاب .!

★ ★ ★

أما ما كان من امر سلمى والشيخ فانهما بعد ان تحققا مسير ابن زياد من تدمر خرجا وسارا يلتمسان الكوفة من طريق غير الذي سلكه هو ، وكان سيرهما بطيئا والطريق وعر خطر .

وبعد ايام اشرفا على الكوفة من تل وقد تعبا تعبا عظيما ، فاستراحا يوما وسلمى لا تصبر عن النزول الى الكوفة فلما عزما على ذلك قـــال الشيخ . «اعلمي يا بنية اني عاهدت الله ألا أقيم بالمدن ولا اسكن العمارة فانزلي الى الكوفة وحدك» .

فبغتت سلمى وقالت : «وكيف العمل يا مولاي وأين أقيم ؟»

قال : «اذهبي الى هذا البيت في طرف الكوفة ، هل ترينه ؟»

قالت : «نعم» •

قال : «انه بيت كندية مثلك اسمها طوعة ، وكانت جارية للأشعث وأعتقها ، ثم تزوجها رجل آخر وولدت منه اولادا اسم احدهم بلال • هل تذكرينها ؟»

قالت : «نعم أذكر اني رأيتها في اثناء اقامتي بالكوفة ، وأظنها عرفني » •

قال : «اذهبي وأقيمي عندها وأنا أتردد اليك في منزلها ونرى ما سيكون » •

فقالت : «وأنت اين تقيم ؟»

قال : «أما انا فذاهب الى سهل صغير في طرف البرية : وراء الكوفة من جانب الفرات ، اسمه كربلاء ، فاذا احتجت الي فانك تجدينني هناك» •

قالت : «اذكرني في دعائك واني داخلة الكوفة وقلبي ممتلىء املا ، وعسى الله ان يفتح علينا ويفرج كربنا ونرى الحق سائدا» •

قال : «وأنا ارجو ذلك» • ثم ودعها ومضى وفي خاطره ان يزيدها اطمئنانا فيطلعها على حقيقة امر عبد الرحمن • ولكنه أجل ذلك الى فرصة اخرى مخافة ان تسير الى عبد الرحمن بمكة ، وهو يرى الكوفة اوسع مجالا للانتقام •

فمشت سلمى حتى دخلت الكوفة كأنها فتاة من فتياتها عائدة من الاحتطاب او الاستقاء • ومرت بالأزقة فرأت لناس في هرج وسمعت بعضهم ينادون : «يا منصور مت» وآخرين يلعنون ابن زياد • فاستبشرت بنقمة الناس عليه ، ولكنها أحبت استطلاع الواقع فعولت على الاستفهام من طوعة •

وبعد قليل وصلت الى دار طوعة فرأتها جالسة لدى الباب وحدها فحيتها ، فلما عرفتها رحبت بها واستقبلتها • وكانت قد رأتها قبل سفرها الى دمشق فسألتها عن عامر وعبد الرحمن فأجابتها جوابا مبهما وكظمت ما في نفسها ، وأدخلتها طوعة البيت وقدمت لها الطعـــام فأكلت شيئا واستراحت ولم يبق لها صبر على استطلاع الخبر فقالت . «ما بالي ارى اهل الكوفة في هرج ما الذي اصابهم ؟ وما معنى قولهم : (يا منصور مت) ؟•• »

فأشارت طوعة اليها ان تخفض صوتها ثم قالت : «لعلك كنت غائبة عن الكوفة ؟»

قالت : «كنت في البصرة وقد عدت منها اليوم» •

قالت : «ان اهل البصرة لا يجهلون ما اصابنا لانهم شركاؤنا فـــي الامـــر » •

قالت : «سمعت بانتقاض اهل الكوفة على الخليفة الجديد ومبايعتهم الحسين بن علي ، على يد ابن عمه مسلم بن عقيل • ولكننـــي سمعت الناس يلعنون ابن زياد لانه تولى الامارة على ان يقاوم المبايعين ولم افهم شيئا غير ذلك» •

- ١٥ -

مسلم بن عقيل

قالت طوعة لسلمى : «ان مسلم بن عقيل نزل في دار المختار بن عبيد،

وأمير الكوفة يومئذ النعمان بن بشير ، وهو رجل ضعيف • فجعل مسلم يدعو الناس الى بيعة الحسين ، ولو انه جاء الكوفة لبايعه كل اهلها • فلما رأى الامويون ذلك بعثوا الى يزيد في دمشق فولى عليهم عبيد الله ابن زياد وهو داهية مثل ابيه» •

فتنهدت سلمى وقالت : «كيف لا اعرفه وهو الذي قتل ابي» •

قالت طوعة : «فلما جاء ابن زياد الكوفة دخلها وحده فلم يشك الناس انه الحسين ، ثم ما لبثوا ان عرفوه فدخل دار الامارة وخطب في الناس وحرضهم على مقاومة شيعة الحسين ، ولكي يتم له ذلك مع قلة أشياعه بعث الى العرفاء (مشايخ الحارات) فجمعهم وأمرهم ان يكتبوا اليه اسماء من في مناطقهم من شيعة الحسين ، وشدد في ذلك حتى هددهـــــم بالصلب والقتل • فلما سمع مسلم بما نواه ابن زياد خرج من دار المختار ونزل في بيت هانىء بن عروة المرادي وهو رجل ذو وجاهة» •

فقطعت سلمى كلامها وقالت : «اني اعرفه» •

فقالت طوعة : «فلما جاء مسلم الى هانىء ، خاف هذا ان يقبله في داره لما سمع من تشديد ابن زياد في طلبه • فقال له مسلم : «اتيتك لتجيرني وتضيفني» • فلم يعد هانىء يستطيع رده فقبله • فصارت الشيعة تختلف اليه في دار هانىء ، وبلغ ذلك ابن زياد من بعض الجواسيس • فأراد ان يحتال في الدخول على هانىء ليتحقق الامر • وحدث أن مرض هانىء بن عروة فبعث ابن زياد اليه انه قادم لعيادته • فقال بعض الحضور من الشيعة : «الطاغية قادم اليكم فاقتلوه وانقذوا المسلمين من شره» •

فبهتت سلمى عند ذلك وصارت تتوقع ان يقتلوه لانها فرصة ثمينة لو اغتنموها • ولكنهم اضاعوها فضاعت بضياعها كل مساعيهم • وكم من غلطة صغيرة أدت الى خراب كبير •

فاستطردت طوعة كلامها وقالت : «فلما اقترح الرجل قتل ابن زياد،

اعترض هانيء بأنه لا يريد ان يقتل امير الكوفة في داره • فجاء ابن زياد فعاده وخرج سالما» •

فصاحت سلمى : «يا للخسارة ويا للضعف ، لله ما أضعفهم !»

فقالت طوعة : «انهم ضعفاء يا بنية ولكن ذلك امر الله •• فأصبح هو ابن زياد ان يقبض على هانيء ويسأله • فبعث اليه ان يوافيه الى قصره، فاعتذر هانيء بالمرض ، فألح عليه وبعث اليه رجلا استقدمه بالحيلة • فلما وصل هانيء الى دار الامارة أحس بالشر • ولكنه دخل ووقف بين يدي ابن زياد فقال له هذا : (يا هانيء • ما هذه الامور التي تدبر في دارك لامير المؤمنين ؟• جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت ذلك يخفى علينا ؟) • فأنكر هانيء في باديء الرأي وهو لا يظن امره معلوما عند ابن زياد • ولكن هذا واجهه بالرجل الذي كان قد جعله عينا عليه • فتحقق هانيء انه مطلع على جلية الامر فقال : (اسمع مني وصدقني فوالله لا أكذبك ، والله ما دعوت ابن عقيل ولا علمت بشيء من امره حتى رأيته جالسا على بابي يسألني النزول فاستحييت من رده ولزمني من ذلك ذمام ، فأدخلته داري ضيفا • وقد كان من امره ما بلغك ، فان شئت فاني أعطيك الان موثقا تطمئن به ورهينة تكون في يدك حتى أنطلق وأخرجه من داري وأعود اليك) • فلم يقتنع ابن زياد باخراج مسلم من دار هانيء ، بل طلب ان يأتيه به الى القصر • فقال هانيء : (لا آتيك بضيفي لتقتله ابدا ، وله علي حق الضيافة وهو في ذمامي) • فتوسط بعض الحضور في اقناع هانيء بأن يأتيه بمسلم ولا خوف عليه ، فلم يقنع وقال : (لا ادفع ضيفي وأنا صحيح شديد الساعد كثير الاعوان ، والله لو كنت واحدا ليس لي ناصر لم أدفعه حتى اموت دونه) ••»

فقالت سلمى عند سماعها ذلك : «لا فض فوك يا ابن عروة هذه هي

رعاية الذمام» .

فقطعت طوعة كلام سلمى وقالت : «اسمعي يا حبيبتي ما كان من عاقبة تلك الرعاية ، فان ابن زياد لما سمع كلام هانيء قال : (ادنوه مني). فأدنوه ، فأعاد التهديد عليه ، فلما لم يطعه تناول عبيد الله قضيبا كان في يد بعض رجاله وأمر واحدا فأمسك هانئا بضفيرتيه ثم أهوى على هانيء بالقضيب . ولم يزل يضرب انفه وجبينه وخده حتى كسر انفه وأسال الدماء على ثيابه ونثر لحم خده وجبينه على لحيته حتى انكسر القضيب. وأراد هانيء ان يدافع عن نفسه فمد يده الى قائم سيف شرطي كان واقفا بجانبه فمنعه منه . وأمر عبيد الله به فألقي في حجرة واغلق عليه» .

فدقت سلمى كفا بكف وقالت : «وماذا فعل رجاله وأهل عشيرته ؟»

قالت طوعة : «بلغ عشيرته انه قتل ، فجاءوا وأحاطوا بالقصر وفيه ابن زياد ورجاله . فخاف ابن زياد منهم وسألهم عما يريدونه ، فقالوا : (انك قتلت هانئا) ، فأفهمهم ان هانئا ما زال حيا واستشهد شريحا القاضي وكانوا يعتقدون صدقه ، فأخبرهم بأنه حي فانصرفوا» .

فصاحت سلمى : «يا للفشل ! ماذا اصاب الناس ؟»

فقالت : «تمهلي يا سلمى انك ستسمعين ما يسرك وفيه الفوز والنجاة ان شاء الله . انك سألتني عن معنى قولهم : يا منصور مت فاعلمي يا بنية ان هذه العبارة هي شعار أنصار الحسين ينادي بها بعضهم بعضا ، وأما سبب الهرج الذي رأيته فان مسلما لما علم بما اصاب هانئا نهض ونادى رجاله بذلك الشعار حتى اجتمع حوله ثمانية عشر الفا من كندة ومذحج وتميم وهمذان وأهل المدينة ، ولكل عشيرة من هؤلاء ربع . فعقد على كل ربع لقائد ، وساروا في هذا الصباح وأحاطوا بالقصر وليس مع ابن زياد في القصر الا ثلاثون رجلا وهو الان في ضنك شديد ولا اظن مسلما الا فائزا» .

فتهلل وجه سلمى وأبرقت أسرتها وبان الاهتمام في وجهها وقالت : «يا رب يا كريم ، انصر قومك» . قالت ذلك ونهضت تريد الخروج . فأمسكتها طوعة وقالت : «الى اين تذهبين ؟»

قالت «دعيني ، أريد ان ارى ما يكون من امرهم» .

قالت : «تمهلي واقعدي فانك فتاة لا آمن عليك من الغوغاء» .

وفيما كانت سلمى تحاول الخروج ، سمعتا وقع أقدام بباب الدار . فتغير وجه طوعة وخفق قلبها ، اذ ليس في بيتها رجال . فأشارت الى سلمى ان تمكث وخرجت هي الى الباب فرأت رجلا واقفا والبغتة والكآبة ظاهرتان في وجهه فسألته عما يريده ؟. فقال : «أريد ماء» .

فقدمت له كوبا شربها وجلس . فقالت له : «يا عبد الله ألم تشرب ؟»

قال : «بلى» . قالت : «فاذهب الى اهلك» . فسكت وظل في مكانه لا يبرحه بعد ان طلبت منه الانصراف ثلاثا .

فقالت : «يا سبحان الله ؟ اني لا أحل لك الجلوس على بابي» .

فقال لها : «اني غريب وليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة ، فهل لك في اجر معلوم ، ولعلي أكافئك فيما بعد ؟»

قالت : «من انت ؟»

قال : «انا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء الاقوام وغروني» .

وكانت سلمى واقفة تسمع ، فلما سمعت ذلك اختلج قلبها في صدرها وأسرعت الى الباب . فلما وقع بصرها عليه عرفته وكانت قد رأته من قبل في المدينة ، فأرادت ان تستعطف طوعة في قبوله فاذا هذه قد دعته من تلقاء نفسها .

فدخل مسلم وسيفه تحت عباءته والهم والتعب قد أثرا في سحنته ، فعرضت عليه عشاء فلم يتعش ، فوقفت سلمى بين يديه وقد ارسلت نقابها على رأسها وترقرقت الدموع في عينيها وقالت : «ما اصابك يا

مولاي ؟»

فتنهد مسلم وكادت العبرات تسبق كلامه وقال : «دعيني يا أخية ولا تسألي عن قومي ، فقد قلت لكما انه لا قوم لي ولا عشيرة في هذه المدينة » .

فقالت طوعة : «ولكنني سمعت في هذا الصباح انك جمعت ثمانية عشر الفا وأحطتم بقصر زياد وهو ليس عنده الا ثلاثون رجلا ، فما الذي جرى لقومك ؟»

قال وهو يحرق اسنانه : «لقد تفرقوا عني» .

قالت سلمى : «كيف تفرقوا ؟ وما الذي حملهم على هذا التفرق وهم كثيرون ؟!»

قال : «لا تسألي عن القضاء اذا وقع . ان اهل الكوفة قوم لا يركن اليهم ، وقد اخطأنا بالاعتماد عليهم بعد ان سمعنا عمي الامام عليا كرم الله وجهه يخاطب اهل العراق بقوله : (أخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، ودينكم نفاق ، وماؤكم زعاق . المقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه ، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه) . فقد غرني من هؤلاء الاقوام ما رأيت من اقبالهم على بيعة الحسين حتى تكاثر عددهم ، فلما دعوتهم في هذا الصباح اجتمعوا وتجندوا حتى قلت : (توليتها يا ابن بنت الرسول) . ولكن ابن مرجانة ـ ابن زياد ـ داهية مثل ابيه ، فلما رأى رجالنا محيطين بقصره ، وقد امتلأ المسجد والسوق بالناس ، وسمع جماعة يسبونه ويسبون أباه ، دعا بعض رجاله وفيهم بعض أشراف القبائل وأمرهم ان يخرجوا الى الاسواق ويخذلوا الناس بالتهديد والوعيد او بالوعد ، وأطمعهم بالمال وغيره ، فخرجوا يخذلون الناس . وأمر آخرين ان يشرفوا من نوافذ قصره علينا ويؤملوا اهل الطاعة ويخوفوا اهل المعصية ، فأشرفوا علينا وجعلوا ينادون بالامان لمن اطاع وبالشر لمن

عصا ، فما شعرت الا والناس يتفرقون عني ولم يبق معي منهم الا ثلاثون رجلا فدخلنا المسجد • ثم رأيت في البقاء هناك خطرا على حياتي فخرجت هائما لا ادري الى اين اسير حتى وصلت الى هذه الدار • وآنا لا أبالي الان اموت او أحيا . ولكنني اخاف على ابن عمي الحسين لاني كتبت اليه ليجيء . وأظنه قادما وهو يحسب اهل الكوفة جميعهم على دعوته . وهم على ما رأيناهم فيه من الضعف» • ثم تنهد وقال : «والله ان عبد الله بن مطيع قد نصح لنا ألا نقرب الكوفة ، وقد قال للحسين لما خرج من المدينة : (جعلت فداءك اين تريد ؟) قال : (اما الان فمكة ، وأما بعد فاني استخير الله) قال : (خار الله لك وجعلنا فداءك ، فاذا اتيت مكة فانك ان تقرب الكوفة فانها بلدة مشئومة ، بها قتل ابوك ، وخذل اخوك واعتل بلعنة كادت تأتي على نفسه • الزم الحرم فانك سيد العرب لا يعدل بك اهل الحجاز احدا ويتداعى اليك الناس من كل جانب ، لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي ، فوالله لئن هلكت لنتفرقن بعدك) • فما كان أجدرنا ان نصغي لقوله ، ولكن قد نفذ السهم ولا خيرة في الواقع».

وفيما هو يتكلم دخل بلال ابن طوعة وهو شاب في مقتبل العمر ، فلم تعرفه سلمى ولا مسلم ، وأسرعت أمه الى استقباله وهي تريد ان تخفي امر مسلم عنه ولكن الشاب لم يسكت عنها حتى اخبرته بخبر مسلم وطلبت اليه ان يكتم امره وأخذت عليه الايمان ، فسكت وهو يضمر السوء • وبات تلك الليلة ومسلم هناك • وأما سلمى فانها باتت منقبضة النفس وقد أسقط في يدها وتحققت الفشل ، ففكرت فيما ينبغي ان تفعله ، فاعتزمت ان تسعى اولا في سلامة الحسين بأن تسير لملاقاته في الطريق وتقص عليه الخبر وترجعه عن الكوفة حتى يقضي الله بما يشاء•

***

لما أقبل الصباح افاقت طوعة فلم تجد ابنها فظنته خرج لعمله • وأفاق

مسلم فجاءته سلمى وعرضت عليه ان تسير هي بنفسها لابلاغ الحسين الخبر فأعجب بحميتها وقال لها : «والله لو ان في رجالنا عشرة مثلك ما اصابنا ما اصابنا ، بورك فيك يا بنية ، اننا اذا احتجنا الى ارسالك ارسلناك ، ولكنني لا ارى فائدة من بقائي هنا فأذهب بنفسي» .

فتنهدت سلمى وتذكرت مصائبها وما ألم بحبيبها في سبيل ذلك الامر، فغلب عليها الحزن ولكنها تجلدت رغبة في تشجيع مسلم .

ولم تمض برهة حتى سمعوا وقع حوافر حول الدار وعلت الضوضاء، فأجفل مسلم وامتقع لونه ، فلما رأت سلمى ذلك فيه خرجت تنظر ما أثاره فرأت فرسانا ورجالا يزيد عددهم على السبعين ، وفي مقدمتهم شاب شاكي السلاح وعليه الدرع ، فعلمت انه زعيم القوم ، فلما استقبلتهم صاح فيها الفارس قائلا : «اين مسلم ؟ فليخرج الينا الساعة» .

فقالت : «وماذا تريدون منه ؟»

قالوا : «مالك ولهذا التطفل ؟ اين مسلم بن عقيل ؟»

فلما سمع صوت الرجل يناديه جرد حسامه وهجم عليه وقال : «ما بالكم ؟ ماذا تريدون ؟»

فصاح فيه الفارس : «تعال معنا الى الامير» .

فقال : «خسئتم انتم وأميركم» . وهجم عليهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار وقتل واحدا منهم . فتناولت سلمى سيف الرجل المقتول وشدت وسطها وهجمت وهي تفضل الموت بعد ذلك الفشل . وكان ابن عقيل ينظر اليها ويعجب بها ويقول لها : «ارجعي يا سلمى مالك ولهذا الخطر؟»

أما هي فلم تصغ له ، فضربت ضربتين ثم سمعت ابن عقيل يصيح : «قتلوني قتلهم الله» . فالتفتت واذا بسيف اصاب فمه فقطع شفته العليا وسقطت ثنيتاه لكنه لم يقتل . فهجم على الضارب فضربه على رأسه وثنى بأخرى على العاتق كادت تطلع على جوفه ، وسلمى تناضل معه .

فلما رأى القوم ذلك صعدوا الى سطح البيت وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليه . فلما رأى مسلم ذلك خرج من الدار بسيفه وهو يقول :

أقسمت لا أقتل الا حرا ⠀⠀ وان رأيت الموت شيئا نكرا
او يخلط البارد سخنا مرا ⠀⠀ رد شعاع الشمس فاستقرا
كل امريء يوما يلاقي شرا ⠀⠀ أخاف ان آكذب او أغرا

وخرجت سلمى معه ، وقاتلاهم في الطريق ، فصاح رئيس القوم بابن عقيل : «لا نكذب ولا نخدع ، ان القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك» . وكان مسلم قد اثخن بالحجارة وعجز عن القتال ، فأسند ظهره الى حائط الدار وقد ضعف ولم يعد يستطيع قتالا ، فجاءه سيد القوم وهو محمد بن الاشعث فحمله على بغلة وأمنه على حياته .

وما زالوا سائرين به حتى جاءوا القصر وأوقفوه عند بابه فرأى هناك جرة ماء باردة فقال : «اسقوني من هذا الماء» .

فقال واحد منهم : «أتراها ؟ ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار الجحيم !»

فقال له : «ومن انت ؟»

قال : «انا من عرف الحق اذ تركته ، ونصح الامة والامام اذ غششته ، وسمع وأطاع اذ عصيته ، انا مسلم بن عمر» .

فقال له مسلم بن عقيل : «لأمك الثكل !. ما أجفاك وما أفظعك وأقسى قلبك وأغلظك !. انت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار الجحيم» .

ثم جاء رجل فصب ماء وأعطى مسلما فشرب ثم نظر في القدح فاذا

هو قد امتلأ بالدم •

وأمر ابن زياد بمسلم فأصعدوه الى اعلى القصر فضرب عنقه ، ثم اخرجوا هانئا وقتلوه ، ولم يبال ابن زياد بعهده الذي اعطاه لهانىء ولمسلم باستبقائهما •

وكانت سلمى لما تحققت فشل مسلم ورأت الدم في وجهه ، تذكرت مقتل عبد الرحمن فهاجت عواطفها ومضت تضرب بسيفها وتناضل مناضلة الابطال • ولولا النار التي اتصلت بها ولحقت بشعرها ما كفت عن الضرب •

فلما انصرفوا اسرعت طوعة الى سلمى ، فأطفأت شعرها ونقابها ، وحملتها الى الفراش وهي غائبة عن الدنيا ، ورشتها بالماء حتى افاقت وصاحت : «اين مسلم ؟ اين ابن عم الحسين ؟»

فقالت طوعة : «قد حملوه الى القصر» •

قالت : «وماذا يفعلون به هناك • أظنهم سيقتلونه قبحهم الله ما اقسى قلوبهم !»

فجعلت طوعة تخفف عنها ، ولم يمض النهار حتى سمعت بمقتل مسلم فانصدع قلبها ، وفكرت في امرها فرأت البقاء لا يجديها نفعا وتذكرت الشيخ الناسك فهمت بالمسير اليه •

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالي ، خرجت سلمى من بيت طوعة وسارت تلتمس كربلاء • فجعلت طريقها من خارج الكوفة لئلا ترى ما تكرهه من فوز الامويين ، فيممت شاطىء الفرات حتى أطلت على سهل مقفر لا شجر فيه ولا عشب ولا ماء ، فعلمت انه سهل كربلاء • ورأت في بعض

أطرافه شجرة قد تقادم عهدها وتحتها شبح نائم فعلمت انه الشيخ الناسك ، ولم تكد تصل اليه حتى جلس وقد شعر بقدومها عن بعد كأنه اشتم رائحتها . أما هي فلما رأته لم تتمالك عن البكاء لفرط ما هاج خاطرها من مصير مسلم وحزبه .

فلما رآها الشيخ ناداها قائلا : «اراك باكية كأني بهم فتكوا بابن عقيل ؟ »

فأجابته وقد خنقتها العبرات : «نعم ، لقد قتلوه شر قتلة !. قتلوه ومثلوا به . وفازوا بالامر دونه وخابت مساعينا كأن الله قد كتب علينا الشقاء ! »

فابتدرها قائلا : «قتلوا ابن عم الحسين ؟ وكيف قتلوه ولم يخافوا غضب الله وملائكته ؟. أعوذ بالله من ظلم الانسان !»

قالت : «نعم قتلوه بعد ان ساموه مر العذاب. وكنت أحسب الملائكة تدفع عنه لانه انما جاء للدفاع عن الحق !. آهذا جزاء نصراء الحق عند الله ؟ »

فقطع الشيخ الناسك كلامها وقال : «رويدك يا سلمى ، لا تعارضي أحكام الله فاننا لا ندرك مقاصده سبحانه وتعالى . وما نحن الا تراب صنعنا بيده وهو يفعل بنا ما يشاء لحكمة يعلمها . فأخبريني كيف قتلوه؟»

فجلست على حجر بالقرب منه وقصت عليه الحديث وهي تبدي خلال ذلك تحسرها ، حتى اذا اتت على آخر كلامها أوغلت في البكاء وجعلت تندب حال المسلمين ، وجرها ذلك الى ندب حبيبها عبد الرحمن فقالت : «لست أعارض حكم الله ، ولكنني لا ادري الحكمة في ذلك. ان الحسين قام يدعو الناس الى الحق وأرسل ابن عمه لنصرته ، أفيقتل هذا ويفشل ابن بنت الرسول ويظلم كل من قام بنصرته ؟. ألم يقتلوا ابن عمي عبد الرحمن لانه طالب بدم ابي وانتصر لاهل البيت ؟. ألم يقتلوه

شر قتلة • آه منهم كيف قتلوه ؟» • قالت ذلك وعادت الى البكاء • ثم قالت وقد خنقتها العبرات : «كيف ينصر الله قوما يحاربون سبط الرسول ويقتلون كل من قام بنصرته ، وخليفتهم مشغول عن شؤون الخلافة بشرب الخمور وضرب الطنابير ومجالسة النساء ؟ انه لأمر غريب!»

فلما سمعها تندب ابن عمها وهو يعلم انه حي ، رثى لها ، وكان قد علم من سياق حديثها انها ذاهبة الى الحسين لاطلاعه على جلية الخبر لعلها ترجعه عن عزمه • والشيخ يرجح ان عبد الرحمن وعامرا مع الحسين فأراد ان يطمئنها ويطلعها على الواقع ، فمسح لحيته بيده ثم مسح عينيه بأنامله من آثار دموع كادت تبللهما في اثناء سماعه نبأ مقتل ابن عقيل ، ثم قال : «وما الذي انت عازمة عليه يا سلمى ؟»

قالت وقد رجع اليها رشدها وبان الاهتمام في وجهها : «أتسألني عما عزمت عليه وأنت لا تجهله ؟ أتجهل يا سيدي اني فقدت كل شيء في سبيل نصرة بيت الرسول ، ولم يبق لي ما آبذله الا نفسي وليس بذلها بالامر العظيم عندي في هذا السبيل • أريد ان اذهب لألاقي الحسين قبل وصوله الى الكوفة وأخبره بما وقع ، وأنصح له بأن يتربص حيث هو ريثما يتم له التأهب لطلب حقه ، ثم أمكث في خدمته حتى يتأتى له ذلك فأحارب معه واموت بين قدميه فأذهب الى حيث ألقى عبد الرحمن وأبي ، وأرجو ان يكون مصيري معهما الى النعيم ، لاني أعتقد صدق الدعوة التي نحن قائمون بها ، فاذا قدر الله لنا النصر وفزنا على اولئك الطغاة وقتلناهم ، عشت سعيدة بالانتقام لابي ولابن عمي وللامام علي» •

فضحك الشيخ حتى اغرب في الضحك ، وسلمى تنظر اليه وتعجب من ضحكه بعد ان قصت عليه خبر الفشل الذي اصابها • فلبثت صامتة وهي تسمع قهقهته وترى اهتزاز لحيته حتى خيل لها انه أصيب بجنون، ولكن اعتقادها بكرامته غلب عليها فحملت ضحكته محمل خير يضمره لها•

فلما انتهى من الضحك تفرست في وجهه فاذا هو قد عاد الى الانقباض بغتة ولمعت عيناه بما غشاهما من الدمع • ورأت سلمى ذلك من خلال حاجبيه المسترسلين على عينيه فقالت له : «ايأذن لي مولاي بسؤال ؟»

قال وقد عاد الى الابتسام : «انك تسألينني عن سبب ضحكي ، وأنا اقول لك السبب وأرجو ان يضحكك ايضا» •

فقطعت كلامه وقالت : «لا اظن شيئا في العالم يضحكني ، فلن اضحك الا ضحكة الظفر او ضحكة الموت» •

قال : «وما قولك اذا اضحكتك الساعة ؟»

قالت وهي تستخف بقوله : «قل ما شئت واضحك ما شئت ، وسترى اني لا أبتسم لشيء قط ، وكيف اضحك او ابتسم وقد قتل ابي وابن عمي ظلما ولم أقتل معهما ؟»

قال : «واذا اخبرتك خبرا يسرك ؟»

فقالت : «اذا كان خبرك رجما بالغيب فللأولياء كرامات • وقد تتنبأ بخبر نرجوه في المستقبل • ولكنني رأيت من الفشل في الايام الاخيرة ما سود الدنيا كلها في عيني • فلا اضحك الا لخير اراه او لخير أتوقعه• وأي خير ارجو بعد هذه المصائب ؟»

قال : «واذا اطلعتك على خبر عن عبد الرحمن ؟»

فلما سمعت اسم حبيبها اختلج قلبها واصطكت ركبتاها وبغتت وقالت : «وأي خبر عنه يا مولاي لم اسمعه بعد ؟!» • واختنق صوتها وبكت •

قال : «وماذا سمعت عنه ؟»

قالت : «ألم أندبه بين يديك مرارا ؟• آه يا مولاي !• دعني من هذه الذكرى ولا تهج أشجاني • دعني أشغل عن الحزن بالانتقام • ودعني أمض لسبيلي لألاقي الحسين وأهل بيته وأنبئهم بالخطر الذي ينتظرهم»•

قال : «سيري يا بنية في حراسة الله ، وأرجو ان تلاقي عبد الرحمن هناك ! »

فصاحت : «ألاقي عبد الرحمن ؟!» وكيف ألاقيه وأنا حية الا اذا بعث في هذه الحياة الدنيا ، وما سمعنا بالبعث الا في الآخرة ؟« لا اراك يا مولاي الا ضاحكا مني هازئا بعواطفي • او انك تتنبأ بقرب أجلي لألقى حبيبي في الآخرة • فاذا كان ذلك فمرحبا بالموت انه حلو شهي» • قالت ذلك وهي لا يخطر لها ببال ان يكون عبد الرحمن حيا ، ولكن قلب المحب سريع الاطمئنان قريب التصديق ، فأوحي اليها حبها ان الله قادر على احيائه ، وان الشيخ الناسك لا يقول عبثا • على ان عقلها بقي يرى استحالة ذلك • فلبثت تتردد بين الامرين •

اما هو فلما شاهد اضطرابها نظر اليها جادا وقال : «اني لا ألقي القول جزافا يا سلمى ، ان عبد الرحمن حي باق لم ينله كيد اولئك الاشرار ! »

فوثبت سلمى من مجلسها بغتة ، وأحست كأن شعر رأسها وقف ، واقشعر بدنها وكاد الدم يجمد في عروقها • وصاحت في الشيخ وأمسكته بيده وهي تقول : «بالله اصدقني الخبر يا مولاي ولا تهزآ بي فاني اكاد اجن !» قل لي : هل عبد الرحمن حي ؟» عبد الرحمن ! هل هو حي ؟ حي مثلي ومثلك ؟!» • قالت ذلك والدمع ملء عينيها لا تدري أتضحك ام تبكي •

فخشي الشيخ ان يصيبها ضر ، فأجابها بصوت خافت : «نعم يا سلمى هو حي باذن الله» •

قالت : «كيف ذلك وقد حققت مقتله من قبل ؟ يا ربي ماذا اسمع ؟ هل انا في حلم ؟» هل عبد الرحمن حي يمشي ويتكلم ؟» هل أكلمه فيسمعني وألاقيه فيراني ؟» آه يا عبد الرحمن ! أأنت حي وأنا أندبك ؟»

اني اراني في حلم !» • ثم التفتت الى ما يحدق بها من السهل القاحل كأنها تتحقق وجدانها وترامت على يدي الشيخ وجعلت تقبلهما والدمع يتساقط عليهما وهي تشهق من شدة البكاء وتقول بالله يا سيـــدي اصدقني ، أحي عبد الرحمن حقا ؟ وهل اراه ، وأين هو ؟• قل لي يـــا مولاي • قل لي واشفق على حياتي • عبد الرحمن حي ؟! اين هو ؟»

فأمسكها الشيخ ويده ترتعش ، وأوقفها وهو يتأمل حركاتها ويقرأ عواطفها فدمعت عيناه وقال : «احمدي الله يا سلمى ؛ ان عبد الرحمـن وعامرا على قيد الحياة وهما مع الحسين ، وأظنهما آتيين معه فـــي طريقه هذه» •

فبهتت سلمى واستجمعت رشدها ولبثت مطرقة تنظر الـى الارض وهي تراجع في ذاكرتها ما سمعته عن مقتله في دمشق ؛ فلم تجد دليلا على انه قتل غير ما سمعته من ابن زياد والحكيم ، فهان عليها تصديق بقائه حيا • فأحست للحال ان غمامة انقشعت عن عينيها وكأن جبلا نزل عن قلبها فانبسط وجهها وابتسمت • فابتدرها الشيـــخ قائلا : «اراك تضحكين ، وكنت تقولين انه لا شيء يضحكك ؟!»

قالت : «لم يدر في خلدي ان أسمع هذا الخبر • أيكون عبد الرحمن حيا ولا اضحك ؟» • ثم انقبضت بغتة وقالت : «ولكن ما الفائدة ؟ اين هو ؟• ما الذي يجمعني به فقد اصبحت بعد ما لقيته من الفشل المتواتر لا أصدق شيئا حتى يقع • وقد يقع ولا أصدقه !»

قال : «لا تيأسي من نعم الله ، فان معسكر الحسين يجمعـــك بعبد الرحمن ، فقد سار اليه وأنت في دمشق مع عامر ، وهو يحسبـك ميتة كما كنت تحسبينه ميتا !» • ثم قص عليها الخبر من اوله الى آخره، فاطمأن بالها وسكن روعها ووثقت من بقائه على قيد الحياة •

خروج الحسين الى العراق

كان الحسين قد انتقل من المدينة الى مكة وأرسل ابن عمه مسلما الى الكوفة كما تقدم • وجاءته كتبه بأن معظم اهم الكوفة على بيعته ، فعزم على الخروج اليها وهو يحسب انه اذا جاءها استتب الامر له • وكان يستشير اصحابه فمنهم من يخوفه من الذهاب ومنهم من يحرضه عليه • وكان في جملة المحرضين عبد الله بن الزبير ، وكان طامعا في الخلافة لنفسه لانه من كبار ابناء الصحابة ، كما كان ابوه الزبير بن العوام طامعا فيها قبله على عهد الامام علي ، وقد حاربه عليها في وقعة الجمل الى جوار البصرة ، ولكنه قتل هناك هو وطلحة وفاز علي بالامر • فلما قتل علي وتولى الخلافة معاوية بن ابي سفيان لم يجرؤ ابن الزبير على مناجزته• فلما مات معاوية كان ابن الزبير والحسين في الكوفة فطلبوا منهما البيعة ليزيد كما تقدم فأبيا ، ثم خرجا الى مكة وفي نفس كل منهما ان يطلب البيعة لنفسه • فرأى ابن الزبير انه لا يستطيع ذلك والحسين معه في مكة لان الناس يؤثرون الحسين عليه • فرغبه في طلب بيعة اهل الكوفة وحبب اليه المسير اليها • وكان الحسين مخلص الطوية صادق اللهجة مثل ابيه ، والمخلص سليم النية سريع التصديق ، وما اضاع على الخلافة الا لطيبة قلبه وحلمه ورغبته عن الدهاء والمكر •

وكان ابن الزبير يظهر للحسين عكس ما يضمره ، وربما أعرب له عن بقائه بمكة وهو يريد خروجه منها • وفي جملة ما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن ان ابن الزبير قال له مرة : «ما ادري ما ترك لنا هؤلاء وقد كففنا عنهم ونحن ابناء المهاجرين وولاة هذا الامر دونهم •

خبرني ماذا انت صانع ؟»

فقال الحسين : «لقد هممت بالذهاب الى الكوفة ، وكتبت الى شيعتي فيها وأشراف الناس ، وأستخير الله» .

فقال ابن الزبير : «أما والله لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنهـــا» . ثم خشي ان يتهمه فقال له : «أما انك لو اقمت بالحجاز وأردت هذا الامر ههنا لما خالفناك بل ساعدناك وبايعناك ونصحنا لك ، فأقم ان شئت واندبني لهذا الامر فتطاع ولا تعصى» .

فلما خرج ابن الزبير قال الحسين لمن عنده : «ان هذا الرجل ليس شيء في الدنيا أحب اليه من ان اخرج من الحجاز . وقد علم ان الناس لا يعدلونه بي ، فود لو اني خرجت حتى يخلو له الجو» . ويظهر من ذلك ان الحسين لم يكن يجهل طمع ابن الزبير . ولكنه ظل راغبا في الخروج. ولعله خاف مناوأته اذا بقي هناك .

وممن نصح للحسين ألا يخرج من مكة عبد الله بن عباس ابن عـــم ابيه ، وكان قد ادرك غرض ابن الزبير فنصح للحسين مرارا بأن يبقى ، فلم يطعه . فجاء في مساء اليوم الذي كلمه فيه ابن الزبير فقال له : «يا ابن عم ، اني أتصبر ولا أصبر ، اني أتخوف عليك من الذهاب الى اهل العراق ، فلو انهم قتلوا اميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ، ثم دعوك ، فسر اليهم . وان كانوا قد دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم . وعماله تجبـــي بلادهم ، فانما دعوك الى الحرب . فاكتب لهم فلينفوا عاملهم ثم اقدم عليهم . اما اذا أبيت الا ان تخرج من مكة ، فسر الـــى اليمن . فان بها حصونا وشعابا . وهي ارض عريضة طويلة ، ولأبيـــك شيعة وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب الى الناس وتبث دعاتك حتـــى يقوى شأنك وتنظر ما يكون» .

فقال الحسين : «يا ابن عم اني والله لأعلم انـــك ناصح مشفق ،

ولكنني قد ازمعت المسير الى الكوفة» •

فقال ابن عباس : «فان كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيانك فاني لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه» • ثم قال : «لقد اقررت عين ابن الزبير بخروجك • والله الذي لا اله الا هو لو اعلم اني اذا اخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس وانك تطيعني وتقيم لفعلت» • ثم خرج •

***

خرج الحسين من مكة ومعه نساؤه وأولاده وأبناء عمه • وما زال ينتقل من مكان الى آخر والناس ينضمون اليه ، حتى اتى مكانا اسمه «الثعلبية» كان قرية ثم خرب • وهناك جاءه الخبر بمقتل مسلم بن عقيل، وبما حل بشيعته ، وحذروه المسير الى الكوفة ، فكاد يرجع عن طلبها لولا ان قام بنو عقيل اخوة مسلم فحرضوه على المسير وقالوا : «والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا او نذوق ما ذاق مسلم» •

فتحمس الحسين وقال : «صدقتم ، لا خير في العيش مع هؤلاء» •

وما زال سائرا حتى دنا من ضواحي الكوفة والناس يأتونه في الطريق ويحذرونه • فأصر على المسير ، ولكنه اطلق الحرية للذين معه فقال لهم : «قد خذلتنا شيعتنا • فمن احب ان ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام» •

فتفرقوا عنه يمينا وشمالا ، حتى بقي في اصحابه الذين جاءوا معه من مكة وفي جملتهم عبد الرحمن وعامر • وكانا من جملة من حرضوه على المسير للانتقام • وكان عبد الرحمن لا يستصعب شيئا في ذلك السبيل بعد ما كان يعتقده من مقتل سلمى •

أما سلمى فانها كانت قد صممت على النهوض لملاقاة الحسين لكي تطلعه على جلية الخبر وهي تحسبه لا يعلمه • وباتت ليلتها تحت تلك الشجرة على ان تصبح في الغد وتسير • ولما اصبحت ودعت الشيخ وخرجت • ولم تمش قليلا حتى رأت الغبار يتصاعد من جهة الكوفة ثم ظهرت من تحته الخيل فعلمت ان ابن زياد ارسل جنده لملاقاة الحسين• فتظاهرت بالاستسقاء من بعضهم وسألت عنهم ، فعلمت ان قائدهم عمر ابن سعد وان عددهم يبلغ بضعة آلاف • فنزل هذا الجند في القادسية ونظم الخيول بين القادسية الى ضفان ،ومن القادسية الى القطقطانة والى جبل لعلع • فخفق قلب سلمى خوفا على الحسين ورجاله ، ولكنها ظلت سائرة وقلبها طائر امامها التماسا لملاقاة عبد الرحمن • حتى بلغت جبلا اسمه «ذو جشم» فوقفت لتطل منه على الطريق واذا بغبار يتعالى عن نحو ثلاثين فارسا وأربعين راجلا ما عدا النساء والاطفال فعلمت ان القادمين هم الحسين ورجاله ، ولكنها استقلت عددهم واستغربت مجيئهم بهذه القلة بعد ان رأت جند الكوفة وكثرتهم • ثم تبادر الى ذهنها انها ترى طليعة الجيش وان البقية آتية ، فوقفت جانبا وقلبها يخفق وعيناها شائعتان تتفرسان في وجوههم لعلها ترى عامرا او عبد الرحمن • فلم تر احدا • فترجح عندها ان الذين تراهم ليسوا كل الجند فسألت عبدا كان منفردا عن الركب ، فعلمت انهم الحسين ورجاله جميعا • فاستغربت ذلك وانقبضت لما علمته من كثرة جند الامويين في القادسية ، واشتغل خاطرها على عبد الرحمن وعامر ، ثم رأت جماعة اسرعوا فنصبوا فسطاطا كبيرا في سفح الجبل • وبعد قليل اقبل فارس حسن اللباس والقيافة جليل القدر يحيط به الرجالة وعليه جبة منخز وعلى رأسه عمامة، وقد اختضب بالوسمة (وهي ورق النيل او نبات يخضب بورقه) وهو في نحو السابعة والخمسين من عمره ولا يزال الجمال ظاهرا في وجهه مع

ما فيه من آثار الانقباض • فعلمت انه الحسين ، فاشتغلت لحظة بالتطلع اليه فاذا هو قد ترجل ودخل الفسطاط وهو صامت كأنه يفكر في امر ذي بال ، وأشار الى رجاله ان يرشفوا الخيل ترشيفا وسلمى بالباب في جملة الواقفين وعيناها تتنقل في الناس . ثم تحولت الى سائر المعسكر وتفحصت الرجال ببصرها فلم تجد عامرا ولا عبد الرحمن فاضطرب قلبها وارتابت في كلام الناسك • ثم عادت الى الخيمة لعلها تجد احدهما فيها ، فرأت فارسا قادما من جهة الصحراء وعليه لباس الامراء ففتح له الناس طريقا حتى أقبل على الخيمة وترجل ودخل على الحسين ، فلم تعرفه سلمى ولكنها سمعت بعض الناس يتحدثون عنه ويتذمرون من قدومه ، ثم علمت انه الحر بن يزيد التيمي قدم من القادسية في الف فارس لرد الحسين عن الكوفة • فالتفتت سلمى الى الناحية الثانية من الجبل فرأت الخيل قد ملأت السهل •

ثم دخل الحر على الحسين وقال له : «ما الذي جاء بك الى هنا ؟»

فقال الحسين : «اني ما جئتكم حتى جاءتني كتبكم بأن أقدم اليكم»•

فقال الحر : «اننا والله ما ندري ما هذه الكتب !»

فقال الحسين : «أتكتبون ثم تنكرون ؟»

قال : «اننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك ، وانما نحن امرنا اذا لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد» •

فقال الحسين : «الموت أدنى اليكم من ذلك» ، ثم صاح في اصحابه : «قوموا فاركبوا وانصرفوا» •

فاعترضه الحر قائلا : «بل لا ينصرفون» •

فصاح الحسين فيه : «ثكلتك أمك ، ماذا تريد ؟»

قال له الحر : «اما لو غيرك من العرب قالها لي وهو على مثل الحال التي انت عليها ما تركت ذكر امه بالثكل كائنا ما كان • ولكن والله مالي

الى ذكر امك من سبيل الا بأحسن ما نقدر عليه» •

فقال الحسين : «فما تريد ؟»

قال : «أريد ان أنطلق بك الى الامير عبيد الله» •

قال : «اذن والله لا أتبعك» •

فنظر الحر اليه وعيناه تعتذران عن جرأته وقال : «اني لم أومر بقتالك ، وانما أمرت الا أفارقك حتى أقدمك الكوفة ، فاذا أبيت فخذ طريقا لا يدخلك الكوفة ولا يردك الى المدينة ريثما اكتب الى عبيد الله فأستشيره في امرك» •

- ١٧ -

زينب بنت علي

رضي الحسين بذلك وأمر الناس بالركوب • فلما سمعت سلمى ما دار بينهما تحققت عجز الحسين عن قتال هؤلاء واستعاذت بالله من عاقبة ما تراه • ثم عادت الى شأنها واعتزمت ان تبحث عن عبد الرحمن وعامر بحثا دقيقا ، فلم تر خيرا من ان تدخل خباء النساء وكانت تعرف اكثرهن وهن لا يكدن يعرفنها لانها لم تقم بينهن طويلا • فتحولت الى فسطاط دخلته فرأت امرأة لم يقع نظرها عليها حتى عرفت انها زينب اخت الحسين وكانت شديدة الشبه به لانهما من أم واحدة (فاطمة بنت الرسول) • فرأتها في انهماك وبغتة وقد علت جبينها دلائل الاهتمام وعيناها تتوقدان ذكاء وتعقلا ، وكانت زينب مشتغلة بطفل بين ذراعيها لا يزيد عمره على سنة وبعض السنة ، تربته وتشدو له وعيناه ذابلتان للرقاد

وقد أشرق وجهه كأنه يتدفق نورا وحياة • والطفل في غفلة عما حاق بأهله من الامر العظيم ، فعلمت سلمى انه علي الاصغر ابن الحسين وهو أصغر اولاده ، وكان للحسين ثلاثة ابناء كل منهم اسمه «علي» ، وانما يعرف بعضهم من بعض بلقب السن فالاكبر اسمه «علي الاكبر» والثاني «علي الاوسط» ــ زين العابدين ــ والثالث «علي الاصغر» وهو هذا •

أما زينب فحالما وقع نظرها على سلمى عرفتها واستغربت حضورها في تلك اللحظة ، ولكنها لعظم ما عانته من الاهوال لم تعد تستبعد شيئا • فابتسمت ابتسامة الترحاب بالرغم من شواغلها واستأنست بها • فأسرعت سلمى اليها تعرض عليها مساعدتها • فأشارت اليها قائلة : «خذي هذا الغلام على ذراعك ريثما ينام» • فتناولته وحنت عليه حنو الوالدة على ولدها • فلما خلت يد زينب تحولت الى فراش في بعض جوانب الخباء عليه غلام مضطجع فتبعتها سلمى ببصرها وتفرست في الراقد فاذا هو علي الاوسط وقد توردت وجنتاه وتصبب العرق من جبينه وذبلت عيناه وهما مفتوحتان حمراوان كالدم ودلائل الحمى بادية فيهما ، ورأت صبيـة جميلة الخلقة نجلاء العينين جاثية بجانب المريض وهي مرتبكة والدموع في عينيها مع ما يتجلى في وجهها من البشاشة الغريزية • فعلمت سلمى انها سكينة بنت الحسين أخت ذلك الراقد • وكانت سكينة من اجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقا مع خفة في الروح •

فوقفت سلمى وهي تتشاغل بتربية الطفل وتنظر الى زينب فاذا هي قد دنت من فراش المريض وجست يده ومسحت العرق عن وجهه • ثم التفتت الى سكينة وقالت : «لا بأس عليه يا حبيبتي باذن الله ولا تلبث الحمى ان تفارقه عما قليل بما ينسكب منه من العرق» •

فأجابتها سكينة بالبكاء ثم رفعت صوتها وقالت : «صبرا على حكم العناية ، أما كفانا ما أحدق بنا من الاخطار حتى أصيب اخي هذا بالمرض•

فماذا عسى ان تكون عاقبة هـــــذه النوازل ؟» • قالت ذلك وشرقت بدموعها •

فأومأت اليها زينب وهي تتجلد : «لا تقولي هذا على مسمع مـن المريض لئلا يشتد مرضه» • ثم أمسكتها بيدها وأنهضتها وقالت : «قومي يا بنت اخي هلم بنا تتأهب للرحيل فان أباك قد أمر بالركوب» •

فنهضت الفتاة وأخذت تهتم بنفسها فوقع نظرها على سلمى فعرفتها واستأنست بها لانها لم تكن تطيق الانقباض لانطباعها على المـــــرح والسرور •

وكان الطفل قد نام على ذراعي سلمى وهي تضمه الى صدرها وتتيمن بقربه لانه ابن الحسين وفيه من دم الرسول ، فلما ارادت زينب ان تأخذه منها قالت لها : «دعيه نائما على ذراعي فان ذلك اكثر راحة له مـــن الانتقال » •

قالت : «بورك فيك يا بنية ، ولكنني ارى ان أضجعه في الهـودج ونحن على أهبة الرحيل» •

قالت : «اني اذهب في خدمته الى حيث يسير • دعي امر العناية به الي واشتغلي بشؤونك» •

فأثنت عليها وتحولت الى فراش علي الاوسط فأنهضته ، وأمرت من معها من النساء والجواري ان يأخذن في شد الرحال •

وكان الرجال قد اخذوا في تقويض الخيام وتحميل الاحمال• وركب كل منهم في مركبه ، وركبت سلمى في هودج مع زينب والطفل ، وهي تشتاق الى الاستفهام عن عبد الرحمن ، ولكنها استحيت ان تسألها وهي في تلك الحال •

أقلع الركب وساروا في طريق وسط بحيث تكون الكوفة الـــى يمينهم ، والحر ورجاله سائرون بالقرب منهم ليمنعوهم من الرجوع اذا

ارادوه .

وكانت زينب وهي في الهودج تشرف من خلال الستور على اخيها ومن معه هنيهة بعد هنيهة وتعود الى مقعدها وهي تتأوه . فعلمت سلمى انها انما تفعل ذلك لعظم قلقها واضطرابها . فأرادت ان تسليها وتخفف عنها وهي تتوقع ان تستطرق الى حديث حبيبها فقالت : «مالي اراك في هذا الاضطراب يا مولاتي ؟»

فتنهدت زينب ونظرت الى سلمى وقالت : «تسألينني عن سبب اضطرابي وأنت ترين ما نحن فيه . آلا تعلمين اننا ذاهبون الى القتل ؟»

قالت : «ولماذا تقولين هذا ؟ ان الله ينصر نصراءه ويرفع كلمتهم».

قالت : «صدقت يا بنية ، ولكنك لو عرفت ما ينتظرنا في الكوفة وفي ضواحيها من الاهوال ، وما هنالك من الاعداء وفيهم الفرسان والرجالة لعجبت لمسيرنا ، ومعنا الاطفال والغلمان والنساء ، وفيهم المرضى والضعفاء والرضع ، وليس معنا من الرجال الا اخوتي لأبي وهم ستة: العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، وعبيد الله ، وابو بكر . وما من اولاد اخي الحسين من يستطيع القتال الا علي الاكبر . وهذا علي الاوسط غلام مريض. ومعنا من ابناء اخي الحسن رحمه الله اثنان صغيران هما : ابو بكر والقاسم . وبضعه آخرون من ابناء عمي عقيل الذين قتل اخوهم مسلم في الكوفة» . ثم تنهدت وقالت : «آه لو تعلمين كيف قتلوه ؟!»

فتذكرت سلمى مقتل مسلم وحان لها ان تظهر نفسها وتستطرق الى حديث حبيبها . فقالت : «اني أعلم بمقتل ذلك الشهيد يا مولاتي» .

فانتبهت زينب لنفسها وأدركت انها كان يجب ان تسألها عن حالها فقالت : «أظنك من اهل الكوفة .. متى جئت منها ؟»

فقالت : «نعم كنت في الكوفة ، ورأيت مسلما يناضل بسيفه في

بيت طوعة الكندية • ثم رأيتهم يسوقونه والدم يسيل من شفتيه • وعلمت انهم لما بلغوا به دار ابن زياد قتلوه قتلة لم نسمع بمثلها من قبل ، أصعدوه الى اعلى القصر فضربوا عنقه وقذفوا بجثته الى اسفل» •

فصاحت زينب : «قتلهم الله ما اقسى قلوبهم ! اني كلما فكرت في ذلك يقشعر بدني» •

فقالت سلمى : «من انبأكم بمقتل مسلم ؟»

قالت : «لم نسمعه الا بالامس ، وكان اخي قد ارسل نفرا من اصحابه للبحث عن حقيقة الحال وفيهم اثنان كنديان لم أر أشد غيرة منهما على الاسلام ، جاءانا من أمد بعيد ، وقد قص اخي علي من أخبار غيرتهما ما يفرح قلب كل مسلم» •

فلما سمعت سلمى ذكر الكنديين خفق قلبها عساهما ان يكونا عامرا وعبد الرحمن ، ولكنها تجلدت وسألتها : «ومن هما ذانك الرجلان يا سيدتي ؟ »

قالت : «لم ارهما يا بنية ، ولكني سمعت اخي يذكر ان احدهما ابن اخ لحجر بن عدي صاحب الغيرة المشهورة في نصرة الحق ، وهو الذي قتله معاوية بن ابي سفيان ظلما»•

ولم تكد زينب تتم قولها حتى ارتعدت سلمى ، وكان الطفل لا يزال على حجرها فأجفل لاجفالها، وصعد الدم الى وجهها بغتةوأخذت الدموع تتجلى في آماقها •

★ ★ ★

استغربت زينب ذلك من سلمى ، ولم تكن تعرفها جيدا ولا تدري علاقتها بعبد الرحمن فقالت : «ما الذي غيرك يا بنية ؟»

فلم تتمالك سلمى عن ارسال الدمع وهي تقول : «وهل سمعتم شيئا عن ذلك الوفد يا مولاتي ؟»

فتنهدت زينب وقالت : «والهفي عليهم فقد بلغني ان ابن زياد اللعين قبض عليهم وفعل بهم مثل ما فعله بابن عمي مسلم !»

فصاحت سلمى : «أقتلوهم يا سيدتي ؟ أقتلوهم جميعا ؟!» • قالت ذلك وهمت باضجاع الطفل في الهودج الى جانبها لئلا يعوقها عن الحركة او اذا تحركت توقظه •

فأدركت زينب ان في الامر سرا فقالت : «لا ، لم يقتلوهم جميعا ، لا ادري سوى انهم قتلوا بعضهم» •

فقالت : «هل قتلوا عبد الرحمن ؟ آواه !• قتلوه ؟!» • قالت ذلك وهي تلطم وجهها •

فأمسكتها زينب وقد نسيت مصيبتها واشتغلت بما رآته من نهفة الفتاة وبكائها وقالت لها : «ومن هو عبد الرحمن يا بنية . وهل من قرابة بينك وبينه ؟»

قالت : «انه ابن عمي ، هل قتلوه وألحقوه بأبي ؟»

فلما سمعت قولها تفرست في وجهها فرات فيها شبها بحجر بن عدي فقالت : «لعلك ابنة حجر بن عدي ؟»

فقالت : «نعم يا مولاتي اني ابنة ذلك المقتول ظلما ، ابنة شهيد الحق الذي ذهب في سبيل نصرة ابيك صهر النبي وابن عمه ووصيه وحبيبه • بالله اخبريني ، فرجي كربي ، هل قتلوا عبد الرحمن ؟»

فصمتت زينب لحظة وقد تفتقت جروحها ، وتذكرت مقتل ابيها وما يقاسونه من العذاب والبلاء بسبب ذلك • ولكن خاطرها اشتغل بسلمى لما رأته من غريب امرها اذ تذكرت احاديث سمعتها عن عبد الرحمن وخطيبته وموتها فقالت : «لعلك خطيبة عبد الرحمن ؟»

قالت وهي مطرقة : «نعم يا سيدتي انا هي تلك التعسة ، انا سلمى الشقية ، كتب علي ان احيا بعد موت ابي وابن عمي • آه يا رباه ما هذه المصائب • ولكن • هل مات ابن عمي حقيقة ؟»

فأرادت زينب ان تخفف عنها فقالت : «تجلدي يا ابنتي ، اني ارى في الامر سرا عظيما وأمرا غريبا ، لاني سمعت ان عبد الرحمن فقد خطيبته في دار يزيد بن معاوية في دمشق ، وأنه جاء للانتقام لها ولأبيها وأبي رحمهما الله • وهو انما اراد الذهاب الى الكوفة سعيا في هذا السبيل • كيف يقولون انك قتلت وأنت حية ؟»

فقالت : «انهم قتلوني ثم أحيوني كما قتلوا عبد الرحمن واحياه الله• قد خرجا من دمشق وأنا أحسبه مات وهو يحسبني مت ، ولكنني عرفت بقاءه حيا بالامس ، وقيل انه معكم• فجئت لألاقيه وألاقي عامرا وصينا ، فاذا انا اسمع ما سمعته منك • اشفقي علي يا بنت الرسول وارثي لحالي ، اعذريني على ما فرط من عواطفي بالرغم مني • وما انتم في حال تساعدكم على الاهتمام بمثلي» •

فاستغربت زينب كل كلمة تسمعها ولم تفهم السر في موتها وحياتها، ولكنها قالت لها : «لا تيأسي من رحمة الله • نعم ان عبد الرحمن وعامرا خرجا الى الكوفة مع الوفد ، ولكننا لم نسمع بمقتل واحد منهما بل سمعنا بمقتل سواهما ، ولا اظن هذين الا على قيد الحياة فأخبريني عما كان من موتك وموته في دار ابن معاوية» • فأخذت سلمى تقص حديثها وزينب تنظر اليها وقد شغلت بما تسمعه من الغرائب عما هي فيه•

لما فرغت سلمى من حديثها آنست زينب فيما سمعته منها عبرة وموعظة ، وأعجبت بغيرتها على الاسلام ، وعلى الثأر لاهل البيت وشيعتهم ، فقالت لها : «ان حديثك أثر في خاطري تأثيرا كبيرا ، وهون علي ما كنت أتخوفه من الموت • وما الموت بالامر الذي ينبغي ان نخافه

طالما رأينا الحق في جانبنا ، فاتخذي حالنا موعظـــة لك» . ثم فتحت ستار الهودج وقالت : «انظري الى هؤلاء وهم خيرة بيت الرســول ، انهم ملقون بأنفسهم الى القتل لانهم يعتقدون ان الحق في جانبهم ويرون خيرا لهم ان يموتوا محقين» .

فشعرت سلمى بأنها بالغت في شكواها وبيان مصيبتها مع ما تراه من المصيبة التي يتوقعونها عما قليل وهي ضربة شديدة على الاســـــلام والمسلمين . فابتدرتها قائلة : «اني لا أجهل ما نحن فيه يا مولاتي ، ومن هو عبد الرحمن ومن انا او كل المسلمين في جانب ابناء بنت الرسول وأولادهم . وانما يسوءني ان يغلب الباطل على الحق ، وأن ارى الطغاة ينتصرون على الكرام» .

وفيما هما في الحديث شعرتا بالهودج قد وقف ، وسمعتا لغطا ، فأطلت سلمى من خلال الستور فرأت الركب قد وقف ، ووقف الحـــر ورجاله بازاء الحسين ورجاله . واذا برجل على ناقة قادم من الكوفة وقد نكس قوسه وترجل وتقدم الى الحر ودفع اليه كتابا .

فقالت زينب : «ماذا عسى ان يكون خبر هذا الساعي وما فـــي كتابه ؟ » . قالت ذلك وترجلت ، فترجلت سلمى ، وأسرعتا الى الحسين ووقفتا تنتظران ما يكون من امر ذلك القادم . فاذا بالحر قد تناول الكتاب وقرأه ثم تحول الى الحسين وهو يقول : «هذا كتاب من الامير عبيد الله بن زياد ، هل أتلوه عليك ؟» . قال الحسين : «اتله» .

فقرأه فاذا فيه : «أما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، ولا تنزله الا بالعراء في غير خضرة وفي غير ماء . وقد أمرت رسولي ان يلزمك ولا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك امري والسلام» .

فلما فرغ الحر من تلاوة الكتاب نظر الى الحسين كأنه يعتذر له من الامر وقال : «لا أقدر ان أنزلك الا في هذا المكان» وأشار الى سهل

كربلاء على مقربة منهم ؛ والفرات من ورائه والجند يحول بينه وبين الماء.

فتقدم الحسين اليه ان ينزله في مكان فيه ماء ، فأبى وساقهم الى كربلاء .

وأما سلمى فنسيت قلقها على عبد الرحمن وعامر ؛ وانشغلت بأمر الحسين وأهله ، ولازمت زينب والطفل . أما زينب فانها عهدت في امر الطفل الى سلمى واشتغلت بخدمة الباقين ولاسيما الغلام المريض ، فان الحمى عاودته .

وأشرفوا في الصباح على كربلاء وسلمى في الهودج . فرأت جند الكوفة قد ملأوا السهل وحالوا بينهم وبين الماء . فتطاولت بعنقها لعلها ترى الشيخ الناسك قادما لكي تستطلع منه حال عبد الرحمن بعدما سمعته من مسيره الى الكوفة او تستفيد منه شيئا يهم الحسين فلم تر احدا .

أما الحسين وأهله فلما بلغوا كربلاء ضربوا خيامهم وجعلوا أخبية النساء الى الوراء وخيام الرجال الى الامام .

وأما زينب فلم تشأ ان تترك اخاها وحده فسارت الى فسطاطه وتبعتها سلمى وهي لا تقل قلقا عنها . فاذا بالحسين جاث بباب خيمته يصلي فصبرتا حتى فرغ من صلاته ، فرأتا رجلا من جند الكوفة قادما عليه فلما وصل الى الحسين حياه . فقال له الحسين : «من الرجل ؟»

قال : «جئت برسالة من امير هذا الجند عمر بن سعد» . قال : «وما رسالتك ؟ »

قال : «انه يسأل ما الذي جاء بك وماذا تريد ؟»

فقال له الحسين : «ان اهل مصركم هذا كتبوا الي ان أقدم فقدمت. فأما اذ كرهتموني فأنا أنصرف عنكم . او آتي يزيد بن معاوية فأضع يدي في يده» .

فلما سمعت سلمى قوله بكت لما توسمته في جوابه من دلائل الاستسلام •

- ١٨ -

التآمر على الحسين

وفيما كانت سلمى عائدة لاحت منها التفاتة الى بعض جوانب البر فرأت شبحا مسرعا من ناحية الكوفة • ما كادت تراه عن بعد حتى عرفت انه الشيخ الناسك فخفق قلبها وهرولت الى الخباء فدفعت الطفل الى أخته سكينة وخرجت لملاقاة الشيخ الناسك • ولما دنت منه سمعته يدمدم ويتمتم فأقبلت عليه حتى التقيا بقرب فسطاط الحسين فأرسل الناسك شعره على وجهه وأشار اليها انه يريد ان يكلم الحسين فاستبشرت باشارته • ومشت معه الى باب الخيمة فلما رآه الحسين استغرب منظره ولكنه رحب به وتوسم فيه الخير فقال : «اهلا بالشيخ» •

فقال الشيخ : «ارجع يا حسين ، ارجع الى المدينة انها خير لك وأبقى • ان الناس هنا يريدون بك شرا ولا تقوى على قتالهم» •

فقال الحسين : «اني اراك مخلصا فقل ما يبدو لك» •

قال : «انظر يا مولاي الى هذا الجند انهم اربعة آلاف رجل بقيادة عمر بن سعد ، وقد أمروا ان يقاتلوكم وأنتم فئة قليلة لا تقوون عليهم» • قال ذلك وانحدرت عبراته على لحيته •

فتأثر الحسين من منظره ولكنه تجاهل ما يراه وقال : «اني ارى

رأيك فهل من رجوع ؟»

قال : «اطلب الرجوع فان قبلوا كان به والا فاتك» . وبكى بصوت عال فبكت سلمى . وأما الحسين فقال : «لقد علمت مصيري لاني رأيت جدي (صلعم) الليلة يدعوني اليه ، وما عنده خير مما في هذه الدنيا الفانية » .

فكفكف الشيخ دمعه وقال : «أما وقد رأيت رغبتك في الآخرة فاعلم ان ابن زياد لم يجب طلبك ، وقد أوشك ان يجيبه ، لولا ذلك الخائن» .

قال : «ومن هو ؟»

قال : «لما بلغت رسالتك ابن زياد قبلها ؛ ولكن رجل السوء كان حاضرا وهو شمر بن ذي الجوشن فقام اليه وقال له : (أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك الى جنبك ، والله ان رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة ولتكونن أولى بالضعف والعجز . فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن ولكن لينزل علي حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبته فأنت أولى بالعقوبة ؛ وان عفوت كان ذلك لك) . فاستحسن ابن زياد الراي وبعث معه بكتاب الى عمر بن سعد رئيس هذا الجند يأمره فيه ان يعرض عليكم النزول على امره فان فعلتم بعث بكم اليه وان أبيتم قاتلكم . وقال ابن زياد لشمر : (فان فعل عمر بن سعد فاسمع له وأطع، وان ابى قتالهم فأنت امير الجيش ، فاضرب عنقه وابعث الي برأسه) . وهاك فحوى كتاب ابن زياد الى عمر بن سعد : (اني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ؛ ولا لتطاوله ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتكون له عندي شافعا . انظر فان نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا ، فابعث بهم الي ، وأما ان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون . وان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره . فان انت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع ، وان

أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر فانا قد أمرناه بأمرنا والسلام) . وقد جاء مولاي شمر اللعين بذلك الكتاب الى عمر ، فعنفه عمر وقال له : (ما أظنك الا نهيته ان يقبل ما كتب اليه، وأفسدت علينا امرا كنا قد رجونا ان يصلح . والله ان للحسين لنفسا أبية بين جنبيه) . فلم يصغ شمر لقوله وخاف عمر ان يخالفه فيقتل ، فاتفقا على ان يعملا معا وتولى شمر امارة الرجالة وأظنه قادما اليك في الغد » .

***

لم يتم الشيخ كلامه حتى كانت سلمى قد غرق وجهها في الدموع ، وزاد في شجونها ذكر شمر بن ذي الجوشن ، وكانت تحسبه قد قتل في دمشق على ما قصه عليها الناسك من حديث عامر عند انقاذه عبد الرحمن من السجن . اما الحسين فسمع كلام الناسك وكأنه ليس بالامر الجديد عنده ، وتجلد وقال : «اننا صابرون لحكم الله ، والله مع الصابرين» .

ثم انصرف الناسك فتبعته سلمى وهي ترجو ان تستفهم منه عن عبد الرحمن ، فاذا هو قد توغل في الصحراء ولم يلتفت اليها ، فوقفت حائرة مستغربة أطواره ، ثم حدثتها نفسها ان تلحق به فتنجو من خطر القتل . ولكنها قالت في نفسها : «لست خيرا من هؤلاء ، فاذا قتلوهم فما الفائدة من بقائي ؟» واذا كان عبد الرحمن ما زال حيا وقتل الحسين فانهم يقتلونه معه» . ثم رأت ان تذهب لعلها تراه ثم تعود ، ولكنها لم تدر من اين تعود وكيف ؟» فعادت تقول لنفسها : «ويلاه !» ماذا أعمل؟ أأترك عبد الرحمن لا اعرف مقره ولا أبحث عنه ؟» ولكن كيف اخرج من هنا ومن ينبئني بمكانه ؟» لا بل ابقى هنا أناضل مع الحسين وأحارب معه

فاذا انتصرنا كان الحظ حليفنا ، ونلنا السعادة في الدارين ، واذا قتلنا فلا أسف على الحياة . ولا أشرف من موتة اموتها مع الحسين وأهل بيته . وماانا خير من زينب او سكينة بنت الحسين ؟. ولكني ان استطعت الخروج فقد يحسبني الحسين خرجت هاربة» . وبعد التردد استقر رأيها على ان تبقى مع الحسين فاما ان تموت معه او تحيا معه . فعادت وقد ايقنت بالهلاك الا ان يأتيهم الله بفرج من عنده .

واتجهت الى خباء زينب وتحول خاطرها الى الطفل ، فقالت في نفسها : «اذا قدر الله فشل الحسين او قتله فماذا يكون من امر هذا الطفل ؟» . وشعرت بانعطاف اليه ، ودخلت الخباء فاذا بالطفل يبكي فأسرعت اليه وضمته وقبلته وسألته عما يريد فاذا هو يشكو الظمأ وما في المعسكر قطرة ماء ، فبحثت عن زينب حتى رأتها بجانب فراش ابن اخيها المريض وقد تعاظمت الحمى عليه وهو يهذي . فلما سمعت زينب صراخ الطفل نهضت اليه وتناولته وجعلت تقبله ودموعها تتساقط على خديه وهي تقول : «اشرب من هذا الدمع لعله يرويك ، اشرب انهم منعوا الماء عنا والكلاب تشربه !»

فقالت سلمى : «أليس عندنا شربة ماء ؟ اني ارى الفرات امامي ؟»

فصاحت زينب : «انهم منعونا الماء . ألم تسمعي هؤلاء الظالمين يقولون لاخي : يا حسين ألا تنظر الى الماء كأنه كبد السماء ، والله لا تذوقون منه قطرة واحدة حتى تموتوا عطشا ؟»

فقالت سلمى : «قبحهم الله ما اقسى قلوبهم وما أغلظ طباعهم !. أيمنعون الماء عن المرضى والاطفال ؟» . وأخذت تعلل الطفل بخرقة وضعتها في فمه وما زال يمضغها ويمصها وهو انما يمص ريقه حتى غلب عليه النعاس فنام .

وفي عصر ذلك اليوم (الخميس ٩ المحرم سنة ٦١ هـ) كانت سلمى

وزينب وسكينة جالسات في الخباء يتحادثن فيما يخفنه على الحسين ورجاله ، فسمعن قرقعة اللجم وصهيل الخيل وأصوات الرجال ، فخرجت زينب ثم عادت وهي تقول : «لقد اتوا قتلهم الله !»

فلما سمعت سلمى ذلك تحمست وثارت الحمية في رأسها وقالت في نفسها : «لقد حان وقت الاستشهاد في سبيل الحق ؛ وهل ارى سبيلا الى الجنة خيرا من هذا ؟» • وتلثمت بخمارها وأسرعت الى قوس معلقة في دعامة الخباء فتناولتها وجعلت تبحث عن السيف • وفيما هي في ذلك رأتها زينب فقالت لها : «ماذا تفعلين يا سلمى ؟»

قالت : «لا شيء انما انا طالبة وجه ربي اليوم» •

قالت : «لعلك تريدين النزول الى ساحة الحرب ؟»

قالت : «نعم» •

قالت : «وانى لنا ذلك • يا حبذا لو اننا ننزل جميعا فنقاتل حتى نقتل مع هؤلاء ، ولكن اخي منعنا واستحلفنا ان نأوي الى الخباء • ألم ترى اني خرجت الان اليه فرأيته جالسا بباب خيمته ومعه سيفه وكأنه لم يسمع صهيلا ولا صليلا • فدنوت منه فرأيته نائما ورأسه الى ركبته فناديته فأفاق فقلت : (أما تسمع الاصوات قد اقتربت ؟) فرفع رأسه وقال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الساعة في المنام فقال لي : انك تروح الينا) • فلما سمعت قول اخي لطمت وجهي وناديت بالويل ، فقال لي : (ليس لك الويل يا اخية ، اسكتي رحمك الله) • واستحلفني ألا أرفع صوتي ، وكلامه لا يرد • فهل تريدين غضبه ؟ امكثي معنا يا سلمى ويكفيك ان تلاحظي هذا الغلام ، وأنا أعالج المريض حتى يقضي الله بما شاء» •

فشق ذلك على سلمى وأسقط في يدها ، وقد كانت تود ان تستقتل حتى تقتل ، او تلقى شمر فتطعنه بالحربة او ترميه بالسهم ، لانه سبب كل

هذا البلاء ، فضلا عما لقيت بسببه في دمشق . وكانت تحسبه مات فلما علمت انه حي تضاعف بلاؤها . ولكنها لم تكن لتعصي اشارة الحسين ، فوقفت مبهوتة لا تدري ماذا تعمل . على انها تظاهرت بالاذعان ثم خرجت ملثمة حتى وقفت بازاء خيمة الحسين ، فرأت اخاه العباس قادما على راحلته من معسكر العدو فعلمت انه سار اليهم في مهمة ، فاستقبله الحسين وسأله عما كان من امرهم ، فقال العباس : «قد استمهلتهم الى الغد فأمهلونا على ان نستسلم فيسرحونا الى اميرهم عبيد الله بن زياد ، والا فليس عندهم غير الحرب» .

لما سمع الحسين ذلك قال : «خسئوا» . ووقف وصاح في اهله فاجتمع حوله كل اخوته وأبناء عمه وكل من معه من الرجال ، ووقفوا ينتظرون ما يقوله وكلهم طوع اشارته . فلما تكامل جمعهم وقف فيهم وقال : «أثني علي الله احسن الثناء ، وأحمده على السراء والضراء . اللهم اني احمدك على ان أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة ، فاجعلنا من الشاكرين . أما بعد فاني لا أعلم اصحابا أوفى ولا خيرا من اصحابي ، ولا اهل بيت أبر من اهل بيتي . فجزاكم الله عني خيرا . ألا واني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعا ، فانكم في حل ، ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا» .

فصاحوا جميعا بصوت واحد : «لن نفعل ذلك لنبقى بعدك ، لا ارانا الله ذلك ابدا» . فلما سمعت سلمى كلامهم لم تمالك ان قالت مثل قولهم والدمع ملء عينيها . فانتبه لها بعض الوقوف فالتفتوا اليها فاستحيت وبالغت في اخفاء وجهها .

اما الحسين فعاد الى الكلام وخاطب ابناء عمه فقال : «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم ، فاذهبوا انتم فقد اذنت لكم» .

فأجابوه : «سبحان الله !، ماذا يقول الناس ؟ يقولون انا تركنـــا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الاعمام ، ولم نرم معهم بسهم ولم نطعن برمح ولم نضرب معهم بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ؟ لا والله ما نفعل. ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا . ونقاتل معك حتى نرد موردك ؛ نقبح الله العيش بعدك» .

فأرادت سلمى ان تقول قولا فاذا برجل رفع صوته بين الناس وقال: «نحن نتخلى عنك ؟، وبماذا نعتذر الى الله في اداء حقك ؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي . ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . أما والله لو قد علمت انـــي أقتل ثم أحيا ثم أذري . يفعل ذلك بي سبعين مرة ، ما فارقتك حتـــى القى حمامي دونك . وكيف لا أفعل ذلك . وانما هي قتلة واحدة ، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها ابدا ؟!»

فسألت سلمى عن القائل فقيل لها : «انه مسلم بن عوسجة» . ثـــم سمعت غيره قال مثل قوله ، فانتعشت آمالها وأعجبها ما رأته من الاتحاد والتفاني في سبيل الحق .

فأثنى الحسين عليهم ، وتحول الى خبائه ، وتحول الباقون ، وسارت سلمى الى خباء زينب لتفتقد الطفل ، وكان الليل قد اقبل فاذا هو ما زال نائما ، فسرت بنومه ، ورأت زينب بجانب فراش المريض تمرضه فجلست الى جانبها وقد انتعشت آمالها بما سمعته في ذلك المساء ، وذهب كل الى فراشه وبقيت زينب وسلمى ساهرتين تمرضان عليا ، وتتحدثان .

وفيما هما تتكلمان همسا والليل هادىء ، وعلي قد نام وهو يئن من شدة المرض سمعتا قائلا يقول :

يا دهر أف لـــك من خليل   كم لم بالاشراق والاصيـــل
من صاحب او طالب قتيل   والدهر لا يقنــــع بالبديل
وانما الامر الى الجليــــل   وكل حـــي سالـــك سبيلي

وكان الصوت خارجا من فسطاط الحسين فعلمت زينب انه صوته فلم تتمالك نفسها ان وثبت تجر ثوبها وهي حاسرة الرأس ، فتبعتهـــا سلمى حتى انتهتا الى الحسين فرأتاه جالسا وبجانبه خادمه يعالج سيفه ويصلحه فصاحت زينب : «واثكلاه !• ليت الموت أعدمني الحياة اليوم• ماتت امي فاطمة وأبي علي وآخي الحسن • يا خليفة الماضي وثمـــال الباقي ! »

فنظر الحسين اليها وقال : «يا أخية ، لا يذهبن حلمك الشيطان» • ثم ترقرقت الدموع في عينيه وقال : «لو ترك القطا لنام !»

فقالت زينب : «يا ويلتاه ! أفتغتصب نفسك اغتصابا ، فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي» • وغلبها الحزن وبرح بها الاسى فخرت مغشيا عليها • فهمت سلمى بها وأجلستها ، وقام الحسين لها وقال : «يـــا أختاه ، اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، واعلمي ان اهل الارض يموتـــون وأهل السماء لا يبقون ، وان كل شيء هالك الا وجه الله • جدي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمـــــي خير مني ، وأخــــــي خير مني ، ولي ولكل مسلم برسول الله أسوة» • ثم قال لها : «يا أخية ، انـــي اقسمت عليك فأبري قسمي ، ولا تشقي علي جيبا ، ولا تخمشي علـــي وجها ، ولا تدعي بالويل والثبور اذا انا هلكت» •

فأطاعته وخرجت وسلمى تتبعها صامتة ، وقد احبت الموت مـــــع الحسين ، اما هو فقضى ليله يصلي ويستغفر ويدعو ويتضرع ، وأصحابه كذلك • وقضت سلمى ليلتها مثلهم وقد اخذ العطش منهم مأخذا عظيما •

وأصبحوا في اليوم التالي وهو العاشر من المحرم ، فاشتغل الحسين بترتيب رجاله فأمرهم ان يدخلوا اطناب الاخبية بعضها في بعض حتى تصير كأنها خباء واحد . وأن يستقبلوا القوم من وجه واحد والبيوت من ورائهم . ولم يكادوا يفعلون ذلك حتى رأوا الخيل اقبلت عليهم وفي مقدمتها شمر بن ذي الجوشن ، وكانت سلمى واقفة في باب الخباء فلما رأت شمر ارتعشت اعضاؤها ورفعت نظرها الى السماء وطلبت الى الله ان ينتقم منه .

ثم حدثتها نفسها ان ترميه بسهم ولكنها تذكرت ان الحسين ابى عليهن القتال فصبرت واكتفت بالدعاء وملاطفة الطفل .

اما الحسين فركب راحلته وعليه جبته وقلنسوته وتقدم وهو ينادي بأعلى صوته : «يا اهل العراق» . فسمعه اكثرهم وأصغوا لما سيقوله فقال : «ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق علي، وحتى أعتذر اليكم ، فان اعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد ، وان لم تعطوني النصف من انفسكم فاجمعوا رأيكم (ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) . أما بعد : فانسبوني وانظروا من انا ، ثم ارجعوا الى انفسكم وعاتبوها ، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟ وابن وصيه وابن عمه ؟ وأول المؤمنين المصدق لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله بما جاء من عند ربه ؟. أوليس حمزة سيد الشهداء عمي ؟. أوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي ؟. أولم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله لي ولأخي : (هذان سيدا شباب اهل الجنة) . فان صدقتموني فهو الحق والله ما تعودت كذبا منذ علمت ان الله يمقت عليه اهله . وان كذبتموني فان فيكم من ان سألتموه عن ذلك اخبركم» . ثم قال : «فان كنتم في شك

من هذا فتشكون اني ابن بنت نبيكم • فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم • ويحكم !• أتطالبونني بقتيل منكم قتلته ؟ او مال لكم استهلكته ، او بقصاص جراحة ؟»

فأجابوه : «اننا لا نفهم ما تقول» • وحملوا وحمل رجاله •

فلما علت الضوضاء صحا الطفل من نومه فأسرعت سلمى اليه وقلبها يتقطع حزنا عليه ، واشتغلت باسكاته وهو يصيح من العطش كأنه ذعر لاصوات الناس فازداد بكاء وعويلا ، وزينب مشغولة بنفسها لا تدري ماذا تعمل وقد اشتد المرض بابن اخيها فشغلها الاعتناء به •

وفيما هم في ذلك وقد علت الضوضاء ، رأت سلمى فارسا مقبلا من معسكر اهل الكوفة يستحث فرسه نحو الحسين • وكان الحسين واقفا ينتظر ما يبدو وهو لا يصدق انهم يحاربونه فلما رأى الفارس مقبلا لبث يتوقع وصوله • ولم يكد يقترب حتى عرف انه الحر بن يزيد الذي كان قد لقيهم قبل وصولهم الى كربلاء ، ورأته سلمى ايضا من خلال الخيام فعرفته وتعجبت لقدومه ، فلما وصل الى الحسين رمى قوسه بين يديه وهو يقول : «جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله ،،انا صاحبك حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق ، جعجعت بك في هذا المكان • وما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ويبلغون بك هذه المنزلة • والله لو علمت انهم ينتهون بك الى ما ارى ما ركبت مثل الذي ركبت• فاني تائب الى الله مما صنعت فهل لي من ذلك توبة ؟»

فقال له الحسين : «نعم يتوب الله عليك فانزل» •

قال : «فأنا لك فارسا خير مني راجلا ، أقاتلهم على فرسي ساعة ، والى النزول آخر ما يصير امري» •

فقال له الحسين : «فاصنع ما بدا لك» •

فلما سمعت سلمى كلام الحر دمعت عيناها وقالت في نفسها : «هل

يشعر مثل هذا الشعور ابن زياد او يزيد ؟» • ثم رأت الحر يسوق فرسه امام الحسين نحو اهل الكوفة فتبعته ببصرها وأذنيها ، لترى ما يكون منه فاذا هو ينادي اهل الكوفة قائلا : «يا اهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر ، دعوتم هذا السيد الصالح ، حتى اذا جاء أسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو انفسكم دونه ؟ ثم عدوتم عليه لتقتلوه وأمسكتم بنفسه ، وأخذتم بكظمه ، وأحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة ، فصار كالأسير في ايديكم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ومنعتموه ونساءه وصبيته وأهله من ماء الفرات الجاري ، يشربه اليهود والنصارى والمجوس ، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ؛ فها هم قد صرعهم العطش • بئس ما خلفتم محمدا في ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ ؟ »

ما أتم الحر بن يزيد كلامه حتى حمل اهل الكوفة وفي مقدمتهم عمر ابن سعد ، وكان عمر هذا اول من رمى سهما في الوقعة • وتصاول الفريقان وتراموا بالسهام حتى وقع بعضها في الخيام •

وكان النهار قد اضحى وسلمى تشاغل الطفل وتسكته ، وقلبها يميل الى النزال لعلها تلقى اجرا في الدفاع عن الحق • وشاعت عيناها وهي تنظر الى القوم عن بعد لعلها ترى ابن ذي الجوشن فلم تره بين الرجال• فطلعت على مرتفع والطفل بين ذراعيها نفيه بكفيها وزنديها وقلبها يختلج • فأرسلت بصرها في ذلك السهل فرأته مملوءا بالرجال والفرسان من اهل الكوفة بما يزيد عددهم على اربعة آلاف ، وليس مع الحسين الا اثنان وثلاثون فارسا وبعض الرجالة • ولكنها رأت رجال الحسين لا يحملون على جانب من جوانب العدو الا كشفوه ، ثم ما لبثت ان رأت الحر بن يزيد وقع قتيلا ووقع غيره • فحولت بصرها الى الحسين فرأته لم يحمل بعد فما زالت ترجو ان يستبقوه اذا ضعف امره او قتل رجاله •

ولم تستطع سلمى البقاء هناك خوفا على الطفل من نبل يصيبه ، فعادت الى الفسطاط فرأت زينب وسكينة وفاطمة يبكين بجانب فراش المريض وسمعته يخفف عنهن ويهون عليهن كأنه شيخ محنك وما به مرض. ولما رآها مقبلة وأخوه بين ذراعيها يبكي ، قال لعمته وأخته : «قمن فاستسقين له واتركنني فلا بأس علي» . فصاحت زينب : «ومن اين نستسقي له وهو يسقينا ؟ يا ليته يشرب الدمع فنرويه من آماقنا !» . قالت ذلك ونهضت الى الطفل فتناولته وجعلت تقبله وهي تبكي وتضمه الى صدرها ، فبكت سلمى مثل بكائها . ولكنها رأت من الحكمة ان تتجلد وتصبرها ، فاسترجعت الطفل الى حجرها وقالت : «تصبري يا سيدتي وسكني روعك لعل الله يأتينا بفرج من عنده» .

وكانت الشمس مالت عن خط الهاجرة فسمعت سلمى في المعسكر اصواتا متداخلة ، فهرعت وخرجت من الفسطاط ، وخرجت زينب في اثرها ، فرأت الحسين يصيح في رجاله يدعوهم الى صلاة الخوف . فتجمع الرجال ووقفوا والنبال تتساقط عليهم وصلى فيهم الحسين صلاة حارة يخشع لها قلب الجماد . فلما فرغوا من الصلاة تجددت آمالهم واطمأنت قلوبهم ــ والصلاة احسن معز للانسان في ضيقه ــ فتقدم احد رجال الحسين حتى أقبل على اهل الكوفة وفيهم حملة النبال والسيوف بين فارس وراجل وقال لهم: «يا قوم اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب. يا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد . يا قوم لا تقتلوا حسينا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى» . قال ذلك وهجم وهو يقاتل حتى قتل ، وهجم غيره في اثره ، وما زال رجال الحسين يقاتلون حتى لم يبق منهم الا اهل بيته خاصة .

حدث كل ذلك وسلمى لا تدري ماذا تعمل ؛ والطفل بين يديها ، وقد شغل خاطرها بالغلام المريض . فلما رأت رجال الحسين يقتلون طار

خوفها ونسيت مصيبتها وغلب عليها اليأس ، وأحبت ان تخالف الحسين وتقاتل معه . ولكنها لم تجد سبيلا الى ذلك والطفل يتوجع وقد تقطع قلبها لبكائه . وفيما هي في تلك الحيرة بباب الخباء رأت عليا الاكبر ابن الحسين . وهو شاب اصبح الوجه جميل الصورة في التاسعة عشرة من عمره تنبعث الهيبة من عينيه ، قد هجم على القوم بسيفه وهو ينشد قولا حماسيا . فخيل اليها انه فرج مرسل من السماء . ولكنها ما لبثت ان رأته أصيب بطعنة في صدره فخر صريعا يتخبط بدمه . وكان ابـوه الحسين بالقرب منه فصاح : «قتل الله قوما قتلوك يا بني ، ما أجرمهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول !» . قال ذلك وانهملت الدموع من عينيه . فلم تتمالك سلمى ان صاحت : «قتلوه قتلهم الله !»

وما أتمت كلامها حتى رأت زينب تسرع وهي تنادي : «واأخياه وابن أخياه !» . وجاءت حتى أكبت عليه . فأخذ الحسين برأسها فردها الى الفسطاط . ونادى فتيانه فقال : «احملوا اخاكم» . فحملوه حتـــى وضعوه في الفسطاط . فتكاثرت النبال المتساقطة هناك فأصيب غـيره وكلما أصيب واحد حملوه الى ذلك المكان .

وخافت سلمى على الطفل فأرادت ان تلجأ الى الخباء فرآها الحسين والطفل بين يديها ، فأشار اليها ان تأتي ، فأتت والطفل يبكي مـــن العطش وقد بح صوته وهي تحنو عليه لتقيه من النبال ، فتناوله الحسين من ذراعه وأسرع نحو المعركة فأسرعت اليه وشخصت ببصرها اليه وقلبها يختلج خوفا عليه ، ولم تفهم معنى ذلك ولم تدر ما تعمل . فاذا بالحسين يخاطب اهل الكوفة والطفل مرفوع بين يديه ويقول لهم : «يا اهـــل الكوفة خافوا من الله واسقوا هذا الطفل ، اذا كنت انا في اعتباركـم ظالما أستوجب الموت فما ذنب هذا الطفل الصغير ؟ يا قوم خافوا من الله واذكروا عذاب يوم أليم» .

فتأثرت سلمى من ذلك الكلام وحسبت اولئك القوم يحنون على الطفل فيسقونه ، ولكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت رجلا من نبالة الكوفة أوتر قوسه ورمى الطفل وهو يقول : «خذ اسقه» . فأصاب السهم أحشاءه فصاح الطفل صيحة الالم ثم تحول صياحه الى أنين فأحست سلمى ان السهم اصاب قلبها ، وركضت الى الحسين والطفل يختلج بين يديه وقد تدلى رأسه على صدره والدم يقطر من جبينه . فصاحت : «ويلاه ما أظلمهم !. ويلاه ما اقسى قلوبهم !» . وهمت بتناول الطفل فمنعها الحسين من ذلك وقال لها : «لا تبكي يا بنية ، ان له اسوة بجده وعمه وأهله الصالحين» ، ثم رفع يديه والغلام بينهما وشخص ببصره الى السماء وقال : «ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين» . ثم حمله حتى وضعه مع قتلى اهل بيته وفيهم اخوة الحسين وأولاده وأبناء عمه وأبناء اخيه ، والتفت الى سلمى وقال لها : «ارجعي يا فتاة الى الخباء» . فتراجعت وقلبها يقطر دما وعيناها تسكبان الدمع ولم تجد سبيلا الى مخالفة الحسين .

وبينما هي راجعة وكفاها على عينيها تستلقي الدمع وتندب القتلى أحست بيد قبضت على يدها وجرتها بعنف شديد . فارادت ان تجذب يدها ونظرت فاذا بالشيخ الناسك وهو كالاسد الكاسر قد طوق خصرها وحملها بين ذراعيه كأنه من مردة الجان وخرج بها من بين الخيام حتى اتى مضيقا فوق الخندق مر فوقه وهي تظن نفسها في حلم . حتى اذا وصل بها الى كهف وراء الخيام ، ألقاها الى الارض وهو يلهث من شدة التعب فصاحت فيه : «الى اين تذهب بي يا عماه ؟ دعني امت مع الحسين فانها احسن موتة يرجوها المؤمن في دنياه» .

فلم يستطع الشيخ ان يجيبها لتسارع أنفاسه من التعب . ولكنه

اشار اليها ان تصبر فحاولت الافلات منه والرجوع الى المعركة فأمسكها وأقعدها وهو يقول بصوت متقطع : «ليس الموت مما يسرع اليه ، وكيف تتركين عبد الرحمن ؟»

فلما سمعت اسم عبد الرحمن تجددت احزانها وزادت شجونها فبكت بصوت عال وقالت : «اين هو عبد الرحمن ؟ ألم يسبقني الى العالم الآخر ؟ دعني أمت وألحق به» •

قال : «من أنبأك بموته ؟»

قالت : «نعم انه مات وسبقني • دعني ألحق به • دعني أمت مع الحسين وأهل بيته» •

قال : «ان عبد الرحمن لم يمت يا بنية ، فهدئي روعك واعلمي ان الحسين مائت ولا فائدة من الدفاع عنه» •

قالت : «أتعلم انه مائت وتطلب بقائي ؟ وما الفائدة من بقائي وبقاء عبد الرحمن اذا مات سيد شباب المسلمين ؟ دعني أمت معه» • قالت ذلك ونهضت وهي تقول : «لا • لا • لا يموت • من يجرؤ على قتله ؟ ومن يمد يده اليه ولا تيبس ؟ واي ارض تتلقى دمه ولا تجف ؟• لا • لا يجرؤون على قتله وهو ابن بنت الرسول وسيد شباب المسلمين» •

فأمسكها الشيخ بيدها وقال : «ألا تصدقين انه مائت ؟»

قالت : «لا» •

قال : «قومي وانظري موته» •

فقامت وهي تهرول في مشيتها حتى وقفت على أكمة تشرف على الوقعة فرأت الحسين يمشي نحو فسطاطه والدم يقطر من فمه لسهم كان قد اصابه هناك ولم يقتله ولم يصل الى الفسطاط حتى احاط به جماعة من رجال الكوفة فيهم رجل ابرص ما كادت سلمى تراه حتى عرفت انه شمر ابن ذي الجوشن ، فأرادت ان تصيح فأمسكها وأسكتها •

فوقفت كأنها على الجمر وعيناها على الموقعة فرأت رجـــلا ضرب الحسين على رأسه بالسيف فقطع السيف القلنسوة وأصاب رأسه وامتلأت القلنسوة دما . فرفع الحسين القلنسوة وشد رأسه بخرقة ، ثم وضع عليه قلنسوة اخرى بينما رجع عنه شمر ومن كان معه . فحسبتهم قـــد عدلوا عن قتله ثم رأت الحسين عائدا اليهم ومعه ابن اخيه عبد الله ، وهو غلام لم يراهق كان عند النساء فلما رأى عمه في ذلك الضيق لـــم يتمالك عن ان تبعه وزينب في اثره . فسمعته يقول لها : «احبسيه يا أختي» . فأرادت ان ترجعه فأبى وامتنع عليها امتناعا شديـــدا وقال : «والله لا أفارق عمي» . ولم يتم كلامه حتى رأى رجلا يهوي بالسيف على الحسين . فصاح الغلام فيه : «ويلك يا ابن الخبيثة أتقتل عمي ؟»

فضربه الرجل بالسيف فاتقاها الغلام بيده فانقطعت يده الى الجلد حتى تدلت وهي معلقة بقطعة من جلد وأصيب رأسه . فنادى الغلام : «يا أماه !» فهم الحسين به وضمه وهو يقول : «اصبر يا ابن اخي على ما نزل بك ، واحتسب في ذلك الخير ، فان اللـــه يلحقك بآبائـــــك الصالحين » .

ومات الغلام لساعته وألحقت جثته بجثث اهله وسلمى تنظر . فطار صوابها ولم تعد تستطيع صبرا فاذا بالحسين قد دعا بسراويل يمانيـــــة قطعها ولبسها فلما رآته يقطعها استغربت ذلك منه فقـــال لها الشيخ : «أتعلمين لماذا فعل ذلك ؟. لقد قطع السراويل لكيلا يسلبوها بعـــد موتـــه » .

قالت : «أهو مائت كما تقول ؟.. لا أظنهم يقتلونه» .

ولم تتم كلامها حتى رأت شمر بن ذي الجوشن هاجما عليه ، ولم يكن قد بقي احد مع الحسين الا ثلاثة رجال قتلوا بين يديه . فهجم الحسين عليهم وعليه القلنسوة والجبة وتلك السراويل المقطعة وهي هجمة اليأس.

وكأنهم ذعروا لهجومه ففروا من بين يديه فرار المعزي مـن الوحش . فاستبشرت سلمى بذلك وقالت المشيخ : «ألم اقل لك انهم لن يقتلوه ؟.. ألا تراهم كيف يفرون امامه ؟»

ولم تقل ذلك حتى رأت السهام تتساقط عليه كالمطر وقد صار كالقنفذ فأحجم الحسين والرجال واقفون بازائه لم يجرؤ احدهم ان يبدأ بقتله وعند ذلك خرجت أخته زينب الى باب الفسطاط وصاحت وجند الكوفة يسمعها : «يا عمر بن سعد أيقتل ابو عبد الله وأنت تنظر اليه» . فلـم يجبها .

فنادت : «ويحكم أما فيكم مسلم ؟» . فلم يجبها احد .

- ١٩ -

مقتل الحسين

ثارت الحمية في رأس سلمى وأفلتت من يد الناسك وانطلقت نحو الخيام فاعترضها الخندق والنار لا تزال تتقد فيه ، ولم تجد المضيـــق الذي حملها الناسك عليه فوقفت وهي تتلفت لعلها تجد مسلكا الـــى المعركة فسمعت ابن ذي الجوشن يقول لرجاله : «ويحكم ما تنتظـرون ثكلتكم أمهاتكم ؟» . فالتفتت سلمى فرأت الرجالة حملوا عليه فضربه احدهم على كتفه اليسرى فقطعها وضربه آخر على عاتقه فكبا الحسين على وجهه الى الارض ، فصاحت سلمى وهي لا تدري ما تقول : «ويلكم قتلتم الحسين ، شلت أيديكم !» . وهرولت ونفسها تحدثها ان تثب من

فوق الخندق ولو وقعت في النار • وكان الشيخ قد ادركها وأمسك بذيل ثوبها وهي لا تبالي به وعيناها شائعتان الى الحسين وهو طريح بجانب جثة اولاده واخوته وقد اختلطت دماؤهم ولكنه لم يمت • فرأت شمر وثب عليه وسيفه بيده فوضع السيف في عنق الحسين وحزه حتى انفصل فسمعت سلمى بعد الحز شخيرا • ثم رأت شمر رفع الرأس بيده وقد سقطت القلنسوة عنه وبان شعره ، وقد تخضب بالدماء وأغمضت العينان وناوله الى رجل بازائه وقال له : «احمله الى الامير عمر بن سعد» •

فجثت سلمى وغاب رشدها ولم تعد تعرف ماذا تعمل ، وكانت قد انتقلت من موضعها بغير ان تنتبه فرأت على عوض الخندق خشبة فأفلتت من الشيخ ووثبت عليها وأسرعت نحو المعركة وهي تصيح : «ويلك يا شمر يا ظالم يا لعين !• كيف تلقى وجه ربك يوم الدين ؟»

وما وصلت الى فسطاط زينب حتى رأتها راجعة من المعركة ومعها نساء أخريات ، وفي أثرهن بعض رجال الكوفة يقبض الواحد منهم على ثوب لمرأة فتنازعه وهي تفر امامه حتى ينزع ثوبها عنها ، فأرادت سلمى ان تدافع فأمسكتها زينب بيدها وأدخلتها معها الفسطاط حيث الغلام المريض •

فدخلن الخباء ودخل في أثرهن رجال والسيوف مشرعة في أيديهم ، وهموا بفراش الغلام يريدون قتله فصاحت سلمى فيهم : «ويلكم أتقتلون الصبيان ؟» • وخنقتها العبرات وصاحت النساء مثل صيحتها •

وفي تلك اللحظة وصل عمر بن سعد فقال لاصحابه : «لا تقتلوا احدا من النساء ، ولا تأخذوا منهن شيئا وكفوا عن المريض» • وأمرهم ان يحيطوا بالفسطاط لئلا يدخله احد ، وأوصاهم ان يحرسوا الأخبية لئلا يخرج منها احد •

اما سلمى فانقطعت للبكاء هي وزينب وسائر النساء حتى علت

الضوضاء وارتفعت اصوات العويل مما يتفتت له الصخر •

ثم سمعت سلمى وقع حوافر وضجة فأطلت من خلال الخباء فرأت عشرة فرسان جاءوا بخيولهم الى حيث جثة الحسين ومعهم اميرهم عمر بن سعد وقد أمرهم ان يطأوا ظهر الحسين بخيولهم •

فرأتهم يطأون جثته بحوافر الخيل حتى رضوه ، وهي تتألم لذلك كأنهم يطأون على حدقة عينها ، فقالت في نفسها : «ما عاقبة ذلك يا رباه ؟» • ولكنها لم تخبر زينب خوفا عليها •

★ ★ ★

ارسل الكوفيون رؤوس القتلى الى ابن زياد وباتوا تلك الليلة في معسكرهم بقرب كربلاء وقد اقاموا حراسا على خيام الحسين وفيها نساؤه وجواريه وليس فيهم من الذكور الا ابنه علي الاوسط الملقب بزين العابدين وهو مريض •

وأسدل الليل نقابه وانقضت المعركة وقد قتل الحسين وأهله وأصبحوا جثثا هامدة لا حراك بها ، واستكنت عناصر الطبيعة وأشرق القمر وهو في ليلته الحادية عشرة فتكبد السماء قبيل العشاء • وأرسل أشعته على كربلاء وقد كانت في صباح الامس قاحلة ظامئة فأمست وقد ارتوت من دماء الابرياء • ولو ادرك ذلك التراب فظاعة ما جرى فيه في ذلك اليوم المهول لفضل الظمأ على الارتواء • او لو علم القمر بموقع أشعته تلك الليلة لحبسها ليستر ذلك الجرم الذي لم يتفق مثله في تاريخ العمران •

اما سلمى فلما أقبل الليل وهدأت الطبيعة استولى عليها الجمود ولبثت صامتة وطنين السهام لا يزال في أذنيها بما يتخلله من اصوات الناس ولاسيما صوت الحسين وهو يزجر الناس ويعظهم ويستعين الله•

فتمثل لها ما رأته في آخر الوقعة من مقتل الحسين وحز رأسه ووطء الخيل على ظهره • فاقشعر بدنها وشعرت بانقباض شديد وضاق صدرها وتاقت نفسها للبكاء ولا يحلو البكاء الا بجانب الميت • فأحبت الخروج الى مكان الوقعة لتشاهد تلك الجثة الساكنة وتبكيها لتفرج كربتها فنهضت وهي تتظاهر بحاجة نفسها حتى خرجت من الخباء ولم يمنعها الحراس لاشتغالهم بالحديث عما كان •

فانسلت بين الخيام حتى تجاوزت المعسكر وأشرفت على الموقعة وقد عرفت المكان بما ينعكس عن مستنقعات الدماء خلال الجثث من الاشعة الحمراء• فلما رأت ذلك اختلج قلبها في صدرها لما تتوقع ان تراه هناك من الاجساد المضرجة بالدماء ، ولا رؤوس لها • فمشت الهوينا وركبتاها ترتعشان ، وتذكرت ما كان من الضوضاء في ذلك الفضاء وما آل اليه من السكون المرعب • فازدادت رهبة حتى حدثتها نفسها بالرجوع ، ولكنها تجلدت وظلت في سبيلها وهي تتلمس الطريق وعيناها شاخصتان في الجثث فارتعدت فرائصها لما عاينته من الامر الفظيع •• رأت جثثا مطروحة لا حراك بها ولا رؤوس لها وأكثرها عار من الثياب لان القاتلين سلبوها الاثواب الا ما يستر العورات • وبينما هي تخطو خطوة الخائف الهائب سمعت صوتا خارجا من بين القتلى ، فاقشعر جسمها ووقف شعرها وجمد الدم في عروقها • فوقفت وأصاخت بسمعها وقد غصت بريقها وأمسكت نفسها وتفرست في مكان الصوت وهي على قيد أذرع منه فرأت شبحا يتحرك • فجثت في منخفض يكاد يواريها وقد ودت لو انها لم تتجشم القدوم الى ذلك المكان • على انها ما لبثت ان رأت ذلك الشبح يقول : «رحمك الله يا ابن بنت الرسول • رحم الله بدنا حمله الرسول على ذراعيه وقبله بشفتيه • لعن الله القوم الظالمين • كيف تجرأوا على هذه الفعلة الشنعاء ؟ كيف مدوا أيديهم الى هذا الجسم

الطاهر وفيه رائحة سيد المرسلين ؟»

فلما سمعت سلمى الصوت عرفت انه صوت الشيخ الناسك ، فاطمأن بالها وسكن روعها • ولكنها احبت البقاء في مكانها لتسمع ما يقوله حتى اذا ابكاها قوله بكت وفرجت كربتها • فسمعته يبكي ويشهق ويقول : «قبحهم الله ما اقسى قلوبهم !• ألم يخافوا من موقف اليوم الرهيب ؟ تجرأوا على قتلك وفيك بقية من دم الرسول وأنت ابن بنته • وقد قال فيك : (انا من حسين وحسين مني) كيف يلقون وجه ربهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئا ؟• ويل لهم ! قتلوا سيد شباب المسلمين قتلة لم يقتلها كافر ولا منافق ، ولم يكتفوا بقتلك والأسفاه عليك بل قد قطعوا رأسك ووطأوا ظهرك بالخيل • ولكنني اراك مستقبلا السماء وقد بسطت ذراعيك كأنك تشكو امرك الى ربك وتدعو للانتقام منهم• وما ربك بغافل عما يعملون • الويل لي انا الشيخ التعس ، ويل لشيخوختي • كتب علي ان ارى خير المسلمين يقتلون ، وقد كنت أتوقع اذا حييت ان ارى حسين مالكا رقاب المسلمين فتنتقم لي من ذلك الظالم الغادر قاتل الابرياء • فآخذ بثأر فلذة الكبد وحشاشة القلب المقتول في سبيل الحق • حتى اذا لقيت أجلي فارقت الحياة مجبور القلب وقد عاينت الحق سائدا والباطل مذعورا • فقضيت شيخوختي ناسكا هائما لا آوي المنازل ولا ابيت الا في الخلاء • ولكن ابى الله الا ان ارى الحسين وأولاده وأبناء اخيه وأبناء عمه جثثا لا حراك بها • وأرى الدم يجري من رقابها وجوانبها وأرى أبدانها مكشوفة وقد تلطخت بالدماء المجبولة بالتراب ، أبدانا بلا رؤوس • فيا لله من هذه البلية !» • ولما بلغ الشيخ الى هذا الحد خنقته العبرات فسكت وأوغل في البكاء •

اما سلمى فلم تتمالك عن البكاء وهي تسمع نواح الشيخ • ولكنها استغربت ما جاء فيه من التعريض والتلميح ولم تفقه ما وراءه • ولو

زينب ، وابنه عليا المريض • وتنكرت زينب بثياب حقيرة حتى لا يعرفها احد وسارت سلمى معها متنكرة ايضا حتى دخلوا الكوفة فرأوا اهلها يطلون من النوافذ والكوى ليشاهدوا بقية بيت الرسول • وسلمى تتفرس في الناس من خلال النقاب لعلها تجد عبد الرحمن او عامرا بينهم فلم تر احدا • حتى اذا أقبلوا بهم على قصر الامارة مشت زينب وسلمى ومعهما بعض الجواري وجلسن في ناحية من القصر على مقربة من مجلس ابن زياد • وكان ابن زياد جالسا والناس حوله ؛ ورأت سلمى بين يديه رأس الحسين وقد تعفر وتقلصت شفتاه وبانت ثناياه وتلطخ شعر لحيته بالدماء والتراب حتى اصبح الشعر كتلا متجمدة ، وابن زياد ينظر الى الرأس ويبتسم وفي يده قضيب يضرب به ثنايا الحسين • ورأت بجانب ابن زياد شيخا جليل القدر عرفت بعد ذلك انه زيد بن أرقم صاحب الرسول • فلما رآه الشيخ يضرب بالقضيب ثنايا الحسين قال له : «ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله (ص) عليهما ما لا أحصيه» • قال الشيخ ذلك وانتحب باكيا•

قال له ابن زياد : «أبكى الله عينيك •• أتبكي لفتح الله ؟• والله لولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك !»

فنهض الشيخ من بين يديه وخرج •

ثم انتبه ابن زياد الى النساء الداخلات فالتفت الى زينب وقال : «من هذه التي انحازت وجلست ناحية ومعها نساؤها» •

فلم تجبه زينب •

وعاد ثانية وسأل عنها فقال له بعض امائها : «هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله» •

فنهض ابن زياد حتى أقبل عليها ، فلما رأته سلمى مقبلا بالغت في التقنع لئلا يعرفها • أما هو فحسبها من جملة جواري زينب او خدمها فلم

يلتفت اليها بل خاطب زينب قائلا : «الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم» .

فقالت زينب : «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد (ص) وطهرنا من الرجس تطهيرا . انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا» .

فقال ابن زياد :«كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك ؟»

قالت : «كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وليجمع الله بينك وبينهم يوم القيامة فيتحاجون اليه ويختصمون عنده» .

فغضب ابن زياد واستشاط . فقال له بعض اهل مجلسه : «ايها الامير انها امرأة لا تؤخذ بشيء من منطقها ولا تذم على خطئها» .

فالتفت ابن زياد اليها وقال : «قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة من اهل بيتك» .

فلما سمعت زينب ذلك الكلام أحست بضعفها ورقت وبكت وقالت له: «لعمري لقد قتلت كهلي وأبدت اهلي وقطعت فرعي واجتثثت اصلي ، فان يشفك هذا فقد شفيت» .

فقال لها على سبيل التهكم : «هذه شجاعة ولعمري كان ابوها شجاعا شاعرا» .

فقالت : «ما للمرأة والشجاعة ؟ ان لي عن الشجاعة لشغلا» .

فهز ابن زياد رأسه هزة التهديد ، وتحول الى حيث كان علي بن الحسين ممددا وهو ما زال مريضا فقال له : «من انت ؟»

فقال : «انا علي بن الحسين» .

فالتفت ابن زياد الى من حوله وقال : «ألم يقتل علي بن الحسين ؟» فأجابه علي وقال : «كان لي اخ يسمى عليا قتله قومك» .

قال ابن زياد : «بل الله قتله» .

فقال علي : «الله يتوفى الأنفس حين موتها» .

فغضب ابن زياد وقال : «وبك جرأة لجدالي ؟ وفيك بقية للرد علي ؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه» •

فلما سمعت زينب ذلك نهضت نهضة الاسد ، وتعلقت بالغلام واعتنقته وقالت : «والله لا أفارقه فان قتلته فاقتلني معه» •

فنظر ابن زياد اليه واليها ساعة ثم قال : «عجبا للرحم !•• والله اني لأظنها ودت اني قتلتها معه • دعوه» • ثم قام من مجلسه حتى خرج من القصر ودخل المسجد فصعد المنبر فقال : «الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر امير المؤمنين يزيد وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته» •

فقام اليه عبد الله بن عفيف الأزدي ، وكان من شيعة علي فقال له: «يا عدو الله ان الكذاب انت وأبوك ، والذي ولاك وأبوه • يا ابن مرجانة ، أتقتل اولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟!»

فقال ابن زياد : «علي به» •

فأخذه الجلادون ثم قتلوه • وكان قتله قاضيا على المجاهرة بنصرة اهل البيت •

اما سلمى فانها لم تفتر لحظة عن التفرس في وجوه الناس ، والتسمع لما يصل اليها من أحاديثهم لعلها تسمع شيئا عن عبد الرحمن او عامر ، فلم تقف لهما على أثر • ولم تكن قادرة على الخروج الى المدينة للبحث عنهما لانها معدودة من جملة نساء زينب ، ولا بد من ارسالها معهن مخفورة الى دمشق • ولم يكن لها امل في بقاء عبد الرحمن لو لم تسمع الناسك يؤكد بقاءه • وكانت قد حملت قوله محمل التشجيع لها فلم تصدقه ، ولكن الانسان مفطور على التعلق بحبال الآمال ولو كانت أوهى من نسيج العنكبوت •

اما ابن زياد فأمر برأس الحسين فداروا به في سكك الكوفة على

رمح ، ولم يبق احد الا رآه وفيهم من شمت بموته وهم قليلون ، ولكن اكثرهم ودوا لو انهم لم يقتلوه .

- ٢٠ -

في دمشق الشام

وبعد ان طافوا بالرأس في أسواق الكوفة أمر يزيد جماعة من رجاله ان يحملوا رأس الحسين ورؤوس اصحابه ومن بقي من اهـــل بيت الحسين الى دمشق ليرى يزيد رأيه فيهم ، فحملوا الاحمال وقاموا يطلبون الشام وسلمى في جملة الاسرى لا تفارق زينب وسكينة وفاطمة ، وكانت تعزية كبرى لهن . ولم يكن عالما بحالها الا زينب ولكن مصابها شغلها عن التحدث معها عن عبد الرحمن وعامر ، ولم تجرؤ سلمى على فتح ذلك الحديث .

وكان يزيد بن معاوية بعد ان أمر ابن زياد على الكوفة وأوصاه بدفع الحسين لم يهدأ له بال وهو يفكر في حال الشيعة لعلمه ان قلـــوب المسلمين مع الحسين . ولكنه كان شديد الثقة بابن زياد لما يعلمه من دهاء ابيه زياد من قبله . وكان يرجو ان يكون له كما كان ابوه لأبيه. على انه لم يكن يتوقع بلوغ الشدة بابن زياد حتى يفتك بالحسين وأولاده وأهل بيته الى هذا الحد .

وكان لا ينفك عن استطلاع الاحوال ممن يرد عليه من رسل ابن زياد حينا بعد حين . فعلم بنهوض الحسين من مكة وقدومه الـــى

الكوفة ثم لم يعد يسمع شيئا . حتى اذا كان في مجلسه ذات يوم وقد جلس الامراء والاعيان بين يديه اذا بغلامه دخل وأنبأه ان بالباب رسولا من الكوفة . فخفق قلب يزيد لما يتوقعه من الخبر الجديـــد فقال : « ليدخل » .

فدخل رجل عليه امارات السفر وقد تزمل بعباءته واعتم بكوفيتـه فابتدره يزيد قائلا : «من الرجل ؟»

قال : «زجر بن قيس رسول عبيد الله بن زياد الى امير المؤمنين» .

قال : «وما وراءك ؟»

قال : «ابشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره» .

فاستبشر يزيد وأشرق وجهه وابتسم وقال : «بشرك الله بالخير» .

قال : «اعلم يا امير المؤمنين ان الحسين بن علي ورد علينا في ثمانية عشر من اهل بيته ، وستين من شيعته ، فسرنا اليهم فسألناهم ان ينزلوا على حكم الامير عبيد الله بن زياد او القتال فاختاروا القتال» .

فقال : «وهل قاتلتوهم ؟»

قال : «نعم يا امير المؤمنين ، اننا عدونا عليهم من شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى اذا اخذت السيوف مآخذها من هام القوم جعلوا يهربون الى غير وزر ويلوذون بالآكام والحفـــر كما لاذ الحمائم من صقر» .

فصاح يزيد : «بورك فيكم وشد أزرنا بكم» .

فقال زحر : «ثم والله ما كان الا جزر جزور او نومة نائم حتى اتينا على آخرهم» .

فابتدره يزيد وقد بغت وقال : «وهل قتلتموهم جميعا ؟»

قال : «نعم يا مولاي وهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح . زوارهـــم

العقبان والرخم بقاع سبسب» •
فصاح يزيد صيحة قوية وقال : «والحسين ؟»
قال زحر : «والحسين ايضا» •
فدمعت عينا يزيد وأطرق وهو يقول : «لعن الله ابن سمية !• لقد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين • أما والله لو اني صاحبه لعفوت عنه • رحم الله الحسين» • قال ذلك وانتهر الرسول وأخرجه من مجلسه ولم يصله بشيء •
فخرج الرسول ويزيد ما زال مطرقا وقد قطب حاجبيه وبان الحزن في جبهته • وفيما هو في ذلك سمع رجلا في صحن الدار يقول : «جئنا برأس أحمق الناس وألأمهم» •
فصاح يزيد : «من ينادي هذا النداء ؟»
قالوا : «هذا محفر بن ثعلبة ومعه جماعة يقولون انهم جاءوا برأس الحسين » •
فقال يزيد : «خسيء محفر •• والله ما ولدت أم محفر ألأم وأحمق منه» • ثم قال : «اين الرجل ؟ ادخلوا به علي» •
فأدخلوه عليه ورأس الحسين على كفه وقد تصاعدت ريحه • فأقبل الرجل حتى وضع الرأس بين يدي يزيد على البساط ومنظره ينفطر لـه القلب وقد تكمش جلده وتجعد شعره واختلطت رائحة الطيب بروائـح الدم المتعفن وتغير لون الشعر بما خالطه من الدم والتراب • فلما وقع نظر يزيد عليه اقشعر بدنه وتصور هول ذلك العمل الفظيع • وتذكر انه يرى رأس ابن بنت الرسول فتخشع وتهيب •
وما كاد ينظر الى الرأس حتى خرجت اليه من وراء الستار امـرأة مقنعة هي احدى نسائه ، واسمها هند بنت عبد الله ، فاستغرب القـوم خروجها على تلك الحال وهم يزيد ان يسألها عن سبب خروجها فصاحت

فيه وهي تشير باصبعها الى الرأس قائلة : «يا امـــير المؤمنين أرأس الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله ؟»

قال وهو يتلجلج بكلامه : «نعم فأعولي عليه والبسي الحداد على ابن بنت الرسول .. عجل ابن زياد فقتله ، قتله الله !»

فأخذت في العويل والبكاء ثم أدخلوها الى خدرها . وأذن يزيـد للناس فدخلوا عليه والرأس بين يديه وهو ينظر اليه ومعه قضيب ينكت به ثغره ويقول : «ان هذا وايانا كما قال الحصين بن الحمام :

ابى قومنا ان ينصفونا فأنصفت	قواضب في ايماننا تقطر الدما
يفلقن هاما من رجال أعـــزة	علينا ، وهم كانوا أعق وأظلما

وكان في جملة الحضور رجل من اصحاب الرسول اسمه ابو برزة الاسلمي ، فلما رأى يزيد ينكت ثغر الحسين قال له : «أتنكت بقضيبك ثغر الحسين ؟ أما والله لقد اخذ قضيبك في ثغره مأخذا لربمـا رأيت رسول الله (صلعم) يرشفه ، اما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ، ويجيء هذا ومحمد شفيعه !» . قال ذلك ثم قام وولى .

فلما سمع يزيد قول الرجل نظر الى الرأس وعيناه لا تزالان تدمعان وقال : «والله يا حسين لو كنت انا صاحبك ما قتلتك» . ثم التفت الى الناس وقال : «أتدرون من اين اتى هذا ولماذا قتل ؟» لانه علم ان الله أكرم يزيد بالخلافة . قال : (ابي على خير من ابيه ، وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الامر منه) . فأما قوله ابي خير من ابيه فقد تحاج ابي وأبوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم الله له . وأما قوله أمه خير من امي فلعمري فاطمـــة بنت الرسول خير من أمي ، وأما قوله جدي رسول الله خير من جده

فلعمري ما احد يؤمن بالله وباليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا • ولكنه انما اتى من قبل فقهقه ولم يقرأ : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ••»

فلما فرغ يزيد من كلامه علم الناس انه انما قال ما قاله تخفيفا لهول فعلته • ولم يجرؤ احد منهم على قول فسكتوا • ثم سمع يزيد جلبة في الدار فقال : «ما هذه الجلبة ؟»

فقال غلامه : «هؤلاء نساء الحسين في صحن الدار» •

قال : «ادخلوهن» •

فأدخلوهن وفيهن زينب أخت الحسين ، ومعها فاطمة وسكينة بنتا الحسين وبقية النساء وفي جملتهن سلمى • وكانت سلمى مقنعة كسائر النساء فلم تكن تخاف ان يعرفها يزيد وبالغت في التقنع لاخفاء امرها • ولكنها ما كادت ترى تلك القاعة حتى تذكرت يومها في دار يزيد وموقف عبد الرحمن هناك ، فتجددت احزانها ، على انها صبرت لترى ما يكون •

اما سكينة وفاطمة فتطاولتا من وراء الناس لتريا رأس ابيهما ويزيد يستره عنهما ، فلما رأتا الرأس صاحتا وصاح سائر النساء ، وولولت بنات معاوية • وقالت سكينة وكانت اكبر من فاطمة : «أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟»

فأثر قولها فيه فقال : «يا ابنة اخي اني لهذا كنت اكره» •

فقالت : «والله ما تركوا لنا خرصا» •

فقال : «ما اتى اليكن لأعظم مما اخذ منكن» •

فقام رجل من الحضور وهو من اهل الشام وقال ليزيد : «هب لي هذه» يعني فاطمة •

فلما سمعت فاطمة قوله ارتعدت فرائصها وعلمت انه يريد ان يأخذها

سبية فخافت وأمسكت بثوب زينب ، فالتفتت هذه الى الرجل وقالت : «كذبت ولؤمت ما ذلك لك ولا له» .

فغضب يزيد وقال لها : «كذبت والله ان ذلك لي ولو شئت ان أفعله لفعلت» .

قالت : «كلا والله ما جعل الله لك ذلك الا ان تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا» .

فغضب يزيد واستطار ثم قال : «أأياي تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين ابوك وأخوك» .

قالت زينب : «بدين الله ودين ابي وأخي وجدي اهتديت انت وأبوك وجدك» .

قال : «كذبت يا عدوة الله» .

فقالت : «انت امير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك» .

فاستحيى وسكت .

ثم أمر بعلي بن الحسين فأدخلوه عليه والغل في يديه ورقبته وهو غلام صغير وقد تعب من حمله على الاقتاب في اثناء الطريق ، وكان المرض قد فارقه ولكنه ما زال ضعيفا مهزولا . فوقف الغلام بين يديه وقال : «لو رآنا رسول الله (صلعم) مغلولين لفك عنا» .

فخجل يزيد وقال : «صدقت» . وأمر بفك غله عنه .

فقال علي : «لو رآنا رسول الله (صلعم) بعداء لأحب ان يقربنا» .

فأمر به فقرب منه وقال له يزيد : «ايه يا علي بن الحسين . ابوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت» .

فقال علي : «ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ، ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور» .

فقال يزيد : «وما اصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم» • ثم سكت عنه •

وكانت سلمى في اثناء ذلك تنتفض من شدة الغضب ، وتوقعت ان ينكشف امرها فتهيأت للدفاع بأي وسيلة كانت • فلما رأت سكوت يزيد هدأ روعها ، ثم رأته يشير بيده ان يخرجوهن فخرجوا بهن الى دار النساء ، فخافت ان يفتضح امرها هناك اذ لا تستطيع البقاء مقنعة بين النساء ، فاحتارت في امرها ولم تر خيرا من ان تشكو حالها الى زينب وتستشيرها لانها كانت عالمة بحكايتها مع يزيد •

فلما خرجوا بهن من مجلس يزيد وأدخلوهن دار النساء ، أقبل عليهن نساء يزيد وسائر اهل بيته وبكين معهن وأقمن المأتم وسلمى تتظاهر بالانشغال وهي ترى نساء يزيد وبينهن العجوز قيّمة الدار وتستتر منها وتنتظر فرصة لتخاطب زينب على انفراد ، حتى اذا جاء المساء خلت اليها واستشارتها في امرها ، فقالت زينب : «لا تظني اني نسيت حالك ، وقد كنت وأنا في بكائي ونحيبي أفكر في امرك • فاعلمي يا بنية ان يزيد خيرنا في الاقامة حيث نشاء ، وسنختار الاقامة بالمدينة فاذا شئت المضي معنا فأهلا بك ومرحبا» •

قالت سلمى : «اني على ما تشائين يا مولاتي ، ولكنني ما زلت آملة ان ••» • وبكت •

فأدركت زينب انها تعني عبد الرحمن فقالت : «لا قطع الله لك املا» • وسكتت لانها لا تدري ما آل اليه امر عبد الرحمن وعامر بعد مسيرهما الى الكوفة ، وان كانت ترجح موتهما • وبعد السكوت برهة قالت زينب : «ذلك أمر سننظر فيه بعد خروجنا ولكنني لا ارى بقاءك هنا الا خطرا» •

قالت : «وأنا اراه كذلك فهل تأذنين لي في الخروج الى الغوطة فأقيم

بدير خالد ريثما تخرجن ، فأكون معكن ان شاء الله ؟» • وقد اختارت الدير لكي تزور قبر ابيها وتبكيه مرة اخرى •

فقالت زينب : «لقد رأيت حسنا ، امكثي هناك حتى نخرج» •

ثم تظاهرت زينب بأمر تريد انفاذ سلمى فيه الى خارج القصر ، وأخرجتها منه فخرجت وهي كالضائعة الرشد لفرط ما هاج من أشجانها هناك اذ تذكرت كل ما قاسته من الاهوال في ذلك المكان • فلما اصبحت خارج القصر سارت في أسواق المدينة تطلّب الغوطة حتى اذا اشتمت رائحة البساتين ووقع بصرها على تلك الغياض تذكرت حالها مع عبد الرحمن وثارت احزانها ، فسارت تلتمس قبر ابيها وقد اشتد بها اليأس ولم تعد ترى في الحياة لذة •

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فترددت سلمى بين ان تتحول الى الدير او تسير الى قبر ابيها • وساقتها قدماها الى تلك الجوزة وهي لا تشعر ، فلما أطلت على المكان وقد غابت الشمس سارعت الى القبر وألقت بنفسها على التراب وأخذت في البكاء والنحيب وهي لا تبالي بما يتهددها من الظلام المقبل • وما زالت تبكي حتى بللت ذلك التراب وجعلت تندب أباها بصوت قد أضعفه التعب وتقول : «ويلاه يا أبتاه ! قم وانظر الى فتاة خلفتها وخلفت لها الشقاء ، وحملتها فوق ما تحملته النساء ! شببت وشب معي حب الانتقام • ولكن واأسفاه لم اجد الى الانتقام سبيلا • قم وانظر ما جرى • انظر الى فتاة عاشت يتيمة حزينة لم يكن لها من معدات الحياة الا حبيب يحبك وقد بذل نفسه من اجل الانتقام لك • ولكنه والهفي عليه لا ارى ما آل امره اليه • آه من ينبئني ببقائه حيا فأسعى اليه • ولكن انى له الحياة وقد كتب القتل على الصالحين والابرياء ؟• هل خطر لك يا أبتاه وأنت على قيد الحياة ان الناس سينقمون على الحسين ابن بنت الرسول ويقتلونه ، ويحملون

رأسه من الكوفة الى الشام ؟»

★ ★ ★

وفيما هي في تلك الحال وقد امسكت تنفسها لئلا يكدر ذلك السكون ، وأصبحت كالجماد لفرط خوفها ووحشتها سمعت سعالا قويا فوثبت بالرغم منها وصاحت صيحة الرعب ولم تكد تتحقق جهة الصوت حتى رأت شبحا قادما اليها من وراء شجرة بالقرب من الجوزة فصاحت: «ويلاه من انت ؟• أمن الجن ام من الانس ؟•• خف الله وابتعد عني» •

ولم تتم كلامها حتى سمعت قائلا يقول : «لا تخافي يا سلمى ، لا تخافي » •

فتبادر الى ذهنها لاول وهلة ان أباها قام من القبر فوقف شعرها واقشعر بدنها •

ثم دنا الشبح منها فاذا هو الشيخ الناسك • فلما عرفته وقعت مغشيا عليها . فأنهضها وجعل يروح لها بيديه حتى افاقت فقال لها : «سامحيني يا سلمى على هذا السعال ، فقد حدث بالرغم مني وما كنت لأزعجك الا مكرها» • فتشددت وجلست وهي تقول : «اين عبد الرحمن ؟• قل لي ايها الشيخ اين هو ؟ والا فادفني هنا في هذا التراب الان» •

فلم يجبها الشيخ الا بالبكاء بصوت عال وكأنه أصيب بجنة • وتركها وجعل يحثو التراب على وجهه ويبكي بكاء الطفل ويقول : «يا حبيبي يا حجر •• مت في سبيل نصرة الامام علي ، قم فانصر ابنه ، بل قم فابكه وابك اولاده وسائر اهله فقد ماتوا جميعا !• هنيئا لك انك جالس معهم الان في دار البقاء» •

فلما سمعته يقول ذلك ورأت حاله ، نسيت نفسها وتذكرت ما

سمعته منه ليلة مقتل الحسين في كربلاء فازدادت حيرتها وودت لو عرفت ما بعثه علي ذلك فقالت : «من انت ايها الشيخ ؟ قل لي وفرج كربي ؟»

فلما سمع كلامها تغيرت حاله وسكت كأنه ندم على ما فرط منه ، ثم تجلد وقال لها : «انك تسألينني عن امر ليس من شأنــــك يا سلمى» . اسكتي وابكي ما شئت ، واذا شئت ان تعلمي من هو الشيخ الناسك فسوف تعلمين . ستأتي ساعة ينكشف لك فيها امره ، وأرجو ألا ينكشف الا كما يريد هو» .

فسكتت سلمى وخافت ان يبدو منه ما لا تريده ، ثم ارادت ان تغير مجرى الحديث فقالت : «اخبرني اين عبد الرحمن ، أحي هو كمـــا قلت لي ؟»

قال : «لا أعلم ، ولو علمت ما كنت لاقول لك لانك لا تصغين الى قولي » .

قالت : «قل .. بالله قل .. اني مصغية» .

قال : «أتعملين بما اقول لك ؟»

قالت : «نعم أفعل كل ما تريده ، ولو أمرتني بأن أدفن نفسي حية !»

قال : «اطلب اليك ان تعتزلي هذا العالم وتأتي معي الى دير نقيم به لا نرى فيه الناس ولا نسمع بمظالمهم» .

فجاء ذلك الاقتراح صدمة قوية على قلبها فقالت : «وعبد الرحمن ؟»

قال : «لا تسأليني ، بل افعلي ما اقوله لك» .

فسكتت ولم تدر بم تجيبه ، ولكنها عولت على الاصغاء لقولـــه فقالت : «وأي دير تريد ان نقيم به ؟ أنقيم بهذا الدير ؟»

قال : «كلا ، لا نقيم في جوار اولئك الظالمين ، هيا بنا الى ديـــر بحيراء في بصري وان كان يعز علي ان أفارق هذا القبر» . قال ذلـــك واختنق صوته .

قالت : «وأين هو هذا الدير ؟»
قال : «على بضع مراحل من هذا المكان في جهة البلقاء» •

- ٢١ -

في دير بحيراء

كانت سلمى قد استأنست بالناسك وذهب اضطرابها وخوفها ، وقد آنست انعطافه اليها وبكاءه على ابيها زاد استئناسها به وتوسمت فيه شيء ترجو ان يفرج كربها ، ولكنها ما زالت في ريب من امره ، ولم تجسر على استفهامه عن حقيقة حاله بعد ان سمعت ما سمعته من تمنعه، على انها عولت على استطلاع ذلك في فرصة اخرى •

فلما رأت عزمه على السفر الى بصري والاقامة بدير بحيراء ، شق عليها الانزواء هناك وهي في ريعان الصبا ، ولم تنل غير الفشل في مقاصدها وضياع حبيبها • ولبثت برهة تفكر في سفرهما الى بصري وتردد في ذهنها امر خطيبها وقد علمت من زينب انه سار الى الكوفة ، فلما رآها الشيخ ساكتة قال : «ما الذي يجول في خاطرك يا سلمى ؟ أظنك تترددين في سفرك الى دير بحيراء ؟ وكأني بك تقولين كيف اسير الى بصري وقد تركت عبد الرحمن في الكوفة • فاعلمي يا سلمى اني لو لم ايأس من وجوده هناك ما دعوتك الى ذلك الدير • آه لو علمت اين هو ولو في الصين لقصدته كما قصدتك هنا» • قال ذلك وصوته يتلجلج كأن البكاء يعيقه عن الكلام •

فلم تزدد سلمى من ذلك الا اسفا لانها كانت لا تزال عالقة الذهن ببقاء عبد الرحمن في الكوفة . فاذا لم يكن هناك فأين يكون ؟ فازداد قلقها ولم تجد بدا من تسليم قيادها الى ذلك الشيخ ، وهي تعتقد حسن قصدت وصدق غيرته . على انها لولا بقية أمل فيها بلقاء عبد الرحمن ما فضلت مكانا على الدير او القبر . ثم قالت للشيخ : «وهل اترك بقية بيت الرسول وقد فارقت زينب على ان أنتظرها هنا ريثما تخرج مع اهل بيتها الى المدينة فأسير معها» .

قال : «لا ارى ان تسيري معهم ، فقد كفاك ما لقيته من الاهوال في رفقتهم ، تعالي الى دير بحيراء فنقيم هناك حتى يأتي الله بالفرج» .

قالت : «اني فاعلة ما تريد والاتكال على الله ، ولكن اين نبيت الليلة ؟ »

قال : «نبيت هنا ولا خوف علينا والبلاد في أمان . نامي انت وسأسهر انا لاني قد نمت طول النهار» .

وباتا تلك الليلة وسلمى في بحر من الهواجس لا تدري ما يصير اليه امرها .

فلما اصبحا قال الشيخ : «اعلمي يا بنية ان طريقنا من هنا الى بصري كثير الوعر ولا بد لنا من قطعه على أقدامنا» .

قالت : «لا يهمني ذلك فما انا اولى بالراحة منك وأنت شيخ وأنا صبية » .

قال : «سنسير بضعة ايام نحو الجنوب حتى نقبل على بصري مدينة الروم ومركز تجارة بلاد العرب» . فسكتت ولم تجب .

فقال لها : «امكثي هنا ريثما اعود اليك» .

ثم تركها ومضى ، وعاد بعد قليل ومعه جراب فيه زاد وفاكهة وقال :

«هذا طعام يكفينا يوما كاملا ورزق الغد الى الغد» •

★★★

وبعد ان سارا بضعة ايام سيرا بطيئا اشرفا قرب العصر على مدينة بصري (وهي غير البصرة في العراق) • وكانت سلمى قد تعبت واستوحشت وتغيرت حالها ولم تذهب صورة عبد الرحمن من ذهنها • وان لم تر سبيلا اليه لانها لا تعلم مقره ، ولكنها كانت قد استسلمت الى الشيخ الناسك لاعتقادها انه انما يسير بها الى الخير ، وانه ذو كرامة ولا يخطو خطوة الا لغرض فيه نفع لها •

فلما أطلا على بصري وهي من اكبر مدن حوران في ذلك العهد ، انبهرت سلمى لعظمها وعمرانها وخصبها وسط تلك البلاد الجرداء التي يندر فيها الشجر ، ورأت خارج المدينة من جهة الغرب بحرا لامعا بما ينعكس عنه من أشعة الشمس ، فسألت الشيخ الناسك عنه فقال : «ما هو بحر يا بنية وانما هو حوض كبير يخزن البصريون مياههم فيه ابان الشتاء ليستقوا منها في الصيف ، وهو خزان للمياه طوله نحو ١٢٠٠ ذراع وعرضه ٥٠٠ ذراع • وكان لبصري أحواض اخرى تهدمت» •

ثم قال : «ان بصري مدينة قديمة عاصرت دول اليهود فاليونان فالرومان ، وفيها ابنية رومانية ويونانية وسريانية» •

فالتفتت سلمى الى تلك المدينة والشيخ واقف بجانبها ، فاذا هي بديعة الانتظام يكتنفها سور يزيد محيطه على اربعة أميال ، ويحيط بالمدينة غياض وبساتين بها انواع الاشجار والثمار • ووراء ذلك سلاسل جبال حوران ممتدة على عرض الافق • ورأت لون ابنية المدينة مغبرا كأنها تلوثت بالدخان فقالت : «وما الذي غيّر لون هذه الابنية ؟»

قال : «ذلك هو لون أحجار هذه البلاد فان فيها حجرا اسمر يسمونه الحجر الحوراني هذا لونه ، ومما يزيدك عجبا ان ابنية حوران لا يدخل في بنائها شيء من الخشب ، وانما هم يصنعون سقف بيوتهم وأجنحة ابوابها ونوافذها من الحجر الصلد» .

فاشتاقت سلمى الى النزول للمدينة لمشاهدة اسواقها، فقال لها الشيخ: «اذا اردت النزول اليها فما انا نازل معك ، لاني كما قلت لك لا آوي المدن ولا أمر بها . ثم اني أعرف هذه المدينة كما أعرف بيتي فقد زرتها غير مرة وأنا شاب وكنت على دين النصرانية ، وزرت كنائسها وحماماتها وشوارعها وقصورها فاذا هي من اعظم المدن وربما سنحت لك الفرصة بعد حين بمشاهدتها ، اما الآن فتعالي معي الى الدير» .

فلما سمعت قوله انه كان على دين النصرانية في شبابه تفرست في سحنته فرأته يشبه ان يكون كنديا من قبيلة ابيها لان كندة كانوا نصارى حتى جاء المسلمون بلادهم فاعتنقوا الاسلام ، وزادها ترجيحا لذلك ما رأته من غيرته على ابيها والانتصار لبيت علي . ولم يزدها كل ذلك الا حيرة وشكا ، وهي مع ذلك لا تستطيع مخاطبة الشيخ في هذا الموضوع لئلا يغضب ، فلم تر خيرا من الصبر حتى يتأتى لها استطلاع الحقيقة .

أما هو فقال ما قاله وسار ، فسارت هي في اثره حتى اشرفا على الدير فاذا هو بناءان : احدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب علمت سلمى انه كنيسة ، والآخر صومعة على رابية . فمشيا نحو الكنيسة فلما أقبلا عليها تفرست سلمى في بنائها فرأتها مبنية على النمط الروماني . فدخلا صحنها حتى جاءا البيعة فرأيا المكان ديرا وفيه كنيسة ، وشاهدا الرهبان والقسوس وكلهم من الروم يتكلمون اللاتينية وبعضهم اليونانية والسريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة تلك البلاد بعد الفتح .

فقالت سلمى : «مالي ارى الناس هنا أخلاطا من لغات شتى ؟»

فقال : «لأن بصري يا ابنتي عند النصارى مركز أسقفية بلاد العرب الكبرى ، وفيها يقيم رئيس الاساقفة ، ومنها يرسلهم الى الآفاق» .

قالت : «اين دير بحيراء ؟»

قال : «هذا هو الدير الان ، وأما المكان الذي كان يقيم فيه الراهب بحيرا ، فهو صومعة بجانب الدير» .

قالت : «هلم بنا اليه» .

فخرج بها والرهبان لم يلتفتوا اليهما ولا استغربوا حالهما ، لان الدير ملتقى الغرباء ، وفيهم النساء والمهاجرون والمسافرون والمرضى وأهل النذور وغيرهم .

فلما خرجا من الدير التفتت سلمى الى الصومعة فاذا هي لا تشبه الابنية ، بل هي مؤلفة من خمسة أحجار ضخمة ، اربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع يفتح ويغلق بسهولة . فاستغربت تلك الصومعة فقالت : «ما هذه يا سيدي ؟»

قال : «ألم اقل لك ان هذه البلاد لا أخشاب بها ، وأهلها يصنعون ابواب بيوتهم وأجنحة نوافذهم ومقاعدهم وسائر آنية القعود والرقاد من الحجر . وقد يفعلون ذلك ولو كان المنزل مؤلفا من عشر غرف او عشرين ، فانك لا تجدين فيه اثرا للخشب» . قال ذلك ومشى امامها وعكازه بيده وهو على ما وصفناه به من ارسال الشعر وعليه رداؤه القديم ، وسارت هي في اثره ، حتى دخلا الصومعة فلم يجدا فيها من الآنية الا مصباحين معلقين امام صورتين احداهما تمثل مريم العذراء ، والاخرى تمثل السيد المسيح وهناك صورة اخرى لم يعرفاها ولم يجدا في الصومعة احدا .

فلما دخلت سلمى تخشعت وتذكرت حالها فقالت للناسك : «ها أنذا الان في دير بحيراء فكيف ترى ان تكون اقامتنا به ؟»

قال : «ان في الدير الذي خرجنا منه الان غرفا يقيم بها المسافرون ، والدير يقدم لهم ما يحتاجون اليه من الاطعمة مجانا ، فتقيمين انت بغرفة ، وأقيم انا بهذا البستان بالقرب منك ، فنجتمع في اثناء النهار ونفترق في الليل» •

اطرقت سلمى هنيهة ثم قالت : «ولكنني لم ار في الدير نساء فكيف أقيم وحدي ؟» • قال : «في الدير نساء كثيرات وأكثرهن يعملن في اعداد الطعام وغسل الثياب» • قالت : «ارى ان اكون معهن لكي يكون في اقامتي فائدة» •

★ ★ ★

خرج الشيخ الناسك وسلمى من الصومعة ، وسارا الى رئيس الدير، وقال له «انني وابنتي هذه نريد ان نقضي بقية حياتنا هنا نعبد الله ، وأنا شيخ ناسك لا آوي الى البيوت ، وابنتي تريد ان تلتحق بخدمة الدير فتساهم في اعداد الطعام وتنظيف الغرف ، فهل تقبلوننا ؟»

فقال الرئيس : «اهلا بكم ومرحبا» • ثم أمر لسلمى بثوب مما ترتديه خادمات الدير فلبسته ، وهو لا يقضي على لابسه باتباع شروط الرهبنة ، ولكنه يفرض عليه الخدمة في الدير فرحبت بها وأعجبت بما رأته من جمالها وما توسمته في عينيها من الذكاء ، وسمتها باسم جديد على العادة المتبعة في مثل هذه الحال • فصار اسمها مريم • ولم يمض قليل حتى احبها كل من في الدير من نساء ورجال ، وأعجبوا بما آنسوه من تعقلها وصدق خدمتها ، وقد زادها الانقباض والسكوت هيبة ووقارا وأصبحت بعد حين مرجع مشوراتهم وزهرة جمعياتهم •

ولم يكن يمضي يوم لا يأتي الدير فيه وفود الاضياف من انحاء

جزيرة العرب والعراق والشام ، وفيهم اهل التجارة وأهل السياحة وأصحاب النذور ونحوها • فأصبحت مريم مضرب أمثال اهل الدير واضحا في الرزانة والتعقل •

اما هي فكانت تجد في تلك الخدمة راحة وعزاء عن مشاغل العالم ، وأحست بسعادة لم تكن تشعر بمثلها من قبل لولا ما كان يعترض سعادتها من تذكر عبد الرحمن وما مر بها من الحوادث المؤلمة • على انها بمضي الايام كادت تنسى كل ذلك الا عبد الرحمن •

وكانت اذا اجتمعت بالراهبات او الرهبان ودار الحديث على الاحوال العامة ، سمعت طعنا قبيحا في يزيد وسوء تصرفه وما يرتكبه من شرب الخمور والانشغال باللهو والطرب وضرب الطنابير وتربية القرود • وكانت اذا سمعت ذلك ينقبض قلبها وتقول في نفسها : «لا يصلح الحاكم الا اذا أتيح له الاطلاع على سرائر رعيته وما يدور في مجالسهم الخاصة من نقد أعماله ، ولو انه أتيح له ذلك ما بقي على غيه مهما يبلغ من حمقه وجهله • كذلك كان يفعل عمر بن الخطاب فكان يتنكر ويخالط الناس فيسمع ما يقوله عجائزهم وصبيانهم وشبانهم وكهولهم ، ويتدبر ما يسمعه من الانتقاد فينصف المظلوم ويضرب على أيدي الظالمين ، فساعده ذلك على تشييد مملكة الاسلام وتقويم دعائمها على العدل والحق • وأما يزيد فانه انشغل بنسائه وخموره واستبد بأبناء الرسول واضطهد اهل بيته حتى كاد يهدم ما أسسه الخلفاء الراشدون ، ولو انه وجد من اصحاب شوراه من يطلعونه على حقيقة امره وما يقوله الناس عن حكومته وعن ضعفه واهماله ، لاضطر الى الاصلاح جهد طاقته • ولعل الله اراد ذلك تعجيلا لخروج الخلافة من يده» •

***

قضت سلمى في دير بحيراء سنتين وبعض السنة وهي على تلك الحال ، حتى ألفت الوحدة وكادت تنسى مصائبها ، ولكن ذكرى عبد الرحمن كانت تعاودها فتستغرق في التأملات ، ويخيل اليها احيانا انه ما زال حيا فيتجدد املها بلقياه ، ثم لا يلبث ذلك الامن ان يضمحل من مخيلتها فتعود الى البكاء عليه في خلوتها ، ولاسيما ان الشيخ الناسك لم يكن يشفي غليلها بخبر صريح عنه .

وأصبحت ذات يوم فرأت اهل الدير في هرج ومرج ، وقد اخذوا في تزيين الابواب والنوافذ ، ومد الابسطة وذبح الذبائح ، فسألت عما دعاهم الى ذلك ، فقيل لها : «ان الخليفة قادم الى حوران ولا بد له من المرور بالدير والاقامة به يوما او يومين» . فلما سمعت ذلك اختلج قلبها وانقبضت نفسها ولم تجد بدا من الذهاب الى الشيخ الناسك ، فلما اقبلت عليه رأته جالسا تحت شجرة وعكازه بيده ينكت الارض بها وقد بالغ في الاطراق كأنه يفكر في امر ذي بال . فلما دنت منه رفع بصره اليها وعيناه تتلألآن كأنهما شعلتان وابتدرها قائلا : «ان الطريدة اوشكت ان تقع في الفخ فهل تفلت منك هذه المرة ؟»

فشعرت سلمى بتجدد آمالها في الانتقام وقالت : «ارجو ألا تفلت والله المستعان» .

قال : «ان يزيد قادم الى الدير مساء اليوم ، وسيقيم هنا ليلة ريثما يستريح ثم يشخص الى حوران ، فاذا استطعت امرا ينسينا مصائبنا وأحزاننا فانك تفرجين كربنا وترفعين عن عاتق المسلمين ثقلا كبيرا» .

فأطرقت سلمى هنيهة ثم قالت : «اني فاعلة ذلك باذن الله ، ولكن هل يسعدني الحظ بعد ذلك بلقيا عبد الرحمن ؟»

قال : «اذا نجحت في قتل هذا الرجل فانك تحيين عبد الرحمن وتقيمينه من بين الاموات» .

فاقشعر بدنها وقالت : «اذن انت واثق من موته ؟»

قال : «كلا ، ولكن ارجو ان تؤدي الواجب عليك والله نصير المظلومين . واذا كتب لك لقاء عبد الرحمن في هذه الدنيا فانك تلقينه ظافرة وتعيشان سعيدين والا فانك تلاقينه في الآخرة وقد انتقمت لأبيك ولاهل البيت» .

وأرادت ان تجيبه فسمعت الناقوس يدعو الرهبان وسائر اهل الدير الى العمل فهمت بالرجوع . فناداها وقال : «تمهلي يا سلمى» . ثم تناول طرف ثوبه فحل عقدة فيه وأخرج منها ورقة دفعها اليها وقال : «خذي هذه الورقة فان فيها دواء الظلم اذا شربه يزيد شفي الاسلام من دائه» .

فعلمت انه سم فتناولت الورقة وفتحتها فرأت فيها مسحوقا ناعما ، فعادت وطوتها وخبأتها في جيبها ، وهرولت الى الدير حتى اتت المطبخ واشتغلت مع سائر النساء باعداد الطعام .

ولما مالت الشمس الى الاصيل ظهر غبار في عرض الافق ، ولم يكد يراه الرهبان حتى خرجوا بالمباخر والقماقم واصطفوا في ساحة الدير ، وعليهم الملابس الرسمية تتلألأ بألوانها الزاهية ، وفيهم المرتلون وضاربو الصنوج والرئيس في مقدمة القوم وبين يديه غلمان يحملون سعف النخل وطاقات الزهور .

وبعد هنيهة أقبل الركب تتقدمه الخيالة ، وأولهم يزيد راكبا على جواد عربي عدته من الفضة الناصعة البياض ، وعلى كتفه قباء وردي اللون مزركش بالقصب ، فلما وقع نظر سلمى عليه عرفته ، واقشعر بدنها اذ تذكرت حالها معه ، ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر ما يكون . فاذا بالرجالة أسرعوا فضربوا فسطاطه بقرب الدير ، وترجل الفرسان وأقبل الخدم وفيهم خدمة الصيد يحملون البزاة والقرود ويسوسون الكلاب

والفهود كما رأتهم في دير خالد منذ نحو عامين • وكان يزيد اذا رحل جعل همه الاشتغال بالصيد •

ولما ترجل يزيد استقبله الرئيس وكبار اهل الدير ورحبوا به • فلما دخل الفسطاط دخلوا في أثره واستعطفوه ليقيم بينهم ويتناول العشاء عندهم فأجاب دعوتهم •

فأمروا بالابسطة ففرشت في مكان معد لذلك ، وجاءوا بأصناف الاشربة الحلوة بألوانها الزاهية وقدموا ليزيد ورجاله فشربوا • ثم أمر الرهبان باحضار الطعام فحملوه الى هناك وكانت النساء تهيئه وتساعد الخدم في احضاره •

فلما رتبت المائدة وصفت الآنية والاطباق ، نزع يزيد كوفيته وغسل يديه وتصدر المائدة جالسا على وسادة من الحرير المزركش ، وجلس أمراؤه بين يديه ، وأخذوا جميعا في تناول الطعام •

وفيما هم في ذلك ، التفت يزيد الى الراهبات الواقفات للخدمة ، فوقع بصره على الاخت مريم فبهره جمالها ، وتذكر سلمى وكان يعلم انها ماتت منذ عامين او اكثر فقال في نفسه : «يا للعجب ! كم يتشابه الآدميون ! »

وقضى مدة الطعام وهو يردد بصره فيها ولم يتمالك عن الميل اليها والاعجاب بأمرها لشدة شبهها بسلمى •

وكانت سلمى تتجاهل وتتظاهر بتقديم الاطعمة والاشربة وهي مطمئنة البال الى ان يزيد لا يمكن ان يعرفها بعذ ان بلغه موتها من طبيبه ، وبعد ان بدلت اسمها وثيابها وسائر أحوالها •

اما يزيد فكتم شغفه بها ريثما يحتال في استقدامها اليه ، فأخذ يلاطف الرئيس ويثني على ما لاقاه من كرمه وحسن وفادته ويعده خيرا فلما نهضوا عن المائدة دعاه الى خيمته وبالغ في اكرامه حتى غربت

الشمس ودق ناقوس الصلاة فاستأذن الرئيس في الانصراف فأذن له ، ثم أسر الى بعض اهل بطانته ما اضمر من امر الاخت مريم وكلفه استقدامها بحيلة • فخرج الرجل الى الرئيس وقال له : «لقد تعود الخليفة ان يتناول المرطبات قبل النوم» •

فقال الرئيس : «اننا أعددنا كل ما ترتاح اليه نفسه ونحن طوع اشارته » •

قال : «ولكنني لا أظنكم تستطيعون القيام بكل ما يحتاج اليه» •

قال الرئيس : «وكيف ذلك ونحن لا ندخر وسعا في سبيل مرضاته؟»

قال : «ان مولانا امير المؤمنين تعود ان تصلح له الطعام فتاة جئنا بها معنا من دمشق • ولكنها مرضت في اثناء الطريق فأرجعناها وقد قضينا طول الرحلة والخليفة لا يكاد يلتذ بالطعام ، ولكنه لما تناول العشاء عندكم ، أعجبه حسن طهيه ، ورأى بين الخادمات فتاة اعجبته لباقتها في اعداد المائدة ، وتمنى لو انها تصحبه بقية سفره الى حوران» •

فابتدره الرئيس قائلا : «ان بين نساء هذا الدير فتاة ليست راهبة ولكنها من احسن النساء عقلا وذكاء وهي تصلح الطعام احسن اصلاح • فاذا كانت هي التي وقعت من مولانا امير المؤمنين موقع الاستحسان ، ألحقناها ببطانته في هذا السفر ، ولا نظنها الا فرحة بهذا الشرف العظيم» •

فاستبشر الرجل بنيل المرام وقال : «وأي فتاة هي ؟»

قال : «هي التي ندعوها الاخت مريم •••»

فقطع الرجل كلامه قائلا : «انها هي التي أعجبت الخليفة ، فهل تظنها ترضى بخدمته ؟»

فهز الرئيس رأسه هزة الاستخفاف وقال : «ومن ذا الذي يرفض هذا الشرف ؟»

ونادى الرئيس قيّمة الدير وطلب اليها ان تدعو الاخت مريم ، فلما

جاءت ووقفت بين يدي الرئيس قال لها : «اعلمي يا بنية ان مولانا الخليفة مسافر الى حوران ويحتاج الى فتاة تصلح له الطعام ، وقد امتدحت له مهارتك في ذلك ، وقد تنازل ان تكوني في خدمته فأبشري باقبال سعدك واذهبي اليه . وأوصيك ان تبذلي الجهد لارضائه» .

فسكتت سلمى وأبدت الاستحسان بملامح وجهها وقد خفق قلبها سرورا بتلك الفرصة .

ففرح الرئيس ايضا وأثنى على لطفها وقال لها : «سيري منذ الان مع هذا الامير ، وكوني ساهرة في خدمة الخليفة فانه قد غمرنا بفضله واحسانه » .

فسارت سلمى وقد تهيبت تلك المهمة ولكنها صممت على الفتك بيزيد مهما يكلفها ذلك .

وكان يزيد في انتظار رسوله فلما عاد اليه ظافرا غانما اثنى على صدق خدمته ، وأمره ان يعد المرطبات والفاكهة ليتناولها قبل الرقاد . فأعد كل شيء وانصرف ، وبقي يزيد في الخيمة وحده فدعا بالاخت مريم ، فدخلت وقد تلثمت بالخمار متظاهرة بأن اللثام من تقاليد اهل الدير .

وسايرها يزيد في ذلك ترغيبا لها في خدمته ، على ان ينال منها مرامه بعد سفره . واكتفى بأن يتمتع بمرأى ما ظهر من عينيها . فلما وقفت بين يديه أمرها ان تناوله بعض الفاكهة فقدمت له ما شاء وهو لا يبدي شيئا مما في نفسه مخافة ان تأبى الذهاب معه ، ثم تظاهر بالرغبة في النعاس وقال : «اسقيني كأسا من الماء المحلى بالعسل» .

فقالت في نفسها : «اني والله قاتلته بسلاحه» . فتناولت الكأس وصبت فيها العسل وتظاهرت باحضار ماء بارد فخرجت من الخيمة ويداها ترتعشان من عظم الاضطراب ، وفكرت هنيهة في امر السم الذي اعطاها اياه الشيخ الناسك فرأت انها اذا صبته كله ربما يظهر تأثيره عاجلا قبل

ان تتمكن من الفرار فيقبضون عليها ؛ فصبت جانبا منه في الماء ومزجته بالعسل وقدمته له . فتناوله وشربه الى آخره وهو يريد ان ينام ليبكر في الرحيل ويخلو بالفتاة في حوران .

اما هي فلما تحققت انه شرب الكأس خرجت من الخيمة ، وسارت توا الى الناسك فرأته واقفا في ظل الشجرة ، فأشارت اليه اشارة فهم منها انها أتمت مهمتها وتريد الفرار فقال : «هيا بنا لا تخافي» .

وتسلق الشجرة وعاد منها بصرة تأبطها ، وأمسك سلمى بيده ، ومضى بها في طريق لا يراهما احد فيه . ولم تمض برهة حتى كانا قد بعدا من الدير وأصبحا في الصحراء ، فوقف الشيخ وفتح الصره فأخرج منها ثوبين من أثواب اهل البلقاء اعطى سلمى احدهما فلبسته ، ولبس هو الآخر ؛ فأصبح من يراهما لا يشك في انهما رجلان من اهل البلقاء ؛ فعجبت سلمى لتأهب الشيخ الناسك وتحوطه ، ولكنها ما زالت خائفة فقالت : «اخشى ان يلحق بنا الجند فما العمل ؟»

قال : «لا تخافي . اتبعيني والله المنجي» . فسارت في اثره . وقضيا بقية الليل يلتمسان الطريق والناسك يرشدها كأنه يسير في ضوء النهار .

★ ★ ★

أصبحا في اليوم التالي فاذا هما بالقرب من بناء خرب تدل بقاياه على فخامة اصله لكبر أحجاره وسعة مساحته . فقالت سلمى : «اين نحن يا مولاي ؟ »

قال : «اننا في البلقاء ، وهذا صرح الغدير الذي يتغنى به الشعراء» .

قالت : «ألا يسكنه احد الان ؟»

قال : «كلا فانه من بناء الغساسنة ، وكانوا عربا نصارى فلما جاء

المسلمون الشام وفتحوها دخلوا في حوزتهم • وكان القصر لبعض ملوكهم يقيمون فيه بعض السنة ، وهو من بناء ثعلبة بن عمرو احد أجدادهم ، بناه منذ اربعة قرون ، وقد درس كما درسوا ، وسبحان الحي الباقي» • ثم اشار عليها بالاستتار هناك بقية النهار ، على ان يستأنفا المسير ليلا فقالت : «والله لا أبالي اذا مات يزيد ان اموت انا في اثره ، اذ اكون قد قمت بالواجب وشفيت ما في نفسي ونجيت المسلمين من شر عظيم» •

قال : «انه مائت لا محالة لان نصف ذلك السم كاف لقتله» •

قالت : «ولكنني لم أسقه اكثر من النصف فهل يميته ؟»

قال : «انه يميته بعد ايام وقد فعلت حسنا بتقليل المقدار» •

ومشيا وهما يتكلمان حتى دخلا من باب القصر الى ساحة تراكمت فيها الاتربة والاحجار ، وانسابت فيما بينها بعض انواع الحشرات • فتحول الشيخ وسلمى الى بقايا غرفة كأنها كانت مجلس اهل ذلك القصر في ايام عمارته ، لها نافذة تطل على واد فيه آثار جدول جف ماؤه منذ أعوام • فاختار الشيخ حجرا نظيفا بجانب النافذة أجلسها عليه وجلس هو بجانبها • ثم نهض بغتة وقال : «دعيني أنصرف عنك برهة ثم اعود اليك بالطعام • هل تخافين الانفراد ؟»

قالت : «لا اخاف ، ولكنني أستوحش وأنا في هذه الخرائب المرهبة• دعنا من الطعام فاني لا أحتاج الى شيء منه غير الذي جئتني به من الدير ريثما ننتقل الى مكان آخر» •

قال : «تحدثني نفسي ان نختبيء في هذا المكان حتى نرى ما يكون، ولكن ما معنا من الزاد يكفي فامكثي هنا ولا بأس عليك ، واني اعرف عربا من بقايا الغساسنة على مقربة من هذا المكان فأذهب اليهم وآتيك بما تصل اليه يدي والله الموفق» • فلم تر بدا من طاعته •

وخرج الشيخ الناسك وعليه ثوب اهل البلقاء ، وبقيت سلمى بين تلك الاطلال وحدها ، فما لبث الشيخ ان توارى عن بصرها حتى أحست بالوحشة ، وندمت على بقائها في ذلك المكان ، وودت لو انها سارت معه الى حيث سار • ونظرت الى ما حولها فاذا هي بين آكام من الاتربة تزحف بينها الخنافس وأنواع النمل ، فملت الجلوس هناك • فوقفت وأرادت ان تشغل نفسها عن وحشتها فمشت لتتفقد بقايا ذلك الصرح وتتأمل في اصل تكوينه ، فخرجت من تلك الحجرة الى غيرها فغيرها حتى انتهت الى دهليز مشت فيه فأفضى بها الى سلم يطل على الوادي ، فعلمت انه كان مخرج اهل القصر الى ضفاف ذلك الجدول ، فانحدرت على السلم حتى انتهت الى مصطبة صغيرة • وكانت قد تعبت فجلست عليها ، وأعجبها الظل وأنعشها النسيم البارد فطاب لها البقاء هناك ، وجلست وقد أحست بالتعب الشديد والنعاس الثقيل على آثر ما قاسته في الليل الماضي من التأثر والسهر والركض ، فغلب عليها النعاس فنامت واستغرقت في النوم • ولا تسل عما مر في مخيلتها من الاحلام وفيها المرعب والمزعج •

***

استيقظت سلمى من نومها مذعورة اذ طرق سمعها جعجعة جمال ، فنهضت وتلفتت الى ما حولها فرأت ثلاثة رجال قادمين من عرض البر نحو القصر ، وعلى الرجال لباس الدماشقة ، فارتعدت فرائصها ولم تشك في انهم من أتباع يزيد وقد اقتفوا أثرها بعد ان أصيب يزيد بسوء ، فهرولت على السلم وعادت الى الدهليز ومنه الى الحجرة التي كانت فيها وانزوت بحيث ترى القادمين ولا يرونها ، فاذا بهم ترجلوا بجانب شجرة

على قيد أذرع من القصر ، وعقلوا الجمال وأخرجوا طعاما وجعلـــوا يأكلون • فتوارت سلمى وعادت الى جهة باب القصر لعلها تجد الشيخ عائدا من مهمته فتستأنس به ، فلما استبطأته شغل بالها ، ثم عادت الى الحجرة ، ولبثت حتى مالت الشمس عن خط الهاجرة ودنت من الاصيل ولم يعد الشيخ ، فازداد قلقها وعادت الى باب القصر ، ولم تكد تصل اليه حتى رأت الشيخ يعدو نحوها فوقفت في انتظاره • فلما أقبـــــل استغربته لانها رأته قد قلم أظافره ومشط لحيته وقص شعره ورفع حاجبيه عن عينيه ، ولولا الثوب الذي رأته عليه في ذلك الصباح لأنكرته ولكنها رأت التعب والبغتة في وجهه فقالت : «ما وراءك يا مولاي ؟ ومـــا الذي جرى ؟»

قال : «ما ورائي الا الخير ، دعيني أسترح ، ثم أقص عليك الخبر ولكنه خبر مفرح فلا تخافي» • فاطمأن بالها بعد ان كانت تضطرب • وبينما هي في انتظاره وهو يلهث من التعب ، سمعت وقع أقدام خارج الباب ، وسمع الشيخ ذلك ايضا ، فجلس حتى استراح وهدأ نفسه ، ثم وقف ومشى الى الباب وأمر سلمى ان تبقى داخل القصر ريثما يعـــود فمكثت حسب اشارته •

ورأى الشيخ رجلا عليه لباس اهل دمشق فرحب به وحياه • فقال الرجل : «هل في هذا المكان منزل للاضياف ؟»

قال الناسك : «كلا انه قصر خرب لا يسكنه احد» •

قال : «ولكننا رأينا فيه اناسا» •

قال : «ليس فيه احد الا انا وابني ، وقد مررنا به هذا الصباح فأقمنا ريثما نستريح • من اين انت قادم ؟»

قال : «انني قادم مع رفيقي هذين (وأشار الى رفيقيه) من دمشق» •

قال الشيخ : «والى اين تقصدون ؟»

قال : «الى بصرى ، ويظهر لي من لباسك انك من اهل البلقاء فهل كنت في بصرى ؟»

قال : «نعم اني قادم منها» .

قال : «هل مررت بدير بحيراء ؟» . قال : «نعم» .

قال : «أرأيت في الدير او في جواره شيخا ناسكا لا يأوي المنازل؟»

فلما سمع الشيخ كلام الرجل خفق قلبه وقال : «نعم أظنني رأيت مثله هناك . ولكن ما الذي يهمك من امره ؟»

قال : «لا يهمني شيء ، ولكن رفيقي عرفاه مذ كان في جوار دمشق، ثم سمعا انه يقيم بجوار بصرى وهو شيخ ذو كرامة لو لقيته وخاطبته لعلمت انه من الاولياء» .

فأدرك الشيخ ان في الامر سرا يهمه استطلاعه فقال : «ومن هما رفيقاك ؟» . قال : «لا ادري من هما ، ولكنني صحبتهما من جوار دمشق على ان آتي بهما بصرى ثم اعود . وهما اللذان قصا علي كرامات الشيخ الناسك» .

قال الشيخ : «لماذا لا يأتيان الى هنا فأقص عليهما من نبأ الشيخ الناسك وما يغنيهما عن التعب الكثير» .

★★★

تحول الرجل الى رفيقيه ، وسار الشيخ في أثره حتى أقبل على الرجلين ، وكانا جالسين تحت الشجرة . فلما رأيا رفيقهما ومعه آخر تبرما كأنهما استاءا من ذلك . أما الشيخ فلم يكد يراهما حتى عرف انهما عامر وعبد الرحمن ، ففرح فرحا عظيما ولكنه تجلد وأراد ان يمتحنهما . فلما أطل عليهما رحبا به وهما لا يعرفانه لتغير هيئته ، فقال لهما : «ماذا

تريدان من الشيخ الناسك لعلكما من اهله ؟»

فقال له عامر : «لسنا من اهله ، ولكننا عرفناه في دمشق وأحببنا ان نلقاه ، فهل رأيته ؟»

قال : «لقيته في دير بحيراء ، ولكنكم اذا ذهبتم اليه فلن تجدوه هناك » .

قال عامر : «وأين نجده ؟»

فالتفت الشيخ الى رفيقهما وخاف من التصريح امامه فقال لعامر : «اذا شئت ان ترى الشيخ الناسك فاني أدلك على مكانه في هذه الساعة تعال معي» .

وكان عبد الرحمن جالسا يسمع حديث عامر والشيخ لا يتكلم ، فلما سمعه يقول ذلك ، نهض ونهض عامر ، ومضيا حتى بعدا عن الشجرة ، ودنوا من القصر فقال الشيخ : «ان الشيخ الناسك مقيم بهذا القصر» .

فقال عبد الرحمن : «ما زلت منذ صباح هذا اليوم وأنا انظر الى هذا القصر فلم اجد فيه غير شخص يظهر انه في ريعان الشباب ، وقد استغربنا مقامه وحده هنا» .

قال وقد رفع صوته : «يا للعجب ! اقول لكم قولا فلا تصدقونني؟!»

فلما سمع عامر صوت الشيخ ، داخله الشك في امره ، وأخذ يتفرس في سحنته فرآه يشبه الناسك من جهة ، ويشبه من جهة اخرى شخصا اخر يعرفه ، ولم يكن قد رآه منذ بضعة عشر عاما . فلبث صامتا لا يتكلم كأنه أصيب بالبله .

فقل له الشيخ : «ما بالك ؟ ما الذي ربط لسانك يا عامر ؟»

وما أتم كلامه حتى ترامى عامر على الشيخ وجعل يقبل يديه ويقول : «انت الشيخ الناسك ؟ انت ؟»

فلما سمع عبد الرحمن ذلك صاح فيه : «اين سلمى ؟»

قال : «وما أدراك ببقائها وأنت اخبرتني انها ماتت ورأيت قبرها محفورا ؟ »

فقال : «قلت لك ذلك وكان هذا اعتقادي واعتقاد عمي عامر ، ولكن زينب بنت علي أنبأتنا ببقائها على قيد الحياة ، وانها صحبتها في وقعة كربلاء ، ثم الى دمشق ، ثم لم تعد تعرف مقرها» .

فنظر الشيخ الى عبد الرحمن وقال : «وهي ايضا كانت تعتقد انك ميت حتى أنبأتها ببقائك حيا ونحن في كربلاء . ثم علمت انك خرجت الى الكوفة في مهمة وانقطع خبرك فيئست من بقائك و ...»

فقطع عبد الرحمن حديثه وقال : «والآن قل لي اين هي سلمى ، هل هي معك ام اين ؟ قل لي . بالله قل لي» .

قال : «ألم ترها اليوم ؟»

قال : «اين ؟»

قال : «في هذا القصر !»

فأطرق عبد الرحمن ثم قال : «لعلها الشخص الذي رأيته وحسبته شابا ؟» . قال : «نعم» .

فهم عبد الرحمن بالمسير الى القصر وقد شاعت عيناه وخفق قلبه ولم يعد يصبر عن رؤية سلمى ، فمنعه الشيخ وقال : «تمهل لأطلعها على خبرك رويدا رويدا لئلا تضر البغتة بها . وأرى ان تصرفا هذا الرفيق لئلا يطلع على شيء من امرنا» .

فقال عامر : «انه رفيق مأجور ليدلنا على الطريق» .

قال الشيخ : «اصرفه الساعة ونحن نعرف الطريق» .

قال : «سأرسله الى بصرى ليسأل عن الشيخ الناسك هناك» .

***

أشرق وجه عبد الرحمن ، وأبرقت أسرته ، وأخذ يتطلع الى القصر

ويتطاول لعله يلمح سلمى .

وعاد الشيخ الى القصر ، فرأى سلمى في الحجرة وقد ملت الانتظار لتعلم من هو ذلك الرجل وتستطلع ما دعا الى تغيير سحنة الشيخ ، فلما أقبل عليها أبتدرته بالاستفهام عن سبب ذلك التغيير فقال : «دعي عنك ذلك الان وفكري معي في سبيل للنجاة من الورطة التي نحن فيها !»

قالت : «وأي ورطة ؟» . وعلت الحمرة وجهها .

قال : «ان هؤلاء الرجال قادمون من عند يزيد للبحث عنك ، فهل اخبرهم بمحلك ؟»

فبغتت سلمى وقالت : «قلت لك اني لا أبالي بالموت اذا علمت ان سهمي اصاب مقتلا من يزيد» .

قال : «اذا آكدت لك ان يزيد مات من تلك الجرعة ، هل تسلمين نفسك الى رجاله ليقتصوا منك ؟»

قالت : «اذا استطعت النجاة فلا آلقي بنفسي بين أيديهم ، اما اذا قبضوا علي وأرادوا قتلي فاني لا آبالي ، ولكن ..» . وسكتت .

قال : «مالك ترددين ؟. قولي ، ان هؤلاء الثلاثة تتبعوا خطواتنا حتى ادركونا هنا وهم يبحثون عنك فهل اقول لهم انك هنا ؟»

فاستغربت سؤاله ولم تفهم أمازح هو ام جاد ، فقالت : «قلت لك اني اذا نفذ سهمي لا أبالي ان أقتل الا اذا كان» . وخنقتها العبرات ولم تعد تتمالك عن البكاء والشيخ صامت لا يتكلم ، ثم سألها : «اذا كان مـــاذا ؟ »

قالت والبكاء يغالبها ويخنق صوتها : «اراك تهزأ بي وعهدي بك أحن علي من الوالد على ولده ، فما بالك تتجاهل عواطفي ؟. على اني مع ذلك لا أستحيي ان اقول : اذا كان حبيبي عبد الرحمن ما زال حيا فاني أضن بحياتي وأحب البقاء من اجله ، والا فاني لا أنتظر رجال يزيد

ليبحثوا عني بل ألقي بنفسي بين أيديهم وأعرض صدري لأسنتهم او أتجرع بقية السم وهو ما زال معي» • قالت ذلك وهي تشهق من شدة البكاء •

فأجابها الشيخ بضحكة طويلة طالما سمعتها منه وقال لها : «عبد الرحمن ؟!• وما لك وعبد الرحمن ؟• واذا فرضنا ان يزيد مات وعبد الرحمن ما زال حيا صحيحا معافى فماذا تقولين ؟»

قالت : «لا تهزأ بعواطفي يا مولاي ، فقد كفاني ما اصابني ، أستحلفك بالله ان تتركني وشأني» •

قال : «وما معنى الاستهزاء الان ، اني اقول الجد • واذا كنت لا تصدقينني فاني أرفع صوتي مناديا عبد الرحمن فاذا هو بين يديك وعامر معه !»

فتفرست في الشيخ وقد تملكتها الدهشة ، وفكرت قليلا وهي لا تزال تظنه يمزح ولكن قلبها خفق خفوق الفرح وكأنه دلها على صدق قوله فقالت : «نعم ادع لي عبد الرحمن ، او قل لي اين هو فأسعى اليه على رأسي ويدي» •

قال : «بل هو الذي يسعى اليك ، تربصي ريثما ادعوه اليك» • قال ذاك وخرج وهي لا تزال تحسبه يعبث بها ، ولكنها سارت في أثره ، فما كاد بصرها يقع على الرجلين حتى عرفت عبد الرحمن ، فأسرعت نحوه ، وأسرع هو نحوها حتى تقابلا ، فرمت نفسها بين ذراعيه فضمها ودموعها تتساقط من شدة الفرح ، وعامر والشيخ واقفان وقلباهما يرقصان فرحا•

ثم دخلوا جميعا الى القصر ويد سلمى في يد عبد الرحمن ، وعامر لا يزال يفكر في امر الناسك ومشابهته رجلا يعرفه •

ولما دخلوا الحجرة جلسوا يقصون ما مر بهم من الحوادث •

فبدأ عامر يقص ما اصابه وأصاب عبد الرحمن منذ ذهبا الى الكوفة،

فقال : «ذهبنا الى الكوفة للبحث عن امر مسلم بن عقيل • فقبضوا على رفقائنا ونجونا نحن واختفينا في مكان ريثما نرى ما يكون من امــــر الحسين ورجاله ، فلما علمنا بمقتلهم وارسال اهلهم الى دمشق ، اقتفينا أثرهم اليها فقيل لنا انهم أرسلوهم الى المدينة ، وكان اليأس قد اخذ منا مأخذا عظيما لاعتقادنا بموت الحبيبة سلمى ، مع حبوط مسعانا فـــي نصرة الحسين • وسرنا الى المدينة فأقمنا فيها حينا • ولم يتفق لنا لقاء زينب الا بعد وقعة الحرة التي أتم بها يزيد فظائعه •

«وكنت في اثناء هذه الوقعة مع اهل البيت ، وقد اوصى بهم يزيد خيرا هذه المرة فلم يصابوا بسوء ، فلما انقضت المذبحـــة لقيت زينب فسألتني : (هل لقيتَ سلمى ؟) • ثم اخبرتني بما كان من امرها ، وبأنها فارقتها آخر مرة خارج دمشق ، فركبنا الى دمشق وبحثنا عنها فلم ينبئنا منبىء بخبرها • ولكننا فهمنا في اثناء البحث انك كنت هنا في ذلـــك الوقت ، فترجح لنا انكما سرتما معا • وبعد التحري علمنا من بعـــض القادمين من بحيراء الى دير خالد انك تقيم الى جانب بصري ، فجئنا لعلنا نراك ونبحث عن سلمى • فالحمد لله على هذه الصدفة الغريبة» •

وقصت سلمى ما اتفق لها منذ كانت في قصر يزيد الى اخر حديثها•

وقص الناسك ما كان من وقعة كربلاء حتى اتى على حديث الامس وجرعة العسل فابتدرته سلمى قائلة : «لم تخبرني بعد عن سبب تغـــير سحنتك» •

قال : «هذا لا أخبرك به الان ، ولكنني اخبرك بسبب تأخري عن الرجوع ، ذلك اني لما خرجت لجلب الطعام ، رأيت ان أستطلع عاقبة تلك الكأس ، فهرعت الى بصرى لأتنسم الاخبار ، فعلمت ان يزيد ركب في ذلك الصباح وهو يشكو جنبيه ، وقد أصابته بحة ، وهي اول أعراض ذلك السم ، وما أظنه الا مائتا قريبا فينجو الاسلام والمسلمون مـــن

خلافته » .

وكان الشيخ يتكلم وعامر يتأمل في ملامحه وحركاته لمشابهته رجلا يعرفه ، فلما سمعه يذكر قرب موت يزيد ، شغله الفرح بذلك عن كل شاغل ، وكذلك عبد الرحمن وسلمى ، وباتوا تلك الليلة ولم يناموا الا قليلا لشدة الفرح .

وفي ضحى اليوم التالي عاد رسولهم الذي أنفذوه الى بصرى فسألوه عما وراءه فقال : «لم اجد الشيخ الناسك ،ولكني سمعت بموت يزيد على حدود حوران» .

فصاح الشيخ : «هل تحققت موته ؟»

قال : «نعم يا مولاي» .

فقال الشيخ : «وما سبب موته وعهدنا به صحيح البدن ، ولم يجاوز الثامنة والثلاثين؟ »

قال الرجل : «سمعتهم يقولون انه أصيب بداء الجنب والذبحة ، وكأنه ذاب ذوبان الرصاص» .

فتظاهر الشيخ بالاسف وأشار الى عامر ان يصرف رسوله ففعل ، ثم عاد وخلا الاربعة في احدى حجرات صرح الغدير ، ولم يمر بأحدهم يوم اسعد من ذلك اليوم ولاسيما سلمى ، لانها هي التي باشرت الانتقام بنفسها .

ونظر اليها عبد الرحمن نظرة المحب المفتون وقال : «لا ادري كيف أبدي لك حبي ؟ وقد احرزت أشرف خلال النساء وأندر خلال الرجال، فحويت الجمال والوقار والحكمة والعقل والشجاعة . وحسبك انك قتلت ذلك الدعي وأنقذت المسلمين من ظلمه وانتقمت لابيك انتقاما عجزنا كلنا عنه» .

فقالت سلمى : «اني انما فعلت ذلك لانه الواجب» .

وكان الشيخ في اثناء ذلك شاخصا في الفضاء كأنه مستغرق في امر ذي بال ، وعامر ينظر اليه من طرف خفي ويتفرس في وجهه لمشابهته رجلا يعرفه ، وهو عزيز عليهم جميعا ، ثم اتنبه الشيخ الناسك كأنه هب من رقاد والتفت اليهم وقال : «آن لي ان أقص عليكم ما تتساءلون عنه من خبري • تعالوا معي» • فساروا في أثره حتى دخلوا غرفة ، فجلس وقد تغير وجهه وبان الجد في عينيه وكأنه كان مصابا بالجنون وعاد عقله اليه في تلك الساعة ، وظهر ضعف الشيخوخة فيه • وقبل ان يقص حكايته التفت الى عامر وقال : «ألم تعرفني يا عامر ؟»

فتفرس فيه عامر وقال : «قد عرفتك الان فقط •• ألست عديـــا والد حجر ؟»

قال : «نعم» •

فلما قال ذلك التفتت سلمى اليه وقالت : «جدي ؟»

قال : «نعم يا حبيبتي ولعلك ادركت شيئا من ذلك يوم سمعتني ارثي الحسين في سهل كربلاء» •

فترامت سلمى على يديه تقبلهما وقبلها عدي وهو يبكي ويشهق ، وبكى عبد الرحمن وقبل يد الشيخ ، ثم عاد الشيخ الى اتمام الحديث فقال : «اما سبب تنكري فذلك اني لما أصبت بمقتل حجر لم يعد يحلو لي البقاء • ولكن قلبي ظل متعطشا للانتقام ، فعللت نفسي بموت معاويـــة ومبايعة الحسين • وجعلت مقامي فوق قبر ابني في غوطة دمشـــــق أستنشق ترابه وأتنسم ريحه • فلما لم يظفر الحسين بالبيعة ، وتولـــى الخلافة يزيد ، صبرت في انتظار الفرج او الموت ، فلما جئتم الى دير خالد واجتمعتم تحت الجوزة وتعهد عبد الرحمن بقتل يزيد ، كنت انا مختبئا في أعلاها ، وأنا القائل لكم في تلك الليلة : (وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم) • وظللت كاتما امري وأنا أسعى في مساعدتكم جهدي ،

وأخفي وجهي حتى لا يعرفني عامر • وقد عاهدت الله منذ مقتل حجر ألا أقص شعري ولا آكل غير الفاكهة ولا آوي الى المنازل ، فلما علمت امس بقرب موت يزيد حللت نذري وقصصت شعري كما ترونني» •

وسكت الشيخ قليلا ثم قال : «أما وقد مات يزيد ، فقد آن لي ان أسلم الروح ، واني أوصيكم بتقوى الله ، والتفاني في نصرة اهل النبي ، فأقيموا بمكة وحجوا الى كربلاء وابكوا قتلاها ما استطعتم ، وسيقتص الله من القوم الطاغين» •

قال ذلك وقد تلجلج صوته ، وكلهم يبكون ويعجبون ، ثم توسد وتمطى وهو يقول : «اني أتلقى الموت بالترحاب» • وما أتم قوله حتى أسلم الروح •

فبكوه وهم في دهشة من امره ، ثم دفنوه في أصيل ذلك اليوم •

وبعد ايام رحلوا عن البلقاء ،حتى اتوا مكة وفيها ابن الزبير ولا سلطان للامويين فيها ، فعقدوا لعبد الرحمن على سلمى ، وعاشوا في هناء وسلام •

سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تأليف جرجي زيدان

١ ـ فتاة غسان
٢ ـ أرمانوسة المصرية
٣ ـ عذراء قريش
٤ ـ ١٧ رمضان
٥ ـ غادة كربلاء
٦ ـ الحجاج بن يوسف
٧ ـ فتح الأندلس
٨ ـ شارل وعبد الرحمن
٩ ـ أبو مسلم الخرساني
١٠ ـ العباسة أخت الرشيد
١١ ـ الأمين والمأمون
١٢ ـ عروس فرغانة
١٣ ـ أحمد بن طولون
١٤ ـ عبد الرحمن الناصر
١٥ ـ فتاة القيروان
١٦ ـ صلاح الدين الأيوبي
١٧ ـ شجرة الدر
١٨ ـ الانقلاب العثماني
١٩ ـ أسير المتمهدي
٢٠ ـ المملوك الشارد
٢١ ـ إستبداد المماليك
٢٢ ـ جهاد المحبين